لهذا تحدثت الشجرة

أنس العاقل

مركز المحروسة
للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات

الأعمال الكامله
t.me/kotbhm

رواية

هكذا تحدَّثتْ الشجرة

أنس العاقل

الطبعة الأولى ٢٠١٧

عنوان الكتاب : هكذا تحدثت الشجرة

المؤلف : أنس العاقل

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

قطعة رقم ٧٣٩٩ ش٢٨ من ش ٩ - المقطم - القاهرة
ت. ف : ٠٠٢-٠٢-٢٨٤٣٢١٥٧

www.mahrousaeg.com
e.mail : info@mahrousaeg.com
e.mail : mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة : فريد زهران
مدير النشر : عبدالله صقر

رقم الإيداع: ٢٠١٧/٤٢٠٦
الترقيم الدولي : 978-977-313-625-3

جميع حقوق الطبع
محفوظة لمركز المحروسة
٢٠١٧

رواية

هكذا تحدَّثت الشجرة

أنس العاقل

الطبعة الأولى ٢٠١٧

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

العاقل، أنس
هكذا تحدثت الشجرة : رواية / أنس العاقل . - ط١.
القاهرة : مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، ٢٠١٧.
٢١٥ ص ؛ ١٤ × ٢٠سم.
تدمك : ٣ ٦٢٥ ٣١٣ ٩٧٧ ٩٧٨
١- القصص العربية
أ- العنوان
٨١٣

رقم الإيداع : ٢٠١٧/٤٢٠٦

ماذا لو كنتُ وأنا طفل
قررتُ أن أتحول إلى شجرة
من كان سيمنعني؟
كان يكفي أن أنزل إلى ضفة الوادي القريب من بيتنا
فأتحول شجرة بعد ترتيلة أو تحريك خاتم
من كان سيمنعني؟
كانوا سيسألون عني
يبحثون عني حتى في الضفة
وفي كل مرة يقفون قربي يفتشون
سأضحك من دون أن يسمعني أحد
.... لو أني كنت تحولت إلى شجرة
لكنت الآن مدرسة للموسيقى
مزارًا لأهل السماء
المَن والسلوى للغرباء
أميرة بحذاء من حرير
ربما كنت محجوبة عن أعين الحُطاب
فلا أتحول إلى باب في زنزانة أو باب في قصر

عبد الكريم الطبال[1]

---

[1] شاعر مغربي من مواليد مدينة شفشاون. من أعماله الشعرية: الطريق إلى الإنسان، الأشياء المنكسرة، البستان، عابر سبيل. وله دواوين أخرى منها: آخر المساء، شجر البياض، القبض على الماء... حصل على جائزة المغرب للكتاب عن ديوانه "عابر سبيل" سنة ١٩٩٤.

الفصل الأول

تعلم كيف تنضج في الجليد

قالت الشجرة: أناك حجاب حاجز يحجب ذاتك عنك، فأنت تدور في فلكك ثم تعتقد أنك رب المجرة، وتستيقظ كل فجر لتستقبل الشمس فتعتقد بأنها تشرق لكي تستقبلك. الشمس لا تبالي بوجود أحد، وأنت من يلزمه التماثل مع دورانها لتشتعل بقلبك شمس المحبة. عندها لن تكون هناك شمس... ستصبح أنت الشمس.

(١)

ليس لي قلب في هذا الوطن، وطني قلبي أينما ارتحلت، مقهى الحي حيث أشرب قهوتي كل صباح، قيلولة عصر، غناء الصبيات حزنًا، وثرثرة النساء في الأفراح. وطني لغط الباعة المتجولين، شقاوة الأطفال حينما يلعبون، رائحة الخبز العائد من الفران، وجبة سمك مشوي بين الأصدقاء... وأول قبلة اختلستها فوق أسطح الجيران. وطني، دعوات أمي كل صلاة وحينما أعود من السفر. وطني لفافة، كأس شاي، وجلسة سمر. ولغتي تصبح وطنًا حينما يتعطل قطار الوطن. ما أقبح أن يخذلك الوطن وأنت على مشارف المنحدر. أتساومني في علبة دواء وتمسح بي خطاياك؟ ثم تستجيب لمن لا يرفع بالدعاء أكفه إليك، تجيب من يخونك مع لغة أخرى ويمنح قلبه للأخريات، من يدعو كل البغايا إلى سريرك ثم يعلق أخطاءه فوق مشجبك. أتدعوه كي يجالسك بعدما أدخل كل الزناة إلى حجرتك؟

وطني عجوز أرهقتها المساحيق، أميرة متسولة تطرد الشعراء عن موائد الأفراح، وتطعم عاشقيها من موائد العزاء. أعجب لمن لا يجد قوت يومه وعلبة دواء، كيف لا يخرج في الناس شاهرًا ثورته.

عندما انتهى "عبدو" من الرقن بقي يتأمل ما كتب، نغص عليه الألم لحظته. وفي غمرة الألم قرر أن يتحدى جسده، نهض من فراشه، وضع الأحزمة الطبية التي تثبت وضعية ظهره ومفاصله، ثم لبس جلبابه الصوفي وخرج لا يلوي على شيء. كان منزلهم في أقصى الزقاق داخل حي شعبي وسط الدروب الملتوية. كانت بعض مصابيح الإنارة العمومية معطلة عن العمل، لذلك بدا الزقاق مظلمًا بعض الشيء. لكنه لم يكترث لأي شيء، خرج ككاميكاز من أجل رحلة بدون عودة، واخترق

الزقاق غير عابئ بالأمطار التي كانت تهطل بغزارة إذ لم يكن يحمل مظلة. تناهى إلى سمعه صوت "التهاليل" التي تسبق أذان الفجر، توقف قليلًا ليستمع إليها فقد كان صوت المؤذن عذبًا، كان يحب الاستماع لصوته وهو ينشد داخل صومعة مسجد الحي بعد صلاة العشاء خلال شهر رمضان. لقد أحس بصوت خفي بداخله يدعوه للتوجه إلى المسجد، دخل وجلس هناك في ركن قصي. لكن عندما حانت لحظة الصلاة لم يصل معهم، لقد ظل يتأملهم فقط. وعندما انتهوا من الصلاة بقي في المسجد يستمع لتلاوتهم الجماعية للقرآن. لقد كان كمقامر يلعب آخر أوراقه مع القدر، ربما كان يريد أن يقدم رشوة لله.

يتذكر يوم شخص له الطبيب مرض "التهاب المفاصل الريماتويدي"، كان حينها في أواسط الثلاثينيات من عمره، وكان جسده كل رأسماله فقد كان الآلة التي يعزف عليها ويعبر بها عما يحس به تجاه الوجود. لقد كان العازف والآلة في نفس الوقت، وكان محبًا للحياة يعشق أن يخرج متى شاء إلى البحر أو ليصعد الجبل، لكن جسده على مشارف أن يخذله ويقعده. لقد كان يدفع أقساط التغطية الصحية لمكتب رابطة الفنانين بانتظام، لذلك حينما لاحت بارقة أمل من الطبيب وأسر إليه بخبر الحقنات التي يجب أن يستوردها من فرنسا والتي بإمكانها أن تعطل تطور المرض، فكر أن يعرض عليهم ملفه الطبي عساهم يتكلفون بمصاريف استيراد الحقنتين من فرنسا. لم تكن تلزمه سوى حقنتين، أن يستعمل الأولى في أقرب وقت ممكن والثانية بعدها بستة أشهر. لقد كان ثمن الحقنة الواحدة خمسين ألف درهم مغربي، وكانت تلزمه مائة ألف درهم مغربي ثمن الحقنتين.

عندما دخل إلى مكتب رابطة الفنانين تقدم إلى السكرتيرة وقدم لها بطاقته الفنية ورقم اعتماده داخل الرابطة، ثم الإيصالات التي تثبت

أنه يؤدي أقساط الانخراط بانتظام، وبعد ذلك شرح لها طبيعة مرضه وأطلعها على ملفه الطبي. طلبت منه الانتظار قليلا حتى يأتي مدير مكتب الرابطة لأن ملفًا مثل هذا يتطلب الضوء الأخضر منه شخصيًا كي تستطيع مباشرة الإجراءات معه.

بقي ينتظر تقريبًا لمدة ساعة وهو يقاوم الألم الذي يعتصر مفاصله، لقد كان مشلول الحركة جزئيًا، يتمشى بصعوبة لأن عموده الفقري فقد ليونته، وكان يحس بطرطقة ممزوجة بالألم كلما حاول أن يطوي ركبتيه، كان الألم فظيعًا لكنه مكابر بطبيعته، لقد كان يكابر حتى مع الألم. تذكر كل أولئك الفنانين والأدباء الذين لم تكن لهم تغطية صحية فتأتي كاميرات التلفزيون لكي تعرض بؤسهم على المشاهد وهم في أرذل حالاتهم يتسولون العلاج. وتذكر كل تلك المواقع الاجتماعية وهي تعرض صورهم لتستدر شفقة ممزوجة بالتشفي. "مسكين، ينتظر منكم أن تساعدوه ومن لم يستطع فليَدْعُ له على الأقل". كانوا يتشفون في ذلك المبدع الذي طالما شكل جزءًا من أحلامهم، فبقدر حبهم له كانوا يتلذذون بانكساره ليعوضوا بذلك عن عجزهم وفقرهم الإبداعي، إنهم يقولون ما بينهم وبين أنفسهم أحسنا صنعًا عندما لم نحترف الفن والأدب لكي لا ننتهي هذه النهاية المفجعة ونحن نتسول العلاج، لدينا على الأقل تغطيتنا الصحية رغم تفاهة الوظائف التي نشغلها والمهمات التي نقدمها للآخرين. أما أنتم يا من تمرون فوق السجاد الأحمر فتصوركم عدسات الكاميرا وأنتم تتهادون كأمراء أو كأنصاف آلهة تذكروا أننا يومًا ما سنمارس إزاءكم حقنا في التشفي فيكم عن طريق شفقة تحمل الكثير من السادية. تذكر كل تلك الصور التي رآها عن ضحايا مرض "التهاب المفاصل الريماتويدي" وكيف تظهر أعراضه بسرعة وتؤدي إلى اعوجاج كافة أطراف الجسد وتشوه مفاصله، فتخيل نفسه

بجسد مشوهة أطرافه كمسخ بشري، وتخيل عجزه عن الحركة وطلبه للمساعدة من أجل أن يذهب إلى المرحاض. أيمكن أن يصبح حقك في الذهاب إلى المرحاض كي تقضي حاجتك بمفردك أمنية غالية؟

قطع تأملاته دخول الشخص المسؤول متأخرًا عن موعده بعدما تناول طعام الغداء رفقة أسرته واستمتع بقيلولة بعد الظهيرة. بعد لحظات نادت عليه السكرتيرة لكي يدخل لمقابلة المسؤول. دخل فوجده منهمكًا في تصفح كومة من الأوراق. جلس فوق الكرسي ينتظر أن يرفع إليه عينيه كي يشرح له حالته، لكنه أكمل تصفح الأوراق وكتابة تقرير على الحاسوب. كان كهلًا في أواخر الخمسينيات من عمره، بشرته بلون الصدأ، ويلبس بذلة رمادية اللون بهت لونها من كثرة الاستعمال، إنها تشبه تلك البذلات التي كان يلبسها العرسان في حفلات الزواج في الستينيات من القرن الماضي. وكان يلبس أيضًا نظارات بإطارات عريضة بنية غامقة اللون. أما حينما يتحدث إليك فهو يرفع عينيه فقط بينما يظل رأسه غارقًا بين الملفات دلالة على أهمية الوقت لديه، إنه ينظر إليك من خارج الإطار ويتفحصك كماسح ضوئي. تحدث له عبدو عن حالته الصحية المستعجلة والحقنات التي يستلزمها العلاج، فأومأ فقط بإجابة من رأسه دلالة على عدم الموافقة.

- لماذا؟

- لأن ميزانية رابطتنا لا تسمح بتغطية هذا المبلغ.

- ولكنني أؤدي أقساطي بانتظام، ولديكم دعم من الدولة من أجل القيام بعملية موازنة الميزانية.

- أقصى ما نسمح بتغطيته لا يجب أن يتعدى مبلغ عشرة آلاف درهم في السنة.

- لكن هناك حالات استثنائية يمكنكم أن تأخذوها بعين الاعتبار.

- الحالات الاستثنائية تتكلف بها الرعاية الملكية. أعد ملفك، فنعرضه على الديوان الملكي وننتظر الإجابة.

تذكر حينها كل المعارضين السياسيين الذين اضطروا في أرذل عمرهم إلى طلب رعاية ملكية من أجل التطبيب حتى أولئك الذين كانوا أشد شراسة في معارضتهم للنظام. تذكر أيضًا عدسات الكاميرا وهي تصور بؤسهم بعدما كانوا يصولون ويجولون في حلبات الصراع السياسي. ثم تذكر ذلك الشاعر الأمازيغي الذي قضى جزءًا من حياته مغتربًا في المنفى، تذكر شراسته في التعبير عن مواقفه من نظام يخنق الحريات وكيف اضطر في أرذل عمره أن يقبل برعاية صحية من نظام كان يعارضه بشراسة، وهو الذي كان يعتبر بأن الولوج إلى العلاج حق وليس هبة يمن بها عليه أحد. ربما يجعلنا الألم نعيد النظر في مواقفنا، هكذا قال عبدو لنفسه. لم يكن معارضًا سياسيًا إنما كانت لديه عزة نفس تمنعه.

عندما خرج من مكتب الرابطة استقل الحافلة بصعوبة لكي تحمله إلى منزل عائلته في مدينته الجبلية. تذكر كيف قاوم الرغبة في الهجرة يوم زار صديقه في جولة مسرحية قادته إلى بروكسيل وباريس، وأنه رفض أن يبقى هناك لكي يغسل الصحون في مطعم صغير يملكه "صديق" صديقه المغربي. تذكر أيضًا يوم كان يسخر من أصدقائه المهاجرين عندما يراهم يعودون كل صيف إلى أوطانهم محملين بكل الخردة التي يرميها الأوربيون في زبالتهم.

تذكر صديقه إلياس الذي تخلى عن دراساته في سلك الدكتوراه لكي يشتغل منظفًا في بنك ببروكسيل، فعندما بعثته الجامعة هناك في إطار منحة تسمح له بإنجاز مجموعة من الأبحاث العلمية في ميدان البيولوجيا لم يعد بعد انتهاء مدة البعثة. كان عبدو يحلم أن يغير بالفن

وجه الوطن، تغير كل شيء ولم يتغير الوطن. الوطن؟ تذكر صديقه الفنان التشيلي الذي استفاق يومًا من غفوته عندما ذهب في إطار معرض فني بأوربا ولاحظ بأن بلاده متأخرة عن العالم بأكثر من ثلاثين سنة. لم يتردد يومها فقرر البقاء في فرنسا. ومنذ ذلك الوقت لم يعد، نسي حتى والديه. لقد أصبح مواطنًا فرنسيًا يسير مع العالم وفق سرعته، تعلم فن التصوير السينمائي، واشتغل في العديد من الأفلام الفرنسية، ثم امتهن الموسيقى في أواخر الخمسينيات من عمره وأنشأ فرقة للهارد روك ذاع صيتها بأروبا. مرت ثلاثون عامًا على هجرته لكنه لم يعد مطلقًا إلى بلده التشيلي. كأنه يريد أن يمحو بذلك جزءًا أسود من ذاكرته. عندما سأله عبدو عن السبب أجابه: لا يمكنني وحدي كفرد أن أتحمل تخلف سلالة بأكملها عن سرعة العالم. نقد رحلت إلى السرعة التي تناسبني، وإلا سيتحتم علي الانتظار مدة ثلاثين عامًا قبل أن تتاح لي إمكانية تحقيق أحلامي. لكنه وطنك، قال له عبدو. أجابه صديقه التشيلي: وطني؟ وطني قلبي أينما ارتحلت. ربما كان محقًا في ذلك، فالفقر في الوطن غربة.

وصل متأخرًا إلى مدينته الجبلية، كانت الأمطار تهطل بغزارة رغم أن الفصل أواخر الربيع. دخل إلى المنزل فوجد أسرته نائمة، تناول طعام العشاء بدون شهية ثم توجه إلى الغرفة المجاورة التي يتقاسمها مع أخيه. دخل الغرفة بكل هدوء محاولًا ألا ينغص عليهم صفو أحلامه، ثم توجه إلى سريره ووضع رأسه فوق الوسادة. وما إن فعل ذلك حتى هاجمته مختلف الهواجس المزعجة، فتخيل نفسه عاجزًا عن الحركة مشوه الجسد، ورأى نظرات الشفقة في عيون من يحبهم. تكالبت عليه مختلف الكوابيس المرعبة فتخيل أكثر من سيناريو لبقية حياته. أحس بالاختناق وراودته الرغبة في الانتحار لكنه كان أجبن من أن يقوم بهذا.

الفعل. كان الألم مبرحًا في جسده، لكن ألمه النفسي كان جحيمًا لا يطاق. تحامل على نفسه ثم نهض من سريره، وأشعل الحاسوب المحمول لعله يبحر بين صفحات الإنترنت فيخفف عليه وطأة الألم النفسي.

وضع المودیم فوجد بأن باقة الإنترنت قد انتهت مدة صلاحيتها. لم يدر ماذا يفعل بنفسه، حتى الإنترنت لا يشتغل. فتح صفحة "وورد" بيضاء وظل يحدق في بياضها، ثم بدأ يرقن فوقها بطريقة لا واعية كأنه يهرب إلى الأمام من سيناريوهاته المرعبة.

(٢)

استيقظ "عبدو" في الصباح على ضجيج الأطفال وهم يلعبون كرة القدم ويصيحون بصوت مرتفع. كان يوم الأحد جحيمًا لا يطاق بالنسبة إليه. أحس بطنين في أذنيه ولم يستطع فتح عينيه. تقلب في فراشه بعض الوقت ثم حاول أن ينغمس في النوم من جديد لكنه لم يستطع. فتح نافذة الغرفة ثم صرخ فيهم:

- اللعنة على آبائكم أيها الأشقياء.

توقفوا عن اللعب عندما سمعوه يصرخ فيهم. لقد كانوا ثمانية أطفال، أخذ أوسطهم سنا الكرة وكان بوجهه بعض النمش، تقدم إليه ثم قال له:

- اطلب منا أن نرحل بدون أن تسب آباءنا فلا دخل لهم بالأمر.

- إنهم لم يحسنوا تربيتكم لأنكم لا تحترمون حق الآخرين في النوم.

- ولكنها الواحدة بعد الزوال "عمو"، قال له الطفل الأنمش.

ثم بعد ذلك أضاف:

- عن أي نوم تتحدث؟

انتبه إلى الساعة المثبتة في وسط الغرفة فوجدها تشير إلى الساعة الواحدة والربع. أغلق النافذة بكل عصبية ثم توجه إلى المطبخ. كانت أمه قد توجهت إلى السوق، أما أخته الصغرى فقد كانت تراجع دروسها في بيت إحدى صديقاتها، لقد كانت في سنتها الأخيرة من سلك الباكالوريا وقد اقترب موعد الامتحان الوطني. وجد طعام الإفطار فوق المائدة، بعض الزبدة، مربى بطعم الفراولة، إبريق قهوة بلاستيكي، وبعض قطع الخبز. نفس طعام الإفطار ردد بينه وبين نفسه. تناوله بدون شهية ثم توجه إلى المقهى.

عندما كان يقرأ جرائده اليومية المفضلة بالمقهى تناهى إلى سمعه صوت يأتيه من الخلف، وعندما استدار وجد عمي "دريس" نادل المقهى الذي يشتغل بالمساء ينادي عليه. كان أنيقًا كعادته بـ "بابيون" أحمر، وقميص أبيض وصدرية سوداء. حذاؤه البني في كامل لمعانه. كان يشبه الممثل الإيطالي "روبرتو بينيني". لقد استلم للتو نوبة العمل بعد الزوال فهو من عشاق الليل كعادة رجال البحر. أشار له عبدو بإشارة من يده كي يأتي عنده لأنه مجهد بعض الشيء، لكن النادل أجابه بإشارة أخرى تعني بأنه سوف يلبي بعض طلبيات الزبائن ثم سيأتي عنده لكي يزف له خبرًا.

عندما انتهى النادل من تلبية بعض طلبات الزبائن توجه إليه حاملا صينيته فارغة هذه المرة، اقترب منه وهمس في أذنه:

- لقد حلمت بك الليلة.

نظر إليه عبدو نظرة استغراب ثم قال له:

- أضغاث أحلام... ماذا يهمني من أمرها؟

- بل هي رؤيا وقت الفجر.

لم يكَن عبدو يصدق تلك الخرافات عن الرؤى وكان يعتبرها مجرد تفريغ لمكبوتاتنا أثناء النوم.

- تفضل. فربما تصلح رؤيتك مشهدًا داخل رواية أكتبها. قالها عبدو بنبرة ساخرة.
- أغيرت مجال اشتغالك الفني؟ سأله عمي "دريس" بكل سذاجة.
- أكتب كي أنسى الألم.

لم يفهم ماذا يريد أن يقصد عبدو من خلال عبارته. وقد خمن عبدو الأمر فقد بدت بعض البلادة الممزوجة بالاستغراب على محيا النادل.

- لا عليك. أخبرني ماذا رأيت؟
- رأيتك فيما يرى النائم مدفونًا داخل رمال الصحراء بجنوب المغرب.

ضحك عبدو طويلًا حتى أحس بالآلام في فقرات ظهره، تخيل نفسه مع العجائز الذين يذهبون إلى هناك لكي يدفنوا أنفسهم فيتشبثون بخيط رفيع من الوهم عساه يخفف عنهم بعض الألم. إننا في لحظات عجزنا نحتاج إلى هذا الوهم الجميل. هكذا قال عبدو لنفسه، ثم استطرد هامسًا:

- الصحراء التي رأيتها لا تعبر إلا عن التيه الذي تتخبط فيه منذ ضبطتك زوجتك متلبسًا بالخيانة مع خادمة الجيران. هههههه.
- اسكت... فإنني على كبري قد تساقطت أسناني ولم أعد أستطيع مضغ إلا الفتي من اللحم. هههههه.

انصرف عمي "دريس" إلى عمله وهو يواصل قهقهته. لقد كان محبًا للحياة، لذلك اشتغل نادلًا في البواخر السياحية التي تجول العالم، وهناك تعود على حياة البحر ونمط عيش البحارة. كان يترك زوجته

وأولاده لمدة طويلة فيراهم خمسة عشر يومًا كل ستة أشهر. لقد جال العالم أكثر من خمسين مرة. من حسن حظه أنه كان يسكن قرب أسرة زوجته، مما كان يخفف من وطأة وحشتها. لكن عندما وصل ابنه الأكبر إلى سن المراهقة بدأ يلمس الحزن في عينيه كلما هم بمفارقتهم بعد عطلة قصيرة يقضيها معهم. إلى أن أتى اليوم الذي أراد أن يسافر وتشبث ابنه الأصغر بطرف سترته وهو يقول له:

- لا تسافر يا أبي...ابق معنا.

نظر عمي "دريس" إلى عيونه ولم يستطع مقاومة نظرته المنكسرة. لذلك حضنه بكل قوة وهو يقول له:

- ومن سيطعمنا يا حبيبي؟

- نستطيع أن نصبر على الجوع لكننا لا نستطيع صبرًا على غياب الإحساس بالأمان عندما يغيب الأب. أجابه ابنه الأكبر.

فاجأه رد ابنه الأكبر. أحس به كمن انتقل فجأة من الطفولة إلى الرجولة. تأمل ملامحه فوجد بأنه أصبح يافعًا وأنه يحتاج لوجوده بجانبه في مرحلة مراهقته وبحثه عن الذات. نظر إلى زوجته فوجدها واجمة لكنه لمس في عيونها توسلًا خفيًا بأن يظل إلى جانب أبنائه. فكر، ماذا سيفعل في هذه المدينة الصغيرة وأي عمل سيزاوله لكي يظل بالقرب من أسرته، لكنه سرعان ما تماسك وقرر أن يذهب، حمل حقيبة السفر الجلدية ثم توجه إلى الخارج أمام نظرات أفراد أسرته الكسيرة. وعندما أغلقوا الباب انخرطت الزوجة في نوبة بكاء صامت، أما الابن الأصغر فلم يستوعب غياب الأب هذه المرة وبقي مذهولًا يحاول أن يواسي أمه، وعندما لم يستطع انخرط معها في نوبة البكاء. لم يستطع الابن الأكبر تحمل هذه الأجواء الجنائزية لذلك دخل إلى غرفته وأطلق

موسيقى الهاوس بصوت مرتفع. فجأة سمع طرق على الباب، لم تسمع الأم الطرق لأن صوت الموسيقى كان صاخبًا. أعاد الطارق طرق الباب بقوة هذه المرة. توقفت الأم عن البكاء وتوجهت صوب الباب، وعندما فتحته وجدت زوجها "عمي ادريس" حاملًا حقيبته، دفع الباب ثم توجه إلى ابنه الصغير لكي يحضنه. صرخ الابن الصغير من الفرح ثم هرول مسرعًا ليعانق والده وهو ينفجر من فرط الفرح.

- سأظل بجانبكم ولن أرحل عنكم أبدًا.

بعد أيام وجد عمي "دريس" عملًا في مقهى "ماجيستيك" بوسط المدينة وطلق البحر.

أحس عبدو بالألم في ظهره مرة أخرى. اللعنة على ألم الظهر، كأنك تنام فوق حقل من الإبر، تحس بوخزها كل مرة في موضع معين من الجسد كأنك ابتلعت كومة من الإبر. حاول تغيير وضعية الجلوس لكن بدون جدوى هذه المرة. فكر أن يتمشى لبعض الوقت في ضاحية المدينة. كانت تمطر، ولم تكن لديه مظلة. لذلك توجه إلى "عمي ادريس" وطلب منه أن يستعير منه مظلته لبعض الوقت. فتح المظلة وخرج لا يلوي على شيء. كان يكره المطر وفصل الشتاء الكئيب بمدينتهم الصغيرة. لقد كان يجعله ذلك الأمر يحس بالاختناق، فيقضي يومه بين المقهى والحاسوب داخل غرفة البيت. انتبه إلى قطرات المطر تسقط فوق مظلته محدثة طرقًا خفيفًا، لم ينتبه يوما إلى أن المطر يمكنه أن يترنم. كانت قطرات المطر تتساقط بوتيرة مختلفة في كل مرة. بقي يصغي السمع لترنيمة المطر، تارة يسقط بغزارة محدثًا إيقاعًا جماعيًا كجوقة كورال، وتارة يتساقط خفيفًا في عزف منفرد في كل مرة. كان الشجر يغتسل وذكره الأمر بحمام نسائي، خصوصًا عندما وصل إلى الحديقة الدائرية التي توجد في ضاحية مدينتهم. كانت خاوية على عروشها إلا من بعض القطط التي اتخذت من بعض

أوكارها ملجأ تحتمي فيه من المطر. كان المزارعون الجبليون يعشقون هذه الأمطار المتأخرة، لأنها كانت تخصب نبتة الكيف فيكون محصول القنب الهندي جيدًا ووفيرًا. جلس فوق كرسي حجري وأخرج من جيبه علبة سجائر وأوراق التلفيف ثم لف لفافة حشيش، وتأمل الأرض الخصبة وقد تزينت لفصل الربيع.. كان يكره المطر فحين تمطر يقضي كل وقته بين المقهى وحاسوب المنزل في الغرفة، ولم يشتر مظلة طيلة حياته، فقد كان يكره أن يخرج حينما تمطر، لذلك لم ينتبه يومًا إلى جمالية الربيع حينما تمطر السماء.

عندما عاد عبدو إلى المقهى وجد عمي "دريس" متحلقًا أمام شاشة التلفزة، كانت النشرة تبث روبورتاجا مفصلًا يكشف عن ملابسات انتحار ممثلة شهيرة داخل شقة إحدى صديقاتها في إحدى العمارات الراقية. لقد ألقت بنفسها من الطابق السابع بعد إصابتها بحالة اكتئاب حاد. عندما رأى صورتها صعق من الدهشة الممزوجة بالخوف بعدما سرى تيار كهربائي في كامل جسده . يا للهول... امرأة السهل الخصيب. سأله عمي "دريس": أتعرفها؟ فأجابه عبدو: نعم.

لقد كانت ابنتها يارا تتحدث في الروبورتاج وهي في غاية التأثر، إنها تؤكد بأن معنويات أمها كانت جد عالية في الأيام الأخيرة بعدما تعاقدت معها شركة سينمائية هوليودية من أجل المشاركة بدور بطولي في أحد أعمالها. وهي تشكك في الرواية الرسمية للحادثة ولا تعتقد بأن أمها انتحرت، لكنها لا تجرؤ على توجيه أصابع الاتهام لأحد وتفضل أن يأخذ التحقيق مجراه.

عندما انتهى الروبورتاج سأله عمي "دريس" إن كانت لديه تفاصيل أخرى عن حياتها، فأجابه بأنها كانت تدير شركة للإنتاج التلفزيوني يمولها زوجها رجل الأعمال السعودي. لقد أعجب بها أثناء

مشاركتها في مسلسل عربي ثم بعد ذلك تـزوج بهـا زواجـا عرفيـا. ولقـد اقتنى لها فيلا وظل يأتي إليها بين الفينة والأخرى كي يـقضي معهـا بعـض الأيام في المغرب.

- ربما اشتم زوجها رائحة خيانتها له فأرسل من يتدبر أمرهـا. قـال لـه عمي إدريس.
- ربما... أجابه عبـدو. ثـم أردف: إن فصـيلة رجـال الأعـمال مـن تلـك الطينة لا يتساهلون في مثل تلك الأمور، إنهم نتـاج مجتمـع ذكـوري منغلق يكرس بداخلهم ازدواجية رهيبة في تصورهم للشرف.
- لو وجدت رجلًا مع زوجتي في الفراش لقتلته على الفور.
- وعندما تخونها أنت؟ ألا تستحق القتل بدورك؟
- أنا رجل... لن أحمل سفاحًا... لكن المرأة يمكنها أن تحمل إلى أسرتـك من ليس من صلبك.
- لمـاذا سـتقتلها؟ يمكنـك أن تطلـب الشرطـة فقـط... لتضـعها خلـف القضبان بينما يمكنك الاستمتاع بحريتك.
- لا... سينعتونني بالديوث.

قالها عمي "دريس" بينما علت وجهه حمـرة حيـاء نسـائي. ضـحك عبـدو وهـو يـرى حمـرة الخجـل الممزوجـة بـالتقزز عـلى محيـا عمـي "دريس".

- الديوث الحقيقي هو الذي يختزل الشرف في ثقب أسود بين فخـدي امرأة. قال له عبدو.
- ماذا تقصد؟
- أقصد أننا أبعد الشعوب عن معرفة المعنـى الحقيقـي لـلشرف. إننـا نراه من ثقب فرجنا لذلك يبدو لنا محدودًا. ربما ثقب فرجي أكـبر... لذلك لدي مفهوم للشرف أكبر مما لدى الكثير مـن النـاس. هههـه...

صمت عمي "دريس" بعض الوقت وهو يحاول معرفة العلاقة بين ضيق فتحة الفرج ومحدودية الأفق. أدار عينيه في محجريهما وعندما لم يفهم شيئًا غيّر مجرى الحوار نحو الشؤون التي تندرج ضمن نطاق تخصصه. سأله:

- ما الذي دفع تلك الممثلة للتوجه إلى شقة صديقتها من أجل الانتحار؟ ألا يمكن أن تكون تلك الشقة المسرح الذي شهد لقاءاتها مع أحد عشاقها؟.

ويبدو أن عمي "دريس" كان كمن يوجه صفعة إلى عبدو، فلقد جعله سؤاله يقف وجهًا لوجه أمام ذكرى فجره الفاجر معها. نظر عبدو إليه بصمت لكنه لم يستطع أن يجيب على سؤاله بكلمة. غمغم فقط بعض الكلمات غير المفهومة... ثم استأذن منه كي يذهب إلى المنزل، وطيلة الطريق كان يفكر فيها. سأل نفسه، ماذا كان سيحدث لو قبل بعرضها؟ ألا يكون حادث انتحارها مدبرًا؟. عادت به الذاكرة إلى الوراء وتذكر كل تفاصيلها، تذكرها.... كانت طاعنة في الأنوثة والغواية كعادة نساء دكالة، و نهمة مقبلة على الحياة، لذلك كان يحلو له أن يلقبها بامرأة السهل الخصيب. لم تكن تشرب من الخمر إلا الفاخر من الويسكي، وكذلك كانت تفعل مع الرجال. أحبها رجل الأعمال ثم عرض عليها أن تكون زوجته الثانية، فيلتقيها عندما يأتي إلى المغرب كي يباشر أعماله. تزوجها سرًا ولم يخبر زوجته، ولقد أهداها فيلا في حي راق وفتح لها شركة إنتاج.

تذكر ذلك اليوم الذي رن فيه هاتفه النقال، خمن أنه اتصال من فتاة مر يومًا من سريرها ذات حادثة سير وتذكرته. فتح خط الاتصال وبقي صامتا. سمع آلو... تريث للحظات... حتى سمع آلو الثانية وأجاب... نعم.

أتاه صوت أنثوي يشبه صوت مغنية أوبرالية بطبقة الميزو سوبرانو.

- عبدو؟.

كان صوتها يشبه صوت المغنية تريسي شابمان[٢]. أحس بأن الصوت مألوف لديه لكنه لم يستطع تخمين صاحبته. بعد فترة قصيرة من الصمت أجاب:

- نعم.

قدمت له نفسها بلغة فرنسية أنيقة ثم أخبرته بأنها تريده أن يمر عليها في مكتبها لكي تعرض عليه المشاركة في فيديو كليب لمطربة عربية شهيرة. لم يكن قد جرب يومًا أن يشتغل موديل فيديو كليب، لكن الفكرة كانت تستهويه. لذلك حدد معها موعدًا للقاء.

عندما دخل إلى مكتبها وجدها في كامل أناقتها، كانت جميلة في أواخر الأربعينيات، لقد كسرت قاعدة محمود درويش، امرأة تدخل الخمسين بكامل مشمسها. أكيد، لو كان محمود درويش قد التقاها لغير قناعته ولأقر بأن على هذه الأرض ما يستحق الحياة... وجعل الخمسين مكان الأربعين داخل البيت الشعري.

كان أنيقًا يومها في قميصه الأسود وسروال الجينز ناحل اللون والممزق من بعض جوانبه. وكانت لحيته فوضوية وشعره منسدلًا على كتفيه. ولقد وضع في ذلك اليوم عطرًا رجوليًا خفيفًا، وعندما اقترب ليسلم عليها اشتم عطرها. لم يدر لم تخيل بأن العطر الذي تضعه إفريقي من عطور ملكات إفريقيا. كانت خمرية اللون وعيونها تحمل مسحة آسيوية.

- تفضل، قالت له.

---

[2] Tracy Chapman مغنية وكاتبة أغاني أمريكية.

جلس على الكرسي المقابل لها بطريقة عفوية كأنه سبق له أن دخل مكتبها.

- أعرف أنك ممثل مسرحي بارع.
- لكنني صادق في الحياة.

ابتسمت ومر وميض خاطف بعينيها كأنه أول الصبح إذا انبلج.

- لذلك اقترحتك كي تمثل في الفيديو كليب. لا أريد "موديل" وإنما شفافية رجل صادق حتى في أخطائه. أريد أيضًا جانبك البذيء، فهو يعطي طابعًا إنسانيًا يجعل المتفرج يتعاطف مع شخصك.

أحس عبدو بأن هذه المرأة تعرفه جيدًا. خمن بينه وبين نفسه. حتمًا شاهدته يلعب دورًا فوق خشبة المسرح... ربما دور "ليوناردو" عندما كان يقول لحبيبته "بيلار" وهما يختلسان المتعة بالبيدر، "أريدك عارية كقمر الليلة... وأشتهي أن أسمع صهيل البيادر". أحس بأن المرأة التي أمامه هذه المرة تملك جهاز استشعار أنثوي على درجة عالية من الحساسية تجاه الذكورة. كانت مهرةً برية عصية على الترويض لمن لم يخبر ترويض الأحصنة البرية. تذكر مواسم التبوريدة في دكالة وقلعة السراغنة، وتخيلها فرسًا نازحة من هناك.

- ستكون معك ممثلة لبنانية.
- أريد أن أعرف بعض التفاصيل عن السيناريو؟

تناولت مطبوعًا من درج المكتب بينما بقي يتأمل أناملها وهي تفتح المطبوع كما لو كانت تقلب صفحات ذكورته. بعد فترة من الصمت بينهما بدأت تقرأ بصوت أشبه بخرير الشمبانيا وهي تسكب في الكؤوس البلورية لحظة الاحتفاء الخصيب.

- أستاذ جامعي في منتصف الثلاثينيات، متزوج من طبيبة أسنان. لديهما ولد وبنت. يعيشان في مستوى اجتماعي مريح. ستنقلب حياتهما رأسًا على عقب عندما ستدعو صديقتها المطلقة والتي تشتغل سيدة أعمال بأمريكا إلى بيتها. ستنشب خلافات بينها وبين زوجها بعدما لمست بأنها تتقرب منه وأنه يبادلها الإعجاب. ستتطور الأمور إلى درجة أن الزوجة ستهجر بيت الزوجية مع ابنيها وستطلب الطلاق. وبعد ذلك سيموت الزوج في حادثة سير. والفيديو كليب سيكون بتقنية الفلاش باك، حيث سنشاهد الأحداث انطلاقا من زاوية نظر الطفل الذي كبر وتزوج، ونشأت بينه وبين زوجته خلافات زوجية، ستجعله يجمع أغراضه ويذهب إلى الفندق. هناك مشاهد تتطلب كثيرًا من صدق الإحساس، نريد أن نصور المسألة على أساس أنها مجرد تضخيم لسوء الفهم والمكابرة.
- - جيد... أوافق. قالها عبدو بطريقة سريعة وحاسمة.
- غدًا بعد الزوال نوقع العقد. لقد حجزنا لك الفندق ليومين من أجل أخذ مقاساتك، سيكون عندك مصمم الملابس غدًا صباحًا.

أومأ برأسه علامة الموافقة. لم يكن يحب النهوض باكرًا في صباحات شهر رمضان لكنه لم يعترض هذه المرة.

- لكن، أين سيُعرض هذا العمل؟ سألها عبدو. فأجابته:
- في أكبر القنوات المتخصصة في الفيديو كليب بالعالم العربي. ستكون فرصتك كي تلج السوق الفنية السورية والمصرية على الخصوص.
- أووووه... ستكون فرصة رائعة إذن. ثم أضاف: شكرًا.
- لا شكر، أجابته. ثم أضافت: إنك تستحق هذه الفرصة.
- وقبل أن يخرج من مكتبها قالت له:
- أنت مدعو هذا المساء عندي في الفيلا كي تتناول طعام الإفطار. ستكون فرصة كي أقدم لك ابنتي يارا.

- سأكون سعيداً بالتعرف عليك.

وقبل موعد الإفطار بساعة حمله سائقها الخاص إلى الفيلا. كان تصميمها غاية في الروعة يعكس رفعة ذوق صاحبه. كانت حديقتها حلزونية الشكل، تخترقها ممرات مرصفة بالأحجار الصغيرة الصقيلة. بها أشجار ليمون، ودالية عنب، وتتوسطها نافورة، وفي الجانب الآخر مسبح محاط بأشجار النخيل. عندما ولج الباب الرئيسي وجدها في استقباله. كانت تلبس قفطاناً مغربياً أضفى على حضورها فتنة ساحرة. توجهت بصحبته إلى الصالون وهناك عرفته على ابنتها يارا، وصديقتها رشا. كانت الابنة غاية في الفتنة كأمها، لذلك سألته الأم:

- من منا الأجمل؟
- إنكما معًا صورتان لنفس الوجه الجميل. تذكرني ملامحها بجميلات السينما الأمريكية في الستينيات. إنها تملك سحر جاذبيتهن. قالها عبدو بكل عفوية وبدون أن يفكر.
- وأنا؟

سألته امرأة السهل الخصيب بلهفة طفلة صغيرة، فأجابها: أنت تشبهين الفاتنات من الآسيويات... ربما سيدة إنجليزية من أصول هندية أو باكستانية.

ويبدو أنه أرضى أنوثتها دون أن يقصد. لقد كان صادقًا فقط.

عندما انتهيا من طعام الإفطار استأذنت يارا قصد الخروج مع صديقتها لمشاهدة فيلم سينمائي. وبقيا وحدهما في الصالون الكبير. لم يدر ماذا يفعل معها في هذا المكان. إنها امرأة متزوجة. ماذا يفعل هنا؟ سألته:

- تأخذ ويسكي؟

- شاي فقط.

بعد لحظات قدمت الخادمة وهي تحمل قارورة الويسكي، وبضعة كؤوس، وإبريق شاي، ونارجيلة. طلبت منها أن تعد المائدة المقابلة للمسبح. ودعته للخروج. كانت الإنارة مزيج من الأزرق السماوي والبنفسجي تلقي بانعكاسها فوق صفحة ماء المسبح. أغنية أسمهان تصدح: يا حبيبي تعالى الحقني شوف إيه اللي جرا لي.... من بعدك.

أما عندما جلس فوق الكنبة المستلقية في غنج نسائي فاحش فلقد استأذنها كي يلف سيجارة محشوة بالحشيش. فقالت له وهي تشعل خلطة بخور هندية: إن كان حشيشًا أصيلًا... أسمح لك.

استنشقت خلطة البخور وهي تحترق ثم قالت:

- أعشق رائحته تذكرني برجال الجبل.

رنت الكلمة الأخيرة كشهقة بداخله وأحس أنه بصدد ورطة عشقية مدمرة. لقد كان على وشك الزواج من خطيبته امرأة الصحراء. لقد انتظرا هذه اللحظة طويلًا. لقد كانت تحبه حد الرغبة في الفناء فيه، وكان يحبها حد التجرد من كل ما هو غير أصيل فيه... كانت تعريه فيبدو فاتنًا في تقشفه كصحراء. مرت قطة سمينة بيضاء مدللة، اقتربت منها ببطء من يستحم في الكسل، تمسحت بها فأخذتها وبدأت تمرر أصابعها فوقها وهي تداعبها برقة من يداعب أصابع البيانو.

- قطتي زنوبيا، قالت له.

قدمت له قطتها بنفس الطريقة التي قدمت له ابنتها يارا. أشار للقطة مبتسمًا كمن يحيي عزيزًا، ثم نفث في وجهها نفسًا من لفافته وهو يبتسم مرحبًا على عادة فتيان الجبل. ويبدو أن القطة أحبت نفس سيجارته فقد ضاقت حدقتاها وتحركت أذناها في حركة ناعسة.

ضحكت من رد فعل قطتها وقالت له: مثلي... لا تعشق إلا الأصيل من العشب. مد لها اللفافة فأخذت نفسًا ونفثته في الهواء حتى اختلط بروائح البخور الهندية المتصاعدة في جوف السماء، أحس بنفسها كنسيم ليل الصيف عندما يعبق برائحة العنبر.

- آآآآه... من هذه الرائحة، تذكرني برائحة روث جديان الجبل.

إنها متزوجة، ردد بينه وبين نفسه. طاعنة في الغواية تعبث بي في ليلة القدر. هكذا أضاف مرددًا بينه وبين نفسه. لكنها... فاااااتنة.... وساااحرة. كانت ترشف الويسكي وأصابعها تتراقص بكل غنج في كل جوانب الكأس. أأأأأوه... عاصفة من الرغبة الهوجاء بطعم الاجتياح تنعكس فوق صفحة الماء بالمسبح. نهض من مكانه وملأ لنفسه كأسًا من الويسكي جرعه جرعة واحدة، وبعدما استدار التقت أعينهما فتوهجتا، لقد أرغدت رغباتهما وأزبدت، ظلا واقفين لمدة يختبران الوفاء والمكابرة. مرت بداخله صور المسيد في طفولته وتذكر لعنة ليلة القدر. مدت له لفافة الحشيش فتناولها منها وملأ لنفسه ولها كأسين من الويسكي. ثم جلسا. سألته:

- متزوج؟

باغته سؤالها بقوة مباشرته ووضوحه. لكنه استجمع أشلاءه بسرعة وأجابها:

- ليس بعد.

كان يقول لها نصف الحقيقة فقط. ولكي يداري النصف الآخر أخذ نفسًا من لفافة السيجارة ونفخ دخانه في الهواء ليرسم سحابة تخفي ذلك النصف الآخر من دواخله. ولكي يستقل الطريق السيار نحو الغياب عما يدور بداخله من رغبات تتقلب فوق صفيح من الهواجس

شرب كأس الويسكي في جرعة واحدة. اقتربت منه وأسلم لها مقوده، سحبته من يده وتوجهت به إلى غرفة نومها، في تلك اللحظة بالذات توصل برسالة نصية على هاتفه المحمول، استغل استدارتها لكي تشعل زر النور، وقرأ الرسالة النصية: أحبك. لماذا في هذه اللحظة بالذات يتوصل بهذه الرسالة. أتمعن في تذكيره بحدسها الأنثوي؟

سحبته من يده مرة ثانية وعندما أدخلته الغرفة أطفأت النور. سحبت سلسلة سروال الجينز واقتحمت حصن ذكورته ثم بدأت تعبث بها كما يعبث الطفل الصغير بحلمة أمه. وعندما فاض الزبد تجرعته بكامل النهم. بدت له في تلك اللحظة كمصاص دماء بعدما اختلط مفعول خمرة الويسكي ولفافة الحشيش بداخل رأسه. فكر أن يدفعها عنه... لكنه غير في آخر لحظة قراره. تضاربت بداخله أحاسيس متناقضة ولما لم يستطع المصالحة بينها فاضت عنه من خلال نوبة بكاء طفولي تشبه نوبة طفل أحس فجأة باليتم.

تسمرت في ذهول وهي ترى دموعه تتساقط صامتة أول الأمر ثم اختلطت بنحيب. صدمتها ردة فعله، ولم تدر ماذا تفعل... عانقته.. حضنته... فاستكان لحضنها باكيًا، ثم غفا للحظات. بقيت مستيقظة تترقب وقع أنفاسه. وعندما استسلم لنوم عميق بقيت تتأمله... بدا لها كصبي صغير ولم تدر كيف تتعامل معه. مشاعر مختلطة تضاربت بداخلها لكنها استجمعتها وحضنته وغفت بدورها بعض الوقت.

صفارة تعلن قرب موعد الفجر. ذهبت إلى المطبخ وأحضرت له سحورًا ليتناوله معها. توجهت إليه لكنها لم تستطع أن توقظه. ويبدو أنه سمع وقع خطواتها، لذلك نهض ليتناول طعام السحور معها. صمت قاتل. كان يتحاشى النظر إلى عيونها المتسائلة، فلم يكن يملك إجابات... كان فقط صادقًا مع نفسه يتماثل مع تناقضاته. أما هي فقد أحست

بإهانة كبيرة لأنوثتها، ولم ترد أن تبين له ذلك. كانت مكابرة كفرس السهل الخصيب.

بعدما تناول طعام السحور استأذنها في الانصراف. قالت له:

- يمكنك أن تنام هنا حتى الصبح.
- أفضل أن أنام في الفندق لأنني عادة ما أفضل الاستيقاظ متأخرًا.

أجابها بنبرة تجمع بين السخرية والحسم.

وعندما وصل عبدو إلى الفندق كان أول شيء قام به هو أنه دخل إلى حوض الاستحمام، وأخذ حمامًا ساخنًا كأنه يتخلص من بقايا رائحتها في جسده. ثم بعد ذلك نام عميقًا.

وفي الصباح استيقظ متأخرًا. تذكر موعده مع مصمم تأخر بدوره في النوم لأن الصباحات الرمضانية تشبه حصص تعذيب بالنسبة للكسالى ممن يعشقون الليل. تناول هاتفه المحمول. لم يتصل به أحد. بحث عن هاتفها في مفكرة الهاتف، واتصل بها. رن الهاتف مرة، وثانية، وثالثة... لا أحد يرد. اتصل بموظف الاستقبالات مستفسرًا إن كان هناك أحد اتصل يطلبه على هاتف الغرفة. لا أحد أيضًا. عادت به ذاكرته إلى تفاصيل الليلة الماضية، ومرت بعض الصور بذهنه خاطفة. تناول الهاتف النقال وهاتفها مرة ثانية. لا أحد يرد. دخل إلى الحمام وأخذ حمامًا باردًا لمدة دقيقتين... كانت تلك عادته كلما تصاعدت بداخله فورة الغضب. بقي ينتظر إلى ما قبل العصر. لا أحد اتصل. خرج من الفندق واستقل سيارة أجرة طلب من سائقها أن يوصله إلى غاية مقر شركتها. وعندما وصل إلى هناك وأراد أن يدخل، منعه الحارس. قال له:

- لدي موعد من أجل توقيع عقد مع شركتكم.

طلب منه الحارس بطاقته الوطنية، وبحث عن اسمه في لائحة مواعيد اليوم، ثم رد له البطاقة وهو يقول:

ليس هناك موعد باسمك.

ابتلع عبدو ريقه بصعوبة من فرط الإحساس بالمهانة، لكنه كظم غيظه عندما تذكر بأنه كان يقول فقط نصف الحقيقة.

(٣)

دخل عبدو إلى المنزل فوجد طعام الغداء مغطى فوق الطاولة. كان المنزل فارغًا في تلك الساعة من اليوم، فقد خرجت أمه مع أخته لشراء بعض الأغراض المنزلية، أما أخوه فقد كان لا يزال في العمل بعدما افتتح دكانًا لبيع المواد الغذائية. بعدما تناول عبدو وجبة الغداء فكر أن يعود إلى المقهى لكنه أحس ببعض الألم في ظهره، فقرر أن يستريح بعض الوقت في المنزل. كانت الأمطار قد توقفت لذلك صعد متثاقلًا إلى السطح، ثم لف لفافة حشيش ودخنها لعلها تخفف عنه بعض الألم. وحينما عاد إلى غرفته فتح حاسوبه النقال ثم توجه إلى ملف نشرات نفسية، وهناك قرأ النص الذي يؤرخ للقائهما... بحث عن نص الفجر الفاجر. وبدأ يقرأ:

لأنني لا أتحمل خيانتك...

دعيني على الأقل ... أخونك

على الورق.

***

شكرًا سيدة الفجر والنرجيلة المعتقة بطعم الشتاء. شكرا لجموح الليل، لجنوننا معًا، لعينينا حينما صفقتا ذات نوبة عشقية في صمت ما

أجمله حد البكاء. سيدتي، ما أنضج كرز حديقتك السرية، وما أعذب حمرة غوايته، انقدت إليه مسحورًا بعدما كنت أروض النساء.

وددت سيدتي لو كتبت عنك لحظة حاصرني عطرك، وحينما امتزجت أبخرة شرقك بدمي، وددت حينها لو يمتزج عرقك بدمي، فأكتب عنك عوض أن أقبلك. لكنني رجل شرقي سيدتي... يعشق الكتابة بطعم الملح كما يعشقها بطعم الرثاء.

امرأة محتفية حيوية وقطة كسول مدللة. اعذريني سيدتي، فمن بذخ حيويتك لم أستطع مقاومة رغبتي في البكاء... كي لا أصير قطة سمينة... مدللة.

اعذريني سيدتي، فلكي أكتب عنك يلزمني أن أواريك بذاكرتي وأواري معك كل جرائمي العشقية. اعذريني يومًا إن لم تجدي لذكراك بذاكرتي أثر، فذاكرتي بقدر ما هي طاعنة في الخيانة هي أيضًا طاعنة في النسيان.

اعذريني أيضًا، لقد فهمت بعد طول سهو وانتظار أننا لا يمكننا أن نكون أصدقاء. أنت امرأة السهل... تفردين مائدة أنوثتك كلها، أو تغلقين باب خيمتك في وجه كل عابري المدن... والخرائط... والنساء.

اعذريني، لا يمكننا أن نكون أصدقاء، فأنا رجل الجبل، لا أستطيع مصادقة جسد أشتهيه، كما أنني ككل نساء مدينتي أبكي دائمًا لحظة الفرح، ندمًا لأنني اقترفت الفرح.

شكرًا لكل الوقت الذي صاحبنا، وشكرا لقطتك المدللة، فلقد علمتني أن النساء كما القطط، لكي تتمسح بك يلزمها أن تخدشك.

أنا الآن أبعث إليك على الملأ قبلة خجولة مبعثرة. شكرًا لك أيتها الجميلة المشفرة، لقد تبينت معك الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الليل... ذات فجر فاجر.

عندما انتهى من قراءة ما كتب، اجتاحه الحنين للكتابة من جديد. فتح صفحة وورد بيضاء ثم بدأ يرقن:

نامي يا روحي فلنا أكثر من حياة. وإذا ما استيقظت ولم تجديني تكونين حينها في حياتي الأخرى حيث تنامين على ظهر غيمة بيضاء في مرافئ روحي. أما أنا، فسأنام ملئ جفوني كرضيع تلفه غمامة بيضاء، أحلم بالعصافير طليقة في سماء روحي.

حظ كبير ما حدث بيننا، لا يحدث لكل العشاق. تقاسمنا لحظات نقترف فيها الفرح، فتتوقف أنفاسنا لحظة الفرح. ويعصرنا الألم بين فرحين، يجملنا الألم ويزكينا. سأكون سعيدًا بما حدث بيننا عندما تشرق صباحاتك في حياتي الأخرى، ستورق شمسك صيفًا ومطرًا وستحملك إلي غيمة شاردة بيضاء.

أؤمن بالشمس والمطر وأخشى العواصف الهوجاء.

نسبح ضد التيار؟ عفوًا. تعلمت الانحناء للعاصفة. ففيها أرى وأتبعه حيثما أراد وابتغى... أتبعه غير مكذب بالحسنى. وأرى ما أرى إني أرى حطام مدينة ومجرة. أأكذِّبُ ما أرى أم يا ترى أكذب عليك كي أدثرك من الأمل والألم والحطام؟ فألمك ينسكب بداخلي ككرة ملتهبة، أتراها كرة اللهب التي أخرجها مشرط الجراح؟

سأكون سعيدًا بما حدث بيننا حينما ستزفين إلى الربيع، ستصبح سعيدة صباحاتك كأول الربيع. فما أجمله من فراق. حظ كبير ما حدث بيننا، لا يحدث لكل العشاق.

عندما انتهى "يوبا" من قراءة قصيدته أحست به كمن يدخل الكهرباء إلى دواخلها المعتمة، فلقد تخيلته لحظتها يرقص كطفل بأحشائها عندما كان يقرأ قصيدة من ديوانه "لا إكراه في الحب".

وعندما بدأ يوقع النسخ ويذيلها بالإهداء ظلت في مكانها، لقد كانت تريد أن تطيل عمر هذه اللحظة حتى تصبح دهرًا. ظلت تتأمله خلسة وهي تتظاهر بانشغالها بقراءة بعض القصائد من ديوانه. لاحظت ندبة محفورة عميقًا فوق جانب جبهته. إنها ذاكرة الجسد كما كان يحلو لها أن تقول، شق كالأخدود يضفي على وجهه عمقًا ويشي بشخص عارك الحياة. تأملت أنامله فوجدتها تشبه أنامل من يعزف البيانو. أتراه يعيد نحت تضاريس الجسد الأنثوي كما لو كان يرسم بأعين مغمضة؟

كان الاحتفاء بصدور ديوانه حدث الموسم الأدبي، ألقى ببعض التصريحات المقتضبة ثم اعتذر بكل لباقة وعاد لكي يوقع لقرائه ويذيل الديوان بإهدائه. لاحظت حجم الحضور الأنثوي المخملي، نساء في كامل الألق تتقدمهن رائحة أرفع العطور الباريسية حتى بدون كأنهن يردن اقتحامه بعطره.

عندما خف الزحام بعض الشيء اقتربت منه كي يوقع لها نسختها. لقد كانت تلبس فستانًا أبيض على الطراز الأندلسي مطرزًا طرزًا خفيفًا عند الأطراف، وبقدر ما كانت تريد أن تبدو زاهدة في أناقتها بقدر ما كان جمالها الداخلي ينعكس فيبدو كأن "إيف سان لوران" هو من فصل لها الفستان كي تحضر به خصيصًا حفلة توقيع الديوان. كانت أغنية "هو" للمغنية المغربية "أوم"[٣] تنبعث خفيفًا فتبدو في مشيتها كأنها ترقص على وقع الأغنية كفراشة شفافة. وعندما اقتربت منه اشتم عطرها، كان عطرًا خفيفًا لا يعلن عن نفسه، لكنه كان يغمر كما البحر. أحس كما لو أنه قد استحم في غيمة من عطرها، فحينما اقتربت تناثرت رائحة العطر كطوق

[٣] أم الغيث بنت الصحراوي واسمها الفني أمّ أو أوم (Oum). هي مغنية سول مغربية، شاركت في العديد من المهرجانات الدولية قدمت خلالها نموذجًا جديدًا للأغنية العربية المغربية الممزوجة بالحسانية واللغة الإنجليزية.

ياسمين انفرط عقده فتناثرت أزهاره فوق نسختها التي وضعتها فوق الطاولة وهي تبتسم وتهنئه بمسحة حياء. كانت كمن اغتسل لتوه في حمام حياء أمازيغي، فملامحها التي تحمل مسحة من أمازيغ سوس كانت بادية عليها، عيونها الكحلية الصغيرة التي تعطيك الانطباع بأنها ستمطر مطرًا خفيفًا يغسل الأرض ويمسح عنها الغبار فتتطاير رائحة التراب المعتق بطعم أوراق الأشجار الجبلية، وشعرها الأسود الفاحم المنسدلة بعض خصلاته فوق الجانب الأيسر من وجهها، وقرطاها الأزرقان بلون زرقة السماء. لقد كانت تبدو كما لو أنها ملاك تمرد على حياة الملائكة ومللها في غياب الألم والحب والفرح، وفضل أن يأتي إلى العالم بمفرده لكي يعيش ألمه وفرحه، وحبه ولا حبه، وسلمه وحربه.

حينما رفع يوبا ناظريه لكي يرد على تحيتها التقت أعينهما لبرهة أحس فيها بنفسه كحوض أكواريوم مغرقًا في شفافيته حد الاختفاء، فلقد ظلت روحه معلقة لبرهة بين الأرض والسماء. أما حينما أخذ منها الديوان كي يوقعه تلامست أناملهما فأحست به كمن يطرق طرقًا خفيفًا روحها المحتجزة داخل قفص زجاجي معروض في متحف فاحش الثراء. سألها يوبا:

- أي اسم تختارين للإهداء؟

فأجابته:

- أريناس.

فاجأه الاسم، لم يكن قد سمع به قبل تلك اللحظة. لكنه حاول مداراة وقع المفاجأة فابتسم ابتسامة خفيفة معتقة كمن يلتقي بعزيز بعد طول غياب.

- اسم له وقع موسيقي جميل، أخمن أنه اسم يوناني. أليس كذلك؟
- بل اسم ملكة أمازيغية حكمت قرطاجة.

أربكته إجابتها بعض الشيء فحاول مداراة ارتباكه هذه المرة قائلًا:

- سأبحث عنها في كتب التاريخ، فربما تصلح مشروع رواية أو كتاب.

ابتسمت أريناس ابتسامة عذبة وهي تقول له:

- ويطلق أيضًا على نوع نادر من الورود.

ابتسم بدوره ابتسامة خفيفة وهو يفتح صفحة الإهداء، أراد أن يكتب لها إهداء خاصًا يليق بملاك فضل أن يخرج من مملكة السماء طوعًا ليعيش حقه في الاختيار والخطأ والمعرفة. "كأننا كنا عصفورين أزرقين في حياة سابقة. إليك أريناس".

عندما انتهى يوبا من كتابة الإهداء لم يرد أن يعاود النظر فيما كتب، فلقد كتبه دفعة واحدة كأنما كانت الكلمات تعبر من خلاله وتفيض عنه فيضًا كما يفيض النهر في لحظات الخصب. أما حينما اختفت بين المدعوين وانصرفت فأحس كما لو أنها أسقطت متعمدة بعضًا منها فتطايرت بداخله أزهار روحها بكل ألوان الطيف.

- لن تتركنا ننام هذه الليلة أيضًا؟

أتاه صوت أخيه الذي يشاركه الغرفة محتجًا. كانت عيونه محمرة وأثر الأرق باديًا عليه. استدار عبدو بينما بدت عليه علامات الاستنكار.

- لدي عمل في الساعة السادسة صباحًا يلزمني أن أوزع الحليب على الزبائن. أما أنت، فلن تستيقظ إلا بعد الزوال.

أراد "عبدو" أن يحتج على أخيه الأصغر لكنه تراجع في آخر لحظة وكظم غيظه. فالأخ هو الذي يتحمل مسؤولية الأسرة بعد وفاة الأب، إنه من يعيل أمه وأخته الصغرى. أما هو فلا يفعل شيئًا سوى أنه يشتري لهم خروف العيد مرة في السنة. لقد عرض عليه أخوه أن يساعده في توزيع

الحليب واليوغورت على الزبائن أيام عطالته الفنية لكنه لم يستحمل العمل. فقد كان يلزمه أن يستفيق مبكرًا كل يوم وكان يعشق السهر، وفي بعض الأحيان كان أخوه يجده نائمًا فوق عربة التوزيع. يتذكر أنه قبل المهمة أول الأمر فقط لكي يتحصل على مبلغ الخمسين درهما التي كانت تكفيه لاحتساء قهوة اليوم وشراء الحشيش والسجائر، بعد ذلك لم يعد المبلغ يكفيه فكان يمارس التدليس على أصحاب الدكاكين الذين يوزع عليهم البضاعة. لقد كان بارعًا في الحساب وألعاب الخفة، فما بين استلام النقود ورد المبلغ المتبقي من الصرف كان يفعل كل فعلته. لكنه بعد ذلك لم يعد يستحمل هذا العمل. لقد كانت الساعة تشارف على الثالثة صباحًا. سحب أخوه غطاء السرير بكل قوة ثم توجه إلى خارج الغرفة كي يكمل النوم في غرفة الضيوف، أما هو فقد عاد لينقر فوق شاشة الحاسوب.

الأدب، كما ممارسة الحب، إن لم يحضر فيه الشغف نكون كمن ينام في حضن جيفة متعفنة. لذلك حينما يكتب روائي رواية بينما تحتضر بداخله الحياة فإنه يصيبنا بعدوى فقدان شهية الحياة. هذا النوع من الأدباء يكتبون حيوات شخصيات انهزامية فقدت شهيتها للحياة. ما فائدة الأدب إن لم يثر بداخلنا محبة الحياة؟ إننا حينما نكتب الأدب فلأننا نريد أن نعيش أكثر من حياة، لذلك نضاعف جرعتنا من الحياة مع كل رواية تحبل بها، فنعيش مع أبطالها ونحلم ونسافر معهم، ونجازف بخرق كل النظم والقوانين والإشارات الحمراء، بدون أن يطالنا ما يطال أبطالها من جزاء. لذلك فالأدب يجب أن يعبر عن هذا العشق الذي يكنه الروائي للحياة فيجعله يحتفي بها مع القارئ على صفحات الرواية. ويلزم ألا يكون الكاتب رتيبا لأن رتابته ستفقده الدهشة الطفولية اللازمة من أجل كتابة الأدب. إنه كمن يلعب لعبة الروليت الروسية، فهو يحشو مسدسه برصاصة بلاغية ويدير خزان

الاستعارات ثم يصوب فوهته باتجاه صدغ القارئ، إنه يعرف بأن رصاصاته البلاغية ستدخله حتمًا في متاهة الدلالات، وقد ترديه استعارة منفلتة من خياله فيشهد مأتمه. لكنه لا يجب أن يكترث، لأن الأدب الرفيع تلزمه شهقة المجازفة، فالروائي يتسلى بالحياة كما يفعل بها الأطفال، ولذلك يكتب. إن القارئ لا يمكنه أن يتمتع بقراءة رواية وأن يتحصل لذته الجمالية إذا لم يتحصل كاتبها على أكثر من ارتعاشة روحية وهو يكتبها. وعندما يحدث ذلك، فإن العمل الأدبي يمكنه أن يثير في قارئه دهشة الطفل وحكمة الجد في نفس الوقت.

في الأدب الحديث تنتفي الحدود وتتداخل الأجناس الأدبية في ما بينها لتنتج "النص" الذي لا يتحقق إلا من خلال الأثر الذي يتركه في متلقيه. هذا النوع من الأدب يستعصي على التصنيف، فقد يتداخل فيه الشعر والرواية فلا نعرف هل يتعلق الأمر بقصيدة نفسها سردي، أم أنها نص سردي غني بمجازاته واستعاراته البلاغية والإيقاع الداخلي للغته. وقد يلجأ الكاتب إلى الاستعانة بالحوار المسرحي، وتوظيف المونتاج السنيمائي، وقد يكتب حتى رواية بوليفونية تشبه مقطوعة جاز، فتشكل الأجناس مجتمعة معزوفة جماعية تتداخل فيها كل الأجناس الأدبية، لكنها في نفس الوقت تسمح ببعض مقاطع العزف المنفرد يمارسها كل جنس أدبي وفق خصوصيته، فيحقق متعة شاملة تسمح للمتلقي بأن يرى الكثرة في العين الواحدة، لأن الأدب الذي يترك القارئ دون أن يمسه أو يعبث بترتيبه الداخلي ليس جديرًا بأن يسمى أدبًا.

إن الأدب تجربة رهيبة يجب أن نقبل عليه بنفس الرهبة التي تنتابنا ونحن نتوجه إلى الطبيب من أجل القيام بعملية جراحية. أما عندما ينتهي القارئ من قراءة النص فيجب أن يخرج شخصًا آخر.

عندما انتهى "يوبا" من محاضرته حول "تـداخل الأجنـاس في الأدب الحديث" جمع الكتب المرصـوفة فـوق الطاولـة ووضـعها في محفظتـه. توجهـت إليـه بعـض الطالبـات قصـد الاستفسـار عـن بعـض المضـامين الملتسبة في ذهنهن بخصوص درس اليوم لكنه اعتـذر بلباقـة مقترحًـا أن يكون ذلك أثناء بداية المحاضرة المقبلة. وحينما توجه إلى مكتبـه داخـل الكلية نـادى عليـه المكلـف باسـتقبال المكالمـات في مصـلحة الاسـتقبال بالكلية وأخبره بأن سيدة اتصـلت بـه عـلى هـاتف الكليـة عنـدما كـان مشغولًا بالمحاضرة وتركت اسمها ورقم هاتفها. وقبل أن يـذهب ذهنـه بعيدًا في تخميناته قال له المستخدم بأن السيدة تدعى أريناس.

(٤)

حينما عاد يوبا إلى المنزل مساء تلقى اتصالًا هاتفيًا مـن زوجتـه تهنئـه فيه على صدور ديوانه الشعري، وتخبره بأنها سـتعود آخـر الأسـبوع المقبـل وأنها تعد له مفاجأة. أحس بالشوق لزوجته. إنها تشتغل محاميـة في مجـال حقوق الإنسان، لذلك كانـت كثـيرة السـفر، وتقـدس اسـتقلاليتها... ولـذلك أيضًا أحبها. لم يتصور أن يتزوج امرأة يراها كل يوم، وقـد كـان يحلـو لـه أن يقول بأنها عندما تغيب فهي تحضر بداخله أكثر وأكثر. ولقـد كانـت ذكيـة بما يكفي لتفهم أنه عندما يغيب عنها يعود إليها بنفس دهشـة الاكتشـاف الذي لمسته فيه أول الحب أيام دراستهما الجامعية، إنه يعـود أكـثر توهجًـا في العشق. ألم يقل لها يوما بأنهـا أكـثر مـن مجـرد امـرأة، وأنهـا قبيلـة مـن النساء؟ لقد كانت تقول له بأنها تحبه لأنها تعشق معـه الحيـاة، عـدا ذلـك فإن الحب لا يصبح إلا مجرد انعكاس لإحساسـنا بـالنقص، فنرمـي بمخاوفنـا تجاه من نحبه ونفعل المستحيل من أجل تملكـه خوفًـا مـن أن يرحـل عنـا

ذات يوم. ولم يكن لديها أدنى مركب نقص، فقد كانت جميلة ومفرطة في جاذبيتها، وناجحة مهنيا مستقلة عن الرجل.

عندما حانت نهاية الأسبوع كان يوبا في انتظارها في المطار بكامل ألقه كأنه ينتظر عروسا ستزف إليه الليلة. وفي الطريق إلى منزلهما الريفي أخبرته بأنها تم انتخابها في اللجنة التنفيذية للنقابة الجنائية الدولية، وذلك من أجل مواكبة المحامين خلال تعاملهم مع المحكمة الجنائية الدولية ومساندتهم في التزامهم بالعدالة الدولية. أسعده الخبر كثيرًا فقد كان يسعد لنجاحاتها. قضت معه نهاية الأسبوع ثم سافرت بعدها من أجل المشاركة في ورشة تدريبية بمقر النقابة بلاهاي بهولندا، لكنها لم تمكث هذه المرة أكثر من أسبوع.

يومين بعد سفر زوجته اتصل بأريناس على الرقم الذي تركته له مع موظف الاستعلامات بالكلية، فجاءه صوتها دافئًا على الطرف الآخر من الخط. قالت له:

- لقد كنت أود أن أدعوك إلى افتتاح معرضي الفني يوم غد مساء بمتحف الفن المعاصر.

شكرها يوبا على الدعوة ثم وعدها بأن يحاول الحضور.

وعند الساعة السادسة من مساء يوم الأربعاء كان يركن سيارته أمام بناية المتحف، ثم تقدم إلى الداخل في كامل أناقته بلحيته المشذبة التي تضفي على مظهره أناقة طبيعية. كانت هناك في زاوية المعرض تشرح للمدعوين خصوصية أعمالها الفنية المعاصرة. تجول قليلا بالمعرض فاستوقفته لوحة أثارته لحركيتها، لقد كانت عبارة عن قميص داخلي رجالي أبيض عليه بعض آثار الصباغة معلقًا داخل لوحة زيتية. تفحص القميص جيدًا فرأى بعض آثار الأصابع مرسومة بألوان مختلفة. تأمل في الصباغة

ووجد بأنها تعطي الانطباع بأن صاحبها قد فرغ للتو من رسمها، كأنها كانت تخلد إحساسًا فتجعله أبديًا يصيبنا بعدواه في كل مرة ننظر فيها إلى اللوحة. تأمل في حركية الألوان المطبوعة على القميص فوجدها تعكس شراسة من خلال تقطعاتها وتموجاتها. تساءل مع نفسه: كيف يمكن لهذه الرقيقة أن تحبل بكل هذا الشراسة الصاخبة.

قطع عليه تأملاته صوتها الذي أتاه رخيمًا من الخلف كفراشة تخاف أن تفسد قيلولة الشجرة.

- إنها الأثيرة لدي في كل هذه المجموعة المعروضة.

استدار نحوها وعندما التقت أعينهما أحست ببعض الارتباك ثم سرعان ما لملمت نفسها وهي تقول له:

- تعال لكي ترى بقية اللوحات.

كانت تتجول برشاقة بين أروقة المعرض وهي تشرح له التقنيات التي وظفتها في كل لوحة. سألها ضاحكًا:

- ألا تخافين أن أسرق منك شفرتك الفنية؟

- لن تكون حينها سوى مقلد. أتستطيع أن تنحت بصمتي فوق أصبعك؟

- أستطيع فقط أن أصف ملمس أصبعك داخل رواية.

فهمت بأنه لم يتعمد لمس أصبعها يوم أراد أن يوقع لها ديوانه الشعري.

- أتكتب رواية؟

سألته أريناس بفضول طفولي جميل.

- أعرف الشيء الكثير عن تقنيات الكتابة الروائية وأتحدث عنها باستفاضة في المحاضرات والندوات، لكنني لم أكتب رواية بعد.

- وكيف تستطيع أن تتحدث عن ملمس أصبع لم يسبق لك أن لمسته وتذوقت لمسته فوق صفحة روحك؟

صمت بعض الوقت بفعل وقع المفاجأة التي خلخلت ترتيبه الداخلي. لقد اقتحمته دونما سابق استئذان وجعلته يضع حياته كلها موضع تساؤل مرة أخرى. حقًا، ما معنى أن يدرس المرء الكتابة الروائية إن لم يكن روائيًا في الأصل؟ وما فائدة الدرس الروائي بالجامعة إن لم يتخرج منها روائيون يرصدون حركية مجتمعهم لكي يرى في أعمالهم صورته كما يأملها؟

أما هي فلم تضف شيئًا وتركته لصمته يبتلعه. نظر إليها ثم أشاح بنظره بعيدًا في لوحات المعرض وغمغم بينه وبين نفسه:

- معك حق. ربما يلزمني إعادة النظر في بعض اختياراتي.

أجابته:

- أما أنا فأبحث أن أقلبها رأسًا على عقب. لا أبدع إلا في ظل الفوضى التي يوقظها الحب بداخلي.
- ألديك شهية زائدة للحياة؟

صمتت بعض الوقت التقت فيه نظراتهما فأحسا كأنما قفزا معًا من حوامة بدون مظلة. ثم أطرقت بنظراتها تتأمل فراشة تحوم حول لوحة القميص. بعدها ابتسمت قائلة:

- بل تحتضر بداخلي الحياة.

قالتها بحسم وثقة كمظلي يقفز عاليًا على خوفه وتخميناته ويحضن الفراغ.

ساد صمت طويل بينهما لم يكسر سكونه إلا حضور وزير الثقافة الذي أقبل مسلمًا عليها وهو يهنئها على نجاح معرضها. لقد كانت

تنتمي لعائلة عريقة معروفة بتعاطيها مع الفن، فدرست في مدارس البعثة الفرنسية وهناك تعلمت أصول فن الرسم. وقبل أن ينسحب من المعرض دست بطاقة زيارة داخل جيب سترته وذهبت مع السيد الوزير لكي تقوم معه بجولة داخل المعرض.

عندما خرج من المعرض أحس بتصدع في بنائه الداخلي وتساءل بينه وبين نفسه: يا ترى كيف عشت طيلة هذه السنين دون أن أنتبه إلى هذه الحقيقة؟ ككل الأرقام التي وردت على هذه الأرض درست واشتغلت وتزوجت ويلزمني أن أنجب سلالتي وبعدها سأنتظر الموت. ألا تحتضر الحياة بداخلي أنا أيضًا؟ ربما احتضرت منذ زمن بعيد لذلك فقدت الإحساس بها. ألست كائنًا اعتياديًا مفرطًا في اعتياديته؟

(٥)

فتح "عبدو" عينيه في حدود الساعة الواحدة بعد الزوال. لقد نام عميقًا هذه الليلة، فمن فرط انغماسه في عوالم الكتابة تناسى ألمه. تقلب بعض الوقت في فراشه وهو يحاول تذكر تفاصيل ليلة البارحة. تذكر أنه نام أمام شاشة الحاسوب ولم يستفق إلا عندما لكزه أخوه في حدود الساعة السادسة صباحًا فنهض من أمام الشاشة ثم توجه إلى سرير النوم مغمض العينين. لا زالت ترن كلمات أخيه في أذنه: انهض إلى سريرك أيها الفاشل. تساءل بينه وبين نفسه، أحقًا، أنا فاشل؟ ولكن ما معنى النجاح في مدينة كمدينتنا؟ أن تمتهن مهنة حقيرة وأن تتزوج وتلد قطيعًا من الأطفال ثم تفني زهرة عمرك وأنت تسهر على تدجينهم وتقوية عودهم لكي يقوموا برعايتك في أرذل العمر. إنهم لا يفعلون شيئًا سوى أنهم يؤمنون على شيخوختهم ويستنسخون عقدهم في أطفالهم. لكن، أليست العطالة أحقر من كل شيء؟ لكنه ليس بعاطل. فهو فنان ومبدع. هههه.

أضحكته هذه الجملة الأخيرة. تذكر أن مهنته في البطاقة الوطنية ممثل، وأنه يمتلك بطاقة فنية لا تصلح حتى للحصول على تخفيض عند ركوب القطار. إن مهنته موسمية فهو لا يشتغل أكثر من شهر ونصف موزعة على طول السنة، لذلك، فهو يقضي الوقت المتبقي متنقلًا بين غرف الدردشة وتصفح الجرائد في المقهى ولعب البوكر. تقلب مرة ثانية وهو يقاوم الرغبة في العودة إلى النوم. نظر إلى الساعة المعلقة على الحائط فوجدها تشير إلى الواحدة والنصف بعد الزوال.

نهض عبدو من فراشه بكل تثاقل. كان الجو صحوًا هذه المرة، إنها أواخر فصل الربيع حيث يتسم طقس مدينتهم بمزاجية امرأة في حالة نفاس. فكر أن يتناول طعام الفطور في المقهى. فتح درج مكتبه ليبحث عن مصروف الجيب فوجد بأن آخر مدخراته قد نفذت. بحث في جيب سرواله، فوجد فقط علبة سجائر بها قطعة صغيرة من الحشيش، وسيجارتان، اللعنة. حتى تذاكر السفر إلى عوالم الخيال بدأت تنفذ. إنها ليست مجرد تذاكر، بل هي مسكنات ألم طبيعية. اللعنة على الألم، مرة أخرى يخترق كيانه. إنه يحس كما لو أن امرأة سادية تشرط ظهره بشفرة حلاقة حادة ثم تضع فوقه ملحًا بعدما تعرضه لحرارة الشمس. كان يحس بتنميل بداخل أطرافه كما لو أن جحافل من النمل الأحمر تقضم شرايينه من الداخل. لم تكن عادته أن يدخن قبل تناول وجبة الفطور، لكنه هذه المرة قرر أن يلف لفافة حشيش مستعجلة فالألم لا يطاق.

بعد ذلك التحق عبدو بالمقهى على عجل، وهناك جلس بمحاذاة طاولة بالحديقة الخلفية التي كانت تخصص عادة للمدخنين، فهناك يتسامح صاحب المقهى مع من يدخنون الحشيش لأن رواد الجانب الخلفي للمقهى كان يتشكل أغلبهم من خريجي الجامعة المعطلين الذين ينضوون تحت لواء جمعيات المعطلين، فحتى أعوان السلطة كانوا

يغمضون أعينهم عنهم ما داموا لا يثيرون شغبًا. لقد كانت هناك فئة متحلقة حول طاولة الشطرنج، ويبدو أن المباراة كانت في أوجها، فلقد كان المنهزم يتكلف بتأدية فاتورة مشروب المنتصر. يا لقسوة الحياة، تجعلك تخسر مرتين، تنهزم، ثم تؤدي فاتورة هزيمتك. ألم يكن من العدل أن يؤدي المنتصر فاتورة المنهزم كي يخفف من وطأة خسارته؟

لقد كان أغلب رواد الحديقة الخلفية للمقهى من قدماء يساريي الجامعة المغربية ممن ينادون بالعدالة الاجتماعية، فلماذا إذن يطبقون قوانين السوق عندما يتعلق الأمر باللعب؟ لقد كانوا يلعبون مباراة في الشطرنج السريع، وكان الأمر يتطلب من اللاعب الجمع بين التفكير العميق والسريع في نفس الوقت، كما يتطلب حضور بديهة كبيرة. كان بعض المتفرجين من المعطلين يدخنون الحشيش وهم يعلقون بصوت مرتفع على المباراة التي تجري أمامهم. إن لعبة الشطرنج ملكية، يضحي فيها البيدق من أجل أن يعيش الملك، بل ويمكن التضحية بجميع القطع من أجل استمرارية ملكه. خمن بينه وبين نفسه، ألم يكن من الأفضل لهم أن يلعبوا لعبة "الداما"[٤] ما داموا يحلمون بنظام جمهوري، فالداما لعبة العدالة الاجتماعية، تتساوى فيها كل القطع وتمنح لها جميعًا نفس

---

[٤] الداما Dama (بالإنجليزية العالمية:English draughts) أو (بالإنجليزية الأمريكية و الكندية: checkers) هي لعبة تعتمد على الذكاء والبعض يشبهها بالشطرنج ولكنها مختلفة عنها فهي تعتمد على تكتيكات تختلف تمامًا عن تكتيكات الشطرنج وأيضًا أسلوبها مختلف، وقد ظهرت في أوائل العام ١١٠٠م في جنوب فرنسا وبعدها انتشرت اللعبة في جميع أنحاء العالم وهي تعتبر لعبة شعبية على حدّ سواء، وتجري لها الآن بطولات في فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، وتُلعب على لوحة ٨ وحدات طولًا و ٨ وحدات عرضًا (أي ٦٤ مربع) مع ١٢ قطعة لكل جانب.

الفرص من أجل الترقي، كما يمكن أن تمنح نفس الامتيازات للأجدر بين كل البيادق إذا استطاع الوصول إلى قلب حصن الخصم.

أخرج لفافة الحشيش من جيبه وعلبة السجائر. فتش عن ورق التلفيف فوجد أنه قد نفذ. طلب ورقة تلفيف من أحد المتحلقين حول طاولة الشطرنج. كانوا يحبون أن ينعتوا ورق التلفيف بالكفن، لذلك طلب كفنًا، مده أحدهم بكفن وهو يدعو له بالإقلاع عن التدخين. أجابه:

- سأقلع عن التدخين، حتمًا... أتعرف متى؟

صمت عبدو بعض الوقت لكي يتلاعب بتوقعاتهم، ثم أجاب بعد برهة قصيرة.

- حينما سيلد البغل.هههههه.

قال له شاب يحمل بثورًا على وجهه:

- حتمًا... البغل لن يلد. لكننا من فرط تدخين الحشيش سنصبح جميعًا بغالًا. هههههه.

أضاف كهل يجلس مقابله وهو يلوك لفافة بين أسنانه الصفراء:

- - إنهم يتغاضون عن تدخيننا للحشيش من أجل تبغيلنا. هههه.
- - سمعت بأنهم يفكرون في تقنين زراعة الكيف...سنصبح بغالا بأوراق رسمية. هههه
- - إنهم يريدون فقط استمالة أصوات الحشيشين، فعدد المسجلين في اللوائح الانتخابية لا يشكل حتى ربع الكتلة الناخبة. أكيد، لن تصوت إلا البغال هذه المرة، لأنها هي التي تقتات من تجارة الحشيش. هههه.
- أنا لن أصوت، أرفض المشاركة في مسرحية رديئة. نخبنا الحزبية مجرد كراكيز في يد محرك دمى خلف الظل. هههه.

- أنا لا أعترف بالعملية الانتخابية برمتها فهي مخدومة، ولذلك لم أتسجل في اللوائح الانتخابية، أرفض أن أكون شاهد زور. هههه.

كان عبدو ينتمي بدوره للأغلبية الصامتة، فلم يسبق له أن تسجل في اللوائح الانتخابية أو أدلى بصوته. تذكر مقولة أحد كبار السوسيولوجيين عن التضبيع الممنهج الذي يمارسه النظام في حق شبابه حينما كان يقول لهم أيام دراستهم الجامعية: "إنهم يريدون تضبيعكم، يريدون أن يخلقوا منكم جيلا من الضباع". فكر بينه وبين نفسه، ترى، لو عاش ذلك السوسيولوجي ورأى ما آلت إليه مصائر الأجيال اللاحقة أما كان سيغير لفظة "الضبع" بالبغل. فإذا كان التضبيع يرمز إلى من تناول مخ الضبع بعد طقوس سحرية ففقد حسه النقدي ووعيه الشقي، وأصبح بعد ذلك يوافق على كل أمر يطلبه منه من مارس تضبيعه، فإن الأمر مع الأجيال اللاحقة لم يعد يقتصر فقط على الموافقة، وإنما أصبح يتعداه إلى تحميله لوحده فاتورة الإصلاح، كما البغل. لكن، لماذا يصر جيلهم على تقمص دور الضحية؟ ما الذي يمنعهم من العمل والإقلاع عن تدخين الحشيش؟ إنهم يتظاهرون منذ مدة بشكل أسبوعي من أجل الحصول على وظيفة. إن أغلبهم يحلم بمكتب داخل بناية مهترئة يوقع بداخلها بعض الوثائق الاعتيادية أو يحرس الأرشيف. ما الذي يمنعهم من المبادرة والانطلاق من أجل إنجاز مشاريع للتشغيل الذاتي؟ تذكر عبدو حينها لحظة صدق بدوره وهم التشغيل الذاتي وقدم مشروع مقاولة فنية من أجل تمويلها في إطار بعض المشاريع التي تمولها الدولة. بقي ينتظر رد البنك حتى اكتشف عن طريق الصدفة بأن مشروعه قد أنجز من طرف شخص آخر، لقد غير فقط بعض التفاصيل.

كانت لفافة الحشيش قد تحولت إلى رماد حينما أقبل عليه عمي "دريس" ضاحكًا:

- كيف حالك أيها الشقي؟
- أتسلى بالألم. أجابه عبدو ساخرًا.
- ألا زال لم يُرِك الألم مؤخرته؟

أضحكته هذه الجملة. كان يعرف هذه الكناية في سياق علاقة المرء بالدنيا حينما كانوا يقولون، إذا أحبتك منحت لك فرجها طواعية، وإن هي أعرضت عنك أبرزت لك مؤخرتها. لكن القضية معكوسة هذه المرة مع الألم، فهو يتمنى أن يرى مؤخرة الألم.

سأله عمي "دريس" إن كان يريد أن يتناول مشروبًا فأجابه بالرفض. لكنه أصر أن يتناول شيئًا على حسابه هذه المرة. طلب وجبة الإفطار فأسرع عمي "دريس" لكي يطلبها ثم عاد إليه. وضع طعام الإفطار فوق طاولة عبدو وهو يغني:

الطاكسي بالمرايا... ويا الطالكسي بالمرايا.
آآآآه... ألالة... وخلي لحمام يدارج.
سامحت فيْمَّا وبابا... وتْبَّعْت الغَنَّايَا.
آآآآه... ألالة... وخَلِّي لحمام يدَّارْج.
خلي لحمام يدارج وحبيبي يتفارج...
آآآآه... ألالة.... وخلي لحمام يدَّأرج.[5]

---

[5] أغنية شعبية من تراث شمال المغرب وتعني كلماتها: سيدتي... دعي الحمام طليقًا بيننا...دعيه طليقًا، واتركي حبيبتي تتفرج عليه. سيارة الأجرة تحمل مرآة، لكنني مع ذلك لم أستعملها، فلقد تخليت عن أمي وأبي من أجل مصاحبة جوقة الغناء.

كان عمي "دريس" يحب الترنم بهذه الأغنيـة في لحظـات انتشـائه. سأله عبدو:

- أراك سعيدًا اليوم.

أجابه عمي إدريس:

- لقد حصل ابني الأكبر على منحة من أجل الدراسة في إسبانيا.
- مبروووووك.
- أحسست بأن تضحيتي لم تذهب سدى، لقد كان قرار البقـاء معهـم صائبًا.
- أكيد. ففي تلك المرحلة العمرية يحتاج المراهق إلى أبيه بجانبـه لـكي يتمثله. فإن وجد نفسه مع النساء فقط، فقد يتمثل أمـه أو خالتـه. هههههه.

عندئذ صاح عمي إدريس قائلًا:

- يا لطيييييف، تشقى طيلة عمـرك مـن أجـل أولادك لتكتشـف بـأن أكبرهم مخنث. أتدري لو اكتشفت ذلك ماذا سأفعل؟ سأجعله يكره اليوم الذي عرى فيه مؤخرته. سأكون أول من يغتصبه. هههههه.

ضحك "عبدو" حتى أحس بفقرات ظهـره تصـطك فعـاوده الألم وحـاول أن يغير من وضعية جلوسه وقد تقلصت ملامحه. قال له عمي "إدريس":

- لقد سبق أن شاهدت برنامجًا علميًا في قناة إسبانية عن الاستشـفاء عن طريق حمامات الرمـل. إنهـا تسـتطيع أن تحقـق مـا عجـز عنـه الطب.
- تريد أن تتخلص مني عندما يلدغني عقرب من عقارب الصحراء.
- سُمُّكَ أقوى من سُمِّه. إنْ لَدَغَكَ فهو الذي سيموت. هههههه.

قاوم عبدو رغبته في الضحك هذه المرة ثم قال:

- ربما سأفكر في الذهاب هناك فقط قصد اكتشاف الصحراء، لم يسبق لي أن ذهبت إليها يومًا، فأنا من عشاق البحر.
- عندما ستكتشف الصحراء ستتغير نظرتك إلى الحياة. أن تتواجد وسط فضاء مترامي الأطراف وشاسع يجعلك تحس بضآلتك وعظمة الوجود، إحساس متفرد لا نعيشه أكثر من مرة في الحياة. الصحراء تعلمك الحكمة.
- سأفعل، لكن عندما يتوفر لدي المال الكافي للسفر، أجابه عبدو بلهجة حاسمة كي لا يتورط أكثر.

لم يدع له عمي إدريس وقتًا طويلًا من أجل التفكير هذه المرة مخافة أن يغير قراره. لذلك عاجله قائلا:

- أعرف صديقًا لديه منزل للضيافة هناك، ويقدم في نفس الوقت خدمات الحمام الرملي. كما يمكنك أن تقوم بجولات على الجمل وقضاء ليلة وسط واحة يكتريها من السلطات المحلية هناك. بالنسبة لمصاريف السفر ... على حسابي. اعتبرها سلفة.

رفض "عبدو" الاقتراح رفضًا باتًا، لكن عمي "إدريس" ألح عليه قائلًا:

- جميلك أسبق. ألم تقدم لي مساعدة عندما مرضت زوجتي؟.

كان عبدو قد نسي أمر مساعدته المالية له أثناء مرض زوجته. قدم أحد الزبائن كي يسدد فاتورة المشروبات فانشغل عنه عمي "إدريس" باستلام الثمن والإكرامية. نادى عليه أحدهم من الداخل فتوجه إليه مسرعًا. بقي عبدو بعض الوقت يفكر في العرض، كان الأمر محرجًا بالنسبة إليه، فلم يتعود أن يضع نفسه في موقف من يحتاج إلى مساعدة مالية من أحد. تذكر المثل الشعبي الذي كانت تقوله له أمه

"حتى مول التاج كيحتاج"[6]. تذكر أنه يغالب ألمه وأن أمه لا زالت إلى حدود هذه اللحظة لا تعرف مصابه. فهو يحاول أن يظهر في أحسن حال كلما دخل إلى المنزل. كان يخجل من دمع أمه، فقد يتحمل كل شيء إلا أن يراها تبكي. فكر، ربما سيكون السفر فرصة لكي يراجع أوراقه من جديد. لكن، ماذا سيفعل وحيدًا هناك؟ لن يكون الأمر أسوأ من البقاء هنا... فليس لديه ما يخسره.

عندما عاد عمي إدريس همس له:

- عد في المساء لكي أسلمك مصاريف السفر.

حاول عبدو أن يرفض العرض لكن عمي إدريس كان حاسمًا:

- إذا لم تقبل مني المبلغ فسأعتبر الأمر بمثابة إهانة. تقبل أن تساعدني ولكنك ترفض مساعدتي لك.
- ليس في الأمر أية إهانة.

قاطعه عمي إدريس قائلًا:

- سأعتبر الأمر كذلك إذا لم تقبل مساعدتي...

حاول عبدو أن يبرر موقفه لكن عمي إدريس عاجله:

- لا تتفوه بكلمة وإلا... فلتقرأ صلاة الغائب على صداقتنا.

غمغم عبدو بينه وبين نفسه محتجًا، لكن عمي "دريس" ابتسم في وجهه ابتسامة الواثق المتمكن. أحس عبدو بنفسه كفأر محاصر في ركن غرفة ولا يملك أية وسيلة للإفلات من قبضة قط ماكر. رفع عيونه إلى عمي "دريس" من خلال نظرة يمتزج فيها السخط بالامتنان ثم قال له:

---

[6] الكل معرض لأن يحتاج لمساعدة، حتى الشخص الذي يضع فوق رأسه تاجًا.

ينعل اللي ولدك قلبك كبير وراسك قاسح.[٧]

أجابه عمي إدريس:

- إيلا زدتي معايا الهدرة... غادي نهرس لباباك السنان بهاد الراس القاسح. هههههه[٨]

(٦)

في صباح الغد كان عبدو يركب الحافلة المتوجهة إلى الصحراء. حمل معه حقيبة ظهر خفيفة بها بعض الملابس الصيفية، ومنشفة، وأغراض الحمام والحلاقة، ثم توجه إلى محطة الحافلات. كان هناك بعض السياح يضعون أغراضهم في صندوق الحافلة. توجه إليه أحد عمال المحطة وأراد أن يأخذ منه حقيبة السفر كي يضعها في الصندوق، لكنه أشار عليه بأنه سيحملها معه إلى داخل الحافلة. نفحه بعض الدريهمات ثم توجه إلى داخل الحافلة. كانت نصف ممتلئة بالركاب، ولم تكن مقاعدها مرقمة. لذلك توجه إلى مقعد في آخر الحافلة، وضع حقيبة الظهر هناك، ثم خرج ليدخن سيجارة صباحية. لكن، أثناء هبوطه في درج الحافلة تقابل معها. تسمر للحظة وهو يستعيد تفاصيل لقائهما. فِيرُونيك؟ حاول أن يسلم عليها لكنها لم تعر سلامه انتباهًا، كأنها لا تعرفه. ردد بينه وبين نفسه، ربما ليست هي، إذ لم تبد منها أية بادرة أو إشارة تدل على أنها تعرفه، ربما كانت تشبهها، لا يمكن

---

[٧] ملعون من أنجبك تحمل قلبًا كبيرًا ورأسًا عنيدًا صلبًا.

[٨] إذا لم تصمت فسأحطم أسنانك برأسي الصلب.

أن تتصرف بتلك البرودة التي تصرفت بها. استدار، فوجدها تتوجه نحو مقعد في منتصف الحافلة. لقد مرت أربع سنوات على لقائهما.

تذكر يوم قدمت من فرنسا لزيارة المغرب وكيف التقاها في ساحة الحمام مع صديقه الرسام، لقد أتت مصحوبة بصديقتها الكاتبة المسرحية. ولأنه ممثل فقد استعرض معها كل فنون الغواية بمعجم بودلير الممزوج بسماجة شاعرية مغربية، وسخرية لاذعة من تمثلات الفرنسيين ورتابة حياتهم، لدرجة أنهم جعلوا لكل شيء موعدًا. فحتى السعادة يعقدون لها موعدًا. لقد قال لها يومها:

- أتدرين أن الفرنسي يقضي أكثر من سنتين لكي يجمع مالًا يشتري به السعادة، فيؤجل في سبيل ذلك كل مواعيده مع الحياة وهو يمني نفسه بموعد السفر إلى جزيرة بشاطئ الكاريبي أو الباهاماس حيث سيعيش هناك مع حبيبته أكثر من أسبوع من السعادة. مأساتكم أنكم تبرمجون كل شيء حتى أصبحت حياتكم افتراضية، إنكم تقايضون اللحظة الراهنة بالآتي الذي لا يأتي في موعده كلما زهدنا في اللحظة الراهنة. تعتقدون بأننا كسالى، نحن فقط نحب الحياة. فتكفينا لفافة حشيش وجلسة شاي كي نحتفي بالسعادة.

أدهشها بصراحته الممزوجة بسخرية لاذعة لم تتعودها لدى العديد من المغاربة. ابتسمت وقالت له :

- أريد أن أكتشف مدينتكم، فماذا تقترح علي.

حينها لمس هبدو من خلال حدسه الذكوري بأن هذه الفرنسية الجميلة بدأت تستوي لتصبح ثمرة ناضجة ستسقط قبل أن يحل المساء، ولذلك اقترح عليها الصعود إلى الجبل حتى يستطيع استعراض فنونه في الغواية بعيدًا عن أعين المتلصصين.

سائق الحافلة يشغل المنبه الصوتي إيذانًا ببداية الرحلة مما يخرجه من غمرة استرجاعه. يتوجه صوب الحافلة، ثم يصعد الأدراج، ويخترق الصفوف متوجها إلى مقعده. كانت جالسة إلى جانب صديقها صاحب الذقن المدبب واللحية الحمراء. لم تنتبه إليه عندما مر من أمامها، حاول أن يتلصص عليهما بطريقة خاطفة. لقد كان صديقها في منتصف الثلاثينيات، شعره منسدل فوق كتفيه، ولحيته مبعثرة. وكان معهما طفل صغير خمن أنه في سنواته الأولى، ربما كان يبلغ الثالثة من عمره، ربما أتى إلى هذا العالم بعد سنة أو سنتين من لقائهما. قد يكون الرجل الذي يرافقها زوجها ألكسي، أو ربما تزوجت من رجل آخر. من يدري، إذ لم تبدر منها أية بادرة منها تكشف عن سابق المعرفة بينهما. ربما تشبهها، فهي لم تعره انتباهًا مما يزكي فكرة أنها ليست هي. توجه إلى مقعده وجلس وهو ينظر إلى النافذة، ثم واصل استرجاعاته.

وصلوا هناك قبل الظهيرة وأصر أن يؤدي أجرة التاكسي كاملة .غضبت فِيرُونيك منه وأصرت أن يقتسموا أربعتهم تكلفة السفر، لكنه فسر لها الأمر بكونه لا يعدو أن يكون مجرد كرم ضيافة مغربي. أصر بعدها أيضًا أن يؤدي ثمن وجبة الغداء التي تناولوها في محمية طبيعية تطل من أعلى الجبل على المدينة التي كانت تبدو كإلهة أثينية تتشح في البياض. لف لها لفافة حشيش ثم أخرى وبدأ بعدها في حكي نكات بذيئة لا تخلو من تلميحات جنسية. كانت في بعض الأحيان تستلقي من الضحك وهي تستغرب من هذا الخيال المغربي المفتون بالجنس وفنونه. قال لها:

- أتدرين ما الفرق بيننا وبينكم في الجنس؟ أنتم تتحدثون كثيرًا عن الجنس وثقافته وأوضاعه والأعطاب الجنسية وطرق حلها. وتستعدون للجنس بمختلف الملابس الداخلية التي تتفنن في الإغراء، كما تستعدون له أيضًا بموسيقى حسية وكؤوس الشمبانيا وحبات

الفراولة، إنكم تعدون كل شيء لليلة جنسية فتقومون بالبذخ في كل شيء، وترتبون كل شيء من أجل سهرة جنسية باذخة، لكنكم بذلك تقتلون غواية الجنس ومفاجأته، لذلك فأنتم لم تمارسوا الجنس بعد. نحن على العكس منكم، لا نتحدث أبدًا عن الجنس إلا خلسة أو من وراء حجاب. إنه أحلى حينما يكون مسكوتًا عنه، نقرؤه في شبق العيون ونفكك رموزه بلغة المجاز. أما حينما تستوي الثمرة فنحن نمارسه كالخيول، فنصهل من الرغبة ونحن نرفع حوافرنا في الهواء ونسبح بحمد الجنس.

ابتسمت فِيرُونيك ابتسامة خفيفة وبللت حلقها بالريق ثم قالت:

- أنتم تمارسون الجنس، بينما نمارس نحن الحب.

قالتها فِيرُونيك بلهجة الأنثى حينما تستعرض خفة الأنثى بكل رشاقة وثقة. مما جعل ابتسامة ذكورية تستحم في هرمون التيستيرون ثم تطفو على السطح وتبدو في عيون عبدو لتعلن عن نفسها بكامل التحدي والثقة.

- إنك عندما تمارس الحب مع من تحب بكل حب فأنت تتماهى مع جسد ليس جسدك وتنصهر فيه لتصبحا روحًا واحدة داخل جسدين، ثم تحس بأنه ينتفض روحك ترتعش مع كل شهقة تقفز من قلب الآخر.

صمت عبدو يتأمل الصور التي ترسمها فِيرُونيك من خلال تعابيرها ثم تنفخها في الهواء كما لو كانت تقبل الغيوم التي تحتوي سفح الجبل.

- عندما أمارس الحب مع حبيبي ألكسي فإنه يظل يضاجعني شهورًا كلما أحسست بالشوق إليه أثناء جولاتي المسرحية التي تدوم أحيانا أكثر من سنة، فأنا أشتغل ممثلة في فرقة المسرح الجوال، لذلك

أضطر للسفر إلى مناطق بعيدة من العالم نقدم فيها عروضنا المسرحية الخاصة بمسرح الشارع.

ليس الحب إلا اختراعًا إنسانيًا ظهر مع الملكية وتطور وسائل الإنتاج، فحينما فكر الإقطاعيون في زيادة مردودية الفلاحين الإنتاجية قننوا الجنس، ومن أجل ذلك خلقوا مؤسسة الزواج، ثم جعلوا أساسها كومة من العقد. إن الحب ليس إلا انعكاسًا لنرجسيتنا ورغبتنا في التملك. وهو مجرد تمثلات ترتبط بمرحلة طفولتنا وعلاقتنا بأمهاتنا وآباءنا. إنه تحايل على الرغبة ومحاولة لإعطائها طابعا من الشرعية تتخلص من خلاله المرأة بالإحساس بالذنب والخطيئة، لذلك تجد كل نساء العالم منشغلات بالحب. الحب هو الجانب المظلم لرغبتنا الحيوانية.

صمتت فِيرُونيك لبرهة تتأمل كلامه مما أعطاه فسحة لمحاولة قراءة أفكارها وتعريتها في مخيلته. كان يقول في قرارة نفسه، يا ترى كيف سيكون صهيلها فوق السرير؟ أتراها من النوع الذي يحب سماع الكلمات البذيئة وترديدها بصوت مرتفع، أم تراها تتعرق وهي تلهث من الرغبة. تخيلها مصلوبة على الجدار وهو يمتطيها كما يمتطي لاعب "الروديو" فرسًا متوحشة. نظر إلى صديقه الرسام فوجده يتحدث مع صديقتها الكاتبة المسرحية عن جماليات فن العمارة المسرحية الحديثة، ودور الفراغ في تأثيث الفضاء المسرحي، وقدرته على استحضار اللامرئي عبر المرئي. لاحظ بأن الكاتبة المسرحية كانت تحس ببعض الملل، لذلك دعاها إلى الانضمام إليهما مبادرًا إياها بالسؤال:

- ما رأيك جُوِيل في الشعر الإيروتيكي الهندي؟

تفاجأت جُوِيل لسؤاله وارتبكت للحظة كمن أحس بمس كهربائي لكنها استجمعت أنفاسها بعد ذلك ثم ابتسمت وقالت:

- أتقصد الكاماسوترا؟

- بل أقصد نوعًا من الشعر يجعلك تنتصب حسيا لمجرد قراءته، ويكتب بلغة شفافة تشف بدون أن تكشف. إنه استحضار اللامرئي في الجنس عبر لغة الشعر المرئية.

ويبدو أن إجابته قد أثارت فضولها الأنثوي، فقد غدلت من طريقة جلستها ثم قالت له:

- هل تحفظ بعض الأبيات منه؟

وبدون أن ينتظر عبدو إشارة منها بدأ في قراءة قصيدة من الشعر الإيروتيكي الهندي.

أنا الهندي أحمل ريشة
أريد أن أواسيك وأدللك
أنا الهندي أحمل ريشة
وأريد أن ألاطفك وأُجمِّلك

أنا الهندي أحمل ريشة
وأرغب كل الرغبة أن أقبلك

تجعلني أحلم عيونك العميقة

وأريد الوصول للأعماق العميقة

يجعلني أحلم ثغرك الفضي

يدهشني كل مرة ويسحرني

أما ملمس جلدك المرمري

فأرغب في ملامسته قرب المدفأة

بينما تدفئنا حرارة الخشب المحترق
ونحن مستلقيان فوق زربية
مرسومة على شكل أرنب [٩].

عندما انتهى من قراءة قصيدته بدأ في نزع قطع أثوابه قطعة قطعة وسط دهشة كل من جُوِيل وفِيرُونيك وقهقهات صديقه، ثم جرى بأقصى سرعة وارتمى في النهر وهو يغني المقطع الهندي بطريقته الخاصة. كان يميل إلى الاستعراض في كل شيء حد البؤس الإنساني، وكان يخلط حينها بين الخشبة والحياة.

لكن يبدو أن المشهد أغراهم جميعا بالسباحة، فقد نزعت فِيرُونيك فستانها الأصفر المزركش الذي يشبه بعض فساتين الغجر فبدت كإلهة إغريقية في لباس البحر. كانت تتمشى فوق أطراف أصابعها بخفة راقصة باليه، إثارتها خفية لا غواية فيها. لكنها كانت تبدو له شهية كحبة فراولة، يريد أن يلتهمها قبل أن يصيبها العطب.

أما جُوِيل فقد ارتمت بفستانها الخفيف الأبيض، فالتصق الثوب بجسدها المرمري لينحت تفاصيله. بالمقابل، فإن صديقه آثر أن يظل جالسًا يقرأ ديوان "سرير الغريبة" لمحمود درويش. سخر من صديقه بصوت مرتفع وقال له:

- يكفيك بؤسًا صديقي بؤسك الإنساني الذي تدفنه بين صفحات الكتب، فيثنيك عن ارتشاف رحيق الحياة.

---

[٩] دجو الهندي Djoe l'indien. شاعر مجهول يكتب باللغة الفرنسية تحت اسم دجو الهندي المستعار.

أجابه صديقه بابتسامة منحت له برهة للتفكير ثم قال له:

أحيانا... يجب ألا تفعل أي شيء، فكل حركة تصبح ضدك. في تلك اللحظة يلزمك بالضبط أن تقرأ رواية أو أن تدفن بؤسك الإنساني بين دفتي ديوان شعري.

توقفت الحافلة في جماعة قروية على بعد عشرين كيلومترا خارج المدينة. صعد بعض المسافرين فسمع أحدهم يسأل إن كان المكان الموجود أمامه فارغًا. أومأ له بالإيجاب بدون أن ينظر إليه. كان الشخص بدينا، لذلك فقد احتل كل المقعد واجتاح مساحة من مقعده مما جعله يحس بالاختناق. لم يستطع عبدو أن ينبس ببنت شفة وقاوم تبرمه عن طريق الغوص في استرجاعاته مرة أخرى.

عندما حل المساء اكتروا منزلًا مدة يومين. كانت فِيرُونيك تحمل معها قنينتين من النبيذ الفرنسي الأحمر الفاخر وواحدة من النبيذ الوردي. دعتهم إلى جلسة احتفالية بعدما وضعت في حاسوبها المحمول قرصًا لموسيقى شرقية، ثم بدأت ترقص بكامل الغنج والدلال كأنها راقصة من بلاط العباسيين. كانت مثيرة في رقصتها وهي تتوجه إليهم من حين لآخر لتملأ كأس النبيذ. بدأ صديقه في تجاذب أطراف الحديث مع جُوِيل حول أثر الرقص الشرقي في الرسومات الاستشراقية. أما هو فقد لف لفافة حشيش وبدأ يدخن فتبدو له فِيرُونيك كأنها حورية هاربة من جنة عدن وقد حنت لزمن الخطايا. اقتربت منه ثم أخذت منه لفافة الحشيش وجلست بجانبه. سألها: أين تعلمت الرقص الشرقي؟ أجابته: لدي صديقة يهودية مغربية اسمها راحيل، سيدة أعمال تعيش بفرنسا وتعشق كل ما يذكرها بالأندلس. لذلك صممت صالون منزلها على شكل بلاط أندلسي أسمته بلاط المعتمد بن عباد. تدعو صديقاتها كل نهاية أسبوع للرقص بينما تجلس في صدر البلاط

وهي تلبس قفطانًا يشبه قفاطين السلاطين. وهي تحب أن تضع فوق رأسها عمامة فتبدو كأميرة فاتنة من زمن الصحراء. إنها لا ترقص، بل تعشق فقط مشاهدة النسوة وهن يرقصن حول أغاني اليهود المغاربة. هناك تعرفت على سليم الهيلالي[10] وبوطبول[11] وتعلمت أسرار الرقص الشرقي وفنونه.

---

[10] حاييم بوطبول: فنان موسيقي مغربي من مواليد مدينة فاس، ويعتبر من بين آخر الفنانين اليهود المغاربة الذين أبدعوا في مجال الفن الشعبي المغربي. يتميز بوطبول بنوع منفرد من الأغاني، حيث ينبني على القصائد التقليدية مرفقة بموسيقى تعتمد على آلتي الإيقاع والكمان واللتين لا يعزفاهما سوى شقيقيه. لكنه مع نهاية سنة ١٩٥٠ انفصل عنهم وشكل مع سليم الهلالي (الملقب ب شلومو) ثنائيًا مستقلًا بذاته من أجل الاشتغال على تركيبات موسيقية ذات صبغة مغاربية، بل وقدم أيضًا أغانٍ ذات صبغة كونية ترتكز على مجموعة من التيارات الموسيقية بما فيها الملحون، لمساوة، الكناوي، الصالصا، الريكي، الفانك... وفي سنة ١٩٦٠ التقى بالفنان والمغني موريس الباز فأثمر التعاون بينهما على إعادة الاشتغال على مجموعة من أغاني بوطبول وفق تصور فني يواكب سنوات الستينيات. من بين أشهر أغانيه أغنية "جايا طوموبيل".

[11] الفنان المغاربي سليم هلالي من مواليد مدينة عنابة من أب تركي يعمل خبازًا وأم تعود أصولها إلى الأمازيغية اليهودية، غادر الجزائر في سن الرابعة عشرة متجهًا إلى مرسيليا على متن سفينة لا تحمل من الركاب سوى أغنام مصدرة إلى أوربا. وهناك بدأ مسيرته الغنائية وأصبح أكثر الفنانين شهرة في شمال أفريقيا. لوحق في عز الحرب العالمية الثانية من قبل قوات المخابرات الألمانية التي كانت تريد اعتقاله وإرساله إلى غرف الغاز لأنه يهودي، لولا تدخل عميد مسجد باريس حينها والوزير المفوض من البلاط العلوي في المغرب تحت الحماية الفرنسية آنذاك وهو السيد "قدور بن غبريط" الذي منحه شهادة تثبت إسلامه مع أوراق ثبوتية تؤكد أنه مسلم أبًا عن جد، وأعطاه اسم أبيه ثم كتب على قبر مهجور في المقابر

أجابها: ألا تنتهي السهرة بوقوعها في غرام اعتماد؟

ابتسمت وقد فهمت مغزى كلامه ثم قالت : تلك أسرار نسائية.

سألها: ألا تشبه صافو؟[12]

أجابته: إنها أكثر فتنة منها.

حينها قال لها: ربما. لكنها ليست أكثر فتنة منك بكل تأكيد. فأنت تذكرينني بهيباتيا.

ثم مد لها لفافة الحشيش فدخنتها منتشية وهي تردد :

- هيباتيا[13]... لا أظن. فلا زلت لم أتحرر بعد من عقدي.

الإسلامية هذا الاسم كي يضلل الألمان مما رفع عنه تلك الملاحقات. بعد ذلك أدخله السيد قدور مقهى المسجد و كان يحيي بعض السهرات مع فنانين كبار من أمثال "علي السريتي" عازف العود المعروف و"إبراهيم صالح" و"قدور بن غبريط" نفسه. وفي سنة ١٩٤٩ قرر الذهاب إلى المغرب والاستقرار في مدينة الدار البيضاء وهناك افتتح "كباريه الديك الذهبي".

[12] صافو: (باليونانية: Σαπφώ) شاعرة إغريقية ولدت في جزيرة لسبوس في بحر إيجة باليونان بين عامي ٦٣٠ و ٦١٢ قبل الميلاد وتوفيت عام ٥٧٠ قبل الميلاد. تزوجت برجل وولدت معه طفلة، ولكنها فشلت في الحياة الزوجية مع زوجها حيث أصيب بالعجز الجنسي، فلم يستطع أن يشبع غريزتها، ولم تستطع هي الأخرى على كبت الغريزة فنفرت من الرجال واتجهت نحو بنات جنسها من العذارى فمارست معهن السحاق حتى عشقته وألفته معهن واستغنت به عن الرجال. وفي آخر حياتها رحلت إلى صقلية وماتت هناك وأُحرقت ونقل رمادها إلى بلدها، كما خُلد اسمها برسم صورتها على الآنية والنقود. وخلفت مجموعة قصائد شعرية في تسعة دواوين ويتركز شعرها علي مدح السحاق، ووصفه والشوق إليه، وكيف كانت تمارسه مع عشيقتها المفضلة (آتيس).

أجابها: أما أنا... فتعلمت أن أتجمل بعقدي.

ثم اقترب منها يطوقها بأنفاسه وقال لها:

- أنت امرأة ملهمة... وبودي أن أكتب قصيدة في مديح عينيك... سأرسمها يومًا فوق جسدك.

انفلتت منها ضحكة كخرير جدول فبدت مخمورة أنوثة وقالت له:

- جسدي قلعة محصنة لا مفتاح لها إلا الحب.

أجابها ضاحكًا وهو يملأ كأسها:

- ربما لأنك لم تعرفي الجنس بعد.

ثم طوق خصرها بحركة مباغتة والتهم شفتيها. جمدتها المفاجأة، فاستغل عنصر المباغتة لصالحه وضغط بقدمه بين فخديها ثم أسندها على الحائط وبدأ في تقبيل أطراف أصابعها.

حاولت أن تفلت أصابعها من قبضته لكنه استغل اندفاعها ودفعها بكل عنفوان ذكورته وألصق جسدها بالحائط. ثم رفع يديها إلى الأعلى

---

[13] هيباتيا السكندرية (٣٥٠-٣٧٠ تقريبًا - ٤١٥): (باليونانية: Υπατία) هي فيلسوفة تخصصت في الفلسفة الأفلاطونية المحدثة، وهي تعد أول امرأة في التاريخ يلمع اسمها كعالمة رياضيات، وكما لمعت في تدريس الفلسفة وعلم الفلك. كانت هيباتيا تتبع المدرسة الأفلاطونية المحدثة، تأثرت بفكر أفلوطين الذي كان يفضّل الدراسة المنطقية والرياضياتية بدلًا من المعرفة التجريبية، ويرى أن للقانون أفضلية على الطبيعة. وكان الهدف من حياة العقل لأتباع أفلوطين الاتحاد مع الصوفية الإلهية. عاشت هيباتيا في مصر الرومانية، وماتت على يد حشد من الغوغاء المسيحيين بعد اتهامها بممارسة السحر والإلحاد والتسبب في اضطرابات دينية.

ضامًا إياهما بقبضته وبدأ في تقبيل عنقها. كانت تتأوه من الرغبة وتدفعه في نفس الوقت، مما زاد من إثارته فأدارها وبدأ في تقبيل فقرات عنقها أسفل العنق جهة الظهر. سمع صوت أنينها خافتًا وهي تقول له: لكنني أحبه. أجابها: لا يفسد الجنس الحب.

ثم ضغط بأعلى فخده فوق مؤخرتها التي تشبه مؤخرة حصان. كانت تتلوى من الرغبة كحية رقطاء، وأراد أن يدفع بها إلى قمة الإثارة، لذلك رفع عنها الفستان وأولج أصبعه ممررا إياه بين صفاها ومروتها، وفي قمة نشوتها قالت له: لكنني زوجته.

أجابها: أنت الآن خارج اللحظة والزمن. لا خطوط حمراء... لا ملائكة هنا ولا شياطين.

ثم أولج فيها أفعاه بكل قوة حتى شهقت من النشوة، فبدأت تصرخ وتضغط بيديها على مؤخرته مطالبة إياه بأن يولجه عميقًا فيها.

بعدما أفرغ فيها حليب ذكورته توجه توًا إلى الحمام قصد الاغتسال، أما هي فبقيت متكومة حول نفسها. عندما عاد وجدها تنتحب. اقترب منها لكي يضمها بين ذراعيه لكنها صدته وتوجهت إلى الغرفة الثانية حيث تنام صديقتها مع صديقه. لم يستوعب الأمر فقد كان في قمة خمرته، لذلك، استلقى على الأريكة ونام. وحينما استيقظ في الصباح في حدود الساعة العاشرة انتبه إلى أنه وحيد في المنزل، دخل إلى غرفة صديقه فلاحظ بأن أمتعة السفر لا زالت في مكانها لذلك اطمأنت نفسه قليلًا. توجه إلى المقهى قصد الإفطار وهناك حاول الاتصال بصديقه لكنه وجده خارج التغطية. لف بعض لفافات الحشيش في انتظار عودتهم مستمتعًا بلعبته المفضلة: التأمل "الحشيشي".

قبل منتصف الظهيرة سمع صوت صديقه مرحًا، استدار إلى مصدر الصوت فوجد فِيرُونيك وجُوِيل تضحكان بينما يكمل صديقه حكي نكتة

مغربية بلكنة الجيل الأول من المغاربة الذين هاجروا إلى فرنسا. توجه إليهم محييًا إياهم ومستفسرًا عن غيبتهم، فأجابه صديقه بأنهم صعدوا إلى أعلى الشلال في قمة الجبل، وبأنهم لم يريدوا إيقاظه لأنه كان مستغرقا في النوم كخنزير الحضيرة. قهقه ضاحكا لهذا التشبيه معترضا عليه في نفس الوقت ثم قال لهم:

- ربما كنت خنزيرا...لكنني لن أعيش أبدا في الحظيرة. فقد ولدت خنزيرا بريا يعيش طليقا في الغابة، وتركت الحظيرة للمتزوجين.

بعد تناولهم وجبة الغداء تسللت فِيرُونيك لتأخذ حماما باردا، أما جُوِيل فقد استأذنت لكي تأخذ قيلولة الظهيرة. عندما بقيا لوحدهما تغيرت نبرة صديقه وعلت قسماته ملامح الجد. طلب منه سيجارة فمد له علبة السجائر، أشعلها بعصبية دون أن ينبس بكلمة. سأله عبدو: ماذا هناك؟ أجابه: اسأل نفسك.

ثم حكى له ما غاب عنه من التفاصيل بعد ليلة البارحة. فعند ظهور أول خيوط الصباح استفاق على جلبة خفيفة فوجد فِيرُونيك بصدد جمع أمتعتها. استفسرها بصوت هامس لكنها تجاهلته وظلت تضع ملابسها في حقيبة الظهر. فهب من نومه واقفا واقترب منها سائلا إياها، ما الخطب؟ لكنها لم تجبه وخرجت من الغرفة ثم توجهت إلى الحمام. تبعها مسرعا فدخلت الحمام ولملمت أغراضها المتناثرة قرب المرآة، ثم وضعتها في كيس جلدي أنيق وهمت بالخروج من الحمام لكي تأخذ أغراضها وترحل. لكنه اعترض سبيلها عند باب الحمام فدفعته بعيدا وهي تلعن المغاربة. أمسكها من يدها برفق واقترب منها فوجدها محمرة العينين ذابلة لم تذق للنوم طعما طيلة الليل. طلبت منه أن يرافقها لقسم الشرطة من أجل تقديم شكاية اغتصاب بصديقه. جفل للحظات لكنه تمالك نفسه بسرعة واقترح عليها أن يتناولا طعام الإفطار قبل التوجه إلى قسم الشرطة. كانت المقهى

فارغة إلا من النادل الذي يعد الكراسي الخشبية المتهالكة من أجل استقبال الزبائن. طلب طعام الإفطار لشخصين ثم استمع إليها تشرح له تفاصيل اغتصابها ليلة البارحة وشرارة الغضب تتطاير من عينيها. أنصت إليها طويلا دون أن ينبس بكلمة، وعندما انتهت من حكي ما حدث بالتفصيل رفع رأسه ونظر في عينيها بطريقة لا تخلو من تعاطف ثم شرح لها الأمر على أساس أنه ليس إلا مجرد سوء فهم ثقافي، وأن صديقه لم يقصد اغتصابها، بل فهم تجاوبها معه على أساس أنه انجذاب متبادل، ثم شرح لها علاقة الرجل بالمرأة في المجتمع المغربي الذي تطغى عليه عقلية الذكورة، وحيث يفسر تمنع المرأة على أساس أنه اشتهاء ورغبة بخلاف المجتمع الفرنسي. ثم أكد لها طيبة قلب صديقه وفسر سلوكه على أساس أنه نزوة ممثل مسرحي يعاني الترسبات النفسية للشخصيات التي يمثلها على الخشبة. هدأت فِيرُونيك قليلا مما جعله يستغل الفرصة لكي يقترح عليها صعود الجبل والاستحمام في الشلال، ثم يمكنها بعد ذلك أن تقرر تسجيل شكايتها أو التنازل عنها. وعندما لمس بعض التوجس في دعوتها اقترح أن ترافقها صديقتها جُوِيل.

عندما أنهى صديقه حديثه تناول عبدو سيجارة وأشعلها في عصبية ثم استغرق في صمت طويل. لم يكن يتوقع أن تقلب نزوة عابرة حياته رأسا على عقب، فقد كان يعتقد بأن كل لحظة هي مستقلة بذاتها، وأنها لا يمكن أن ترخي بظلالها القاتمة على اللحظة القادمة ما دام يستغرق في الاستمتاع بها كأنها حياة. تتابعت في رأسه صور قاتمة تخيل فيها نفسه مقيدا بالأصفاد، وتخيل زيارة أمه له في السجن حاملة معها مؤونة السجناء الأسبوعية. قطع عليه صوت صديقه استغراقه في خيالاته وهو يقول له: احذر. ففي المرة القادمة لن ترحمك الحياة، إنك الآن تملك وعيا وتدرك طبيعة جرمك.

في حدود الساعة الثالثة مساء استيقظت جُوِيل من قيلولتها ثم التحقت بهم، فاقترحوا عليها شرب كأس شاي في المقهى، لكنها اعتذرت منهم لأن هاتفا طارئا وصلها من فرقتها المسرحية بفرنسا، ويلزمها العودة لكي تعيد تنقيح النص المسرحي الذي سيعرضونه في قصر البابا خلال مهرجان أفينيون. سألها عن خصوصية نصها وتفاصيل العرض، فأجابته بأن الأمر يتعلق بمسرحية حكايات ألف ليلة وليلة. سألها عن مدى الابتكار الجمالي في تناولهم الجديد لحكايات ألف ليلة وليلة، فأجابته بأن الإخراج المسرحي سيركز هذه المرة على الأبعاد النفسية لأبطال ألف ليلة وليلة بعيدا عن الرؤية الاستشراقية التي ترى فيهم مجرد كائنات غرائبية تمثل اللاوعي الجمعي للمجتمعات الشرقية. فالمخرج روسي ينتمي إلى المدرسة الواقعية في الإخراج المسرحي وهو تلميذ "رابوبورت"[14]. أجابها بأنها تذكره بمدرسه في معهد التمثيل والذي ظل طيلة سنتين يمرنهم حول الذاكرة الحسية عند ستانيسلافسكي[15] لأنه

---

[14] معلم روسي متخصص في عمل الممثل. تلميذ مدرسة فاختانوف، عاصر كل من المدرسة الستانسلافسكية الواقعية والمدرسة المايرخولدية التعبيرية. له كتاب مترجم إلى العربية: الممثل وعمله. ترجمة عادل كوركيس.

[15] كوسنانتين سيرجيفيتش ستانسلافسكي (١٨٦٣- ١٩٣٨): ممثل ومخرج مسرحي روسي، معلم المسرح الحديث، ومدير مسرح موسكو الفني. رفض أسلوب الحماس الخطابي للتمثيل من أجل مدخل أكثر واقعية، فركز على القواعد النفسية لتطور الشخصية، وأسس أستوديو الممثل على طريقته ومنهجه. ويعتبر أول معلم تمثيل امتلك طريقة ومنهجا في تدريب الممثل. وقد تأثر بالصياغة الجمالية لكتابات أنطون تسيخوف وماكسيم غورغي الدرامية، وهي الواقعية التي تختلف بالمرة عن الطبيعة التي سادت المسرح الأوربي وحتى ذلك الوقت، والتي فرضت على الكل مناهضتها لما فيها من سطحية وشكلية فارغة. يركز على القواعد النفسية

لم يكن يعرف عنه إلا ذلك. ثم أردف قائلا وهو يبتسم ابتسامة ساخرة: ربما تضخمت ذاكرتي الحسية من فرط تكراري الاشتغال عليها أكثر مما يجب. أضحكتها دعابته مما شجعه لكي يقترح عليها مرافقتها إلى المحطة الطرقية على أساس أن يعود إليهم آخر المساء. راقها اقتراحه خصوصا أنها عانت أثناء مجيئها من تطفل المرشدين السياحيين الذين ينبتون كالفطر ويشتغلون خارج القانون.

توجهت جويل لكي تلملم أغراضها فالتحق بها قصد مساعدتها، ثم اقترح عليها أن يحمل عنها حقيبة الظهر لكنها رفضت.

قال لها ساخرا: أتريدين أن أنعت بفاقد الرجولة وأنا أرافقك محملة بحقيبة الظهر الثقيلة بينما لا أحمل شيئا.

أجابته: متى ستتخلص من الآخر بداخلك؟.

عندها تدخل صديقه قائلا: دعيه يحمل عنك صخرة سيزيف لكي يكفر عن بعض أخطائه.

أضحكته عبارة صديقه فأجابه بأن خطف منها الحقيبة وحملها على ظهره قائلا: أفضل أن أحمل صخرة سيزيف على تحمل ثقل الوجود الإنساني المفرط في رتابته.

ضحكت جُوِيل من طريقة تشخيصه الساخرة لسيزيف وهو يحمل الصخرة ثم قالت له:

- سأترك لك الحقيبة ما دمت تتلذذ بعذاباتك.

لتطور الشخصية، ويقيم منهجه على أساس معرفة الدوافع واستحضار الخبرة الحياتية أثناء لعب الدور من أجل تحقيق الصدق الفني والذي يختلف عن الصدق الواقعي.

أجابها:

- يلزمك أن تجربي لذة الألم.

علت الحمرة وجهها وهي تقول:

- تركت لك الألم واكتفيت باللذة.

أجابها ببيت شعري للشاعرة الإيرانية فروغ فرخزاد[16]: أذنبت ذنبا مفعما باللذة.

ويبدو أنها فهمت المغزى من كلامه فقد ابتسمت ولمع في عينيها وميض الرغبة. حينها سمعت صوت فِيرُونيك يأتيها من الخلف ساخرا:

- احذري...إنه أفعى...

وخلال الطريق إلى المحطة داخل سيارة الأجرة استفسرته جُوِيل عن الشاعرة الإيرانية فروغ فرخزاد فأجابها بأنها تعتبر من أشهر الشاعرات الإيرانيات رغم قصر حياتها الشعرية، فلقد كتبت الشعر بحرية مطلقة وتمردت على العادات والتقاليد التي تحكم المرأة الإيرانية وتكبلها بقيد الشرف فتمنعها من ممارسة ما ترغب فيه. وقد جذبت الانتباه والرفض من مجتمعها كمطلقة تحمل أفكار نسوية جدلية.

---

[16] فروغ فرخزاد (٥ يناير، ١٩٣٥ – ١٤ فبراير، ١٩٦٧): تعتبر من أشهر الشاعرات الإيرانيات. فرغم حياتها القصيرة استطاعت تقديم رؤية إبداعية إنسانية كبيرة ومتجاوزة. صدرت لها خمسة دواوين هي "الأسيرة" و"الجدار" و"المتمردة" و"ولادة أخرى" و"فلنؤمن بحلول فصل قارس"، كما خاضت فروع المسرح والإعداد والتمثيل والإنتاج السينمائي. توفيت في حادث سير ونشر لها بعد وفاتها قصيدة بعنوان "لنؤمن ببداية موسم البرد" وتعد أقوى القصائد في الشعر الفارسي الحديث.

سألته إن كان يتذكر بعضا من مقاطعها الشعرية، فانطلق في إلقائه لقصيدتها "تشرق الشمس":

إلهي
لست أدري ما أريد
و لا عم تبحث عيوني المتعبة
و لم أصبح هذا القلب حزينًا
إني أبتعد عمن أعرفهم
كي أستطيع الإنصات لأنات
قلبي المريض
حينما استمعوا إلى قصائدي
رموني بالورود
و حينما انزويت
اتهموني بالجنون

وبعدما انتهى من إلقاء القصيدة مال نحوها قائلا:

- يبدو أنها كانت تتنبأ بقرب نهايتها المأساوية من خلال هذه القصيدة، فقد توفيت في الثانية والثلاثين من عمرها إثر حادثة سير عندما أرادت تجنب عربة قادمة باتجاه سيارتها فاصطدمت بجدار. ورغم الفترة القصيرة التي عاشتها فروغ -أي الضوء بالإيرانية- فإن ذلك لم يمنعها من أن تصبح علامة فارقة في الأدب الفارسي الحديث.

صمتت جُوِيل لبرهة ثم قالت له وهي متأثرة:

- فهمتك الآن عندما كنت تحاول أن تقنع فِيرُونيك بأن الحياة لا تقاس بعدد الأنفاس، وإنما بعدد اللحظات التي تنقطع فيها الأنفاس،

فعندما يمر الزمن ونستحضر ماضينا لا نتذكر منه إلا تلك اللحظات التي انقطعت فيها أنفاسنا مع شهقة المجازفة.

أدهشه أنها كانت منتبهة لحواره مع فِيرُونيك عندما كانا يتحدثان عن فلسفة اللحظة. فأجابها: إن الحياة لا تكون جديرة بالحياة إلا بين شهقتين، حينها لا نعيش الحياة بل نقترفها اقترافا. ويبدو أن جملته الأخيرة قد حققت لها ارتعاشة شعرية قوية فقد ارتمت بشفتيها على شفتيه ورسمت فوقهما قبلة محمومة أحس خلالها بتيار كهربائي يخترقه اختراقا فيجعل قلبه يتوقف عن الخفقان. وعندما استفاق من نشوته أحس بالخجل لأن السائق كان يتلصص عليهما من خلال مرآة السيارة الداخلية، مما جعله يعدل من جلسته ويدير وجهه لكي يتأمل انحدارات الجبل.

عند المحطة ودعها منكسرا وهو يتأمل تصاريف الحياة التي تدخر أجمل ما فيها للحظات الوداع الأخيرة، ثم أقفل راجعا إلى الجبل مع نفس السائق. كان كجندي مهزوم قد خرج للتو من معركة فقد فيها عزيزا على قلبه. تساءل مع نفسه: كيف تجرأت وقبلته بنفس محموم ولم تتعد علاقتهما مسافة السفر إلى المحطة؟ حقا... كل امرأة مجرة.

عندما وصل إلى الجبل توجه توا إلى المنزل فقد كان متعبا، فتح الباب ودخل، فتناهت إلى سمعه تأوهات محمومة صادرة من غرفة صديقه. دارت في خلده مجموعة من السيناريوهات فتخيل أن صديقه قام باغتصاب فِيرُونيك بعدما خلا له الجو واطمأنت له. اقترب من الغرفة على أطراف أصابعه وتلصص عليهما من ثقب الباب. رأى فِيرُونيك عارية تماما وهي تمتطي صديقه بينما هو يتلوى تحتها من فرط اللذة فتصدر عنه أنات خافتة. أما هي فقد كانت ترتعش وتصرخ بكل هياج أدخلني بكاملك. أعشقك... أعشقك... وأريد أن أحملك معي بداخلي.

(٧)

توقفت الحافلة في منتصف الطريق إلى الصحراء، نزل الراكبون تباعا من أجل تناول طعام الغداء في أحد المطاعم المتناثرة على جنبات الطريق. كان الرجل البدين لا زال نائما وقد مال بجانب جسده عليه، أحس بثقله الجاثم وبعض الألم. همس في أذنه لكنه لم يستيقظ، ربت على كتفه بلطف بدون جدوى. حاول أن يدفعه قليلا كي يفسح لنفسه ممرا للخروج، استيقظ الرجل ونظر إليه نظرة شزرا، ثم تنحى له جانبا. مر بين الكراسي باحثا عن شبيهة فِيرُونيك ورفيقها لكنه وجد مقعدهما فارغا، ربما نزلا في منتصف الطريق ليغيرا الحافلة باتجاه المطار. خرج من الحافلة وهو يجر خطواته، ألم الظهر لا زال يلازمه، فكر أن يدخن سيجارة محشوة بالحشيش تسكن بعض ألمه. كانت معدته فارغة لذلك فكر أن يتناول طعام الغداء.

عندما خرج من الحافلة لفحته ريح شرقية جافة فأحس بنسائم الصحراء. كان المسافرون متحلقين حول بعض طاولات المقاهي والمطاعم الشعبية المتناثرة على الطريق .توجه إلى جزار يوجد على مقربة من أول مقهى صادفه، وطلب منه شريحة من اللحم، ثم سلمها إلى شخص آخر يتكلف بالشواء. جلس على طاولة قصية من المقهى ثم أخذ يلف سيجارة الحشيش وهو ينتظر قدوم الطعام. استرعى انتباهه نباح كلب متشرد يطارد قطة سوداء، اختبأت القطة تحت سيارة مركونة بجانب المقهى. حاول الكلب مهاجمتها فماءت مواء شرسا وهي تطوح بمخالبها في الهواء. تراجع الكلب إلى الوراء قليلا ثم عاود المحاولة. اختبأت القطة تحت إحدى العجلات الخلفية، أدخل قائمه لكنها انكمشت على نفسها. تذكر حينها فِيرُونيك وهي متكومة قرب الجدار بعدما أفرغ فيها ما بصلبه. تأمل الكلب فوجده أجرب تحرك قوائمه هيكل جسده الهزيل،

ثم فكر في حياته الثانية، يا ترى هل ستنبعث روحه في جسد كلب أجرب يشبه هذا الكلب. تذكر بأن الفرنسيين يعشقون حياة الكلاب، فهم عندما يودون وصف حياة شخص منطلق متحرر من جميع الالتزامات يطلقون عليها نعت عيشة الكلاب، ويعتبرون بأن أفضل حياة يمكن أن يعيشها المرء هي حياة الكلب، فتجدهم يغبطون صاحبها في كثير من الأحيان. تأمل هذه المفارقة الثقافية التي تجعل من عيشة الكلاب شتيمة في العالم العربي ومديحا لدى الفرنسيين.

كانت أدخنة الشواء تتصاعد فتلفحه وتزيد المكان حرارة. قدم النادل إليه لكي يأخذ منه الطلبيات، وحينما وجده يلف سيجارة الحشيش هب صارخا:

- ممنوع. لا تدخن حشيشا. الحشيش ممنوع هنا.

تفاجأ "عبدو" من ردة فعل النادل، وأحس بالإحراج خصوصا أن جماعة من رواد المقهى استداروا ناحية طاولته يستطلعون الأمر. إنه يعرف بأن الحشيش ممنوع بسلطة القانون، لكنه يعرف أيضًا بأنهم يتغاضون عن ملاحقة الذين يتعاطونه لأنه يشكل جزءًا من اقتصاد البلد ويحرك دورته الاقتصادية. أحس كما لو أن النادل يستغل سلطته الصغيرة الموكولة إليه من أجل ممارسة ساديته عليه، إنه من نوع النادلين الذين يقضون طيلة اليوم يتلقون الإهانات من رب العمل، لذلك فقد وجد الآن من يفرغ عليه غضبه المكبوت وحقده الدفين. إنه الآن صاحب سلطة، وسيطحنه بسلطته كما يطحن تمساح ضحيته بين فكيه. تذكر تلك البرامج الوثائقية عن عالم الحيوانات وتخيل نفسه جاموسا عطشانا أراد أن يشرب من النهر فانقض عليه تمساح وأطبق فكيه حول عنقه وبدأ يسحبه باتجاه قعر النهر. تمالك أعصابه ثم أجاب بكل هدوء:

- إلي بصاحب المقهى.

رد النادل:

- بعدما تجمع ما بيدك.

لم يكن من طبعه أن يستعمل نبرة مخزنية آمرة لكنه اضطر إليها هذه المرة وهو يقول له بكل هدوء:

- إن لم يحضر صاحب المقهى الآن، فمن الأفضل لك أن تفتش عن عمل جديد.

ارتبك النادل بعض الشيء، إذ لم يتوقع منه ردة الفعل هاته. لم يمهله كي يتمالك نفسه، بل عاجله بضربة قاصمة كما لو وضع جذع شجرة بين فكي التمساح فتركه فاغرا إذ قال له:

- يبدو أنك تحتاج إلى تربية مخزنية.

لقد استعمل معه كل تقنيات الممثل التي درسها رغم أنه بدأ يكره أن يخلط بين الخشبة والحياة. كان النادل يعرف ماذا يعني المخزن في قاموس بلده، فلقد سمع الكثير من الحكايات عن أولئك الذين وقعوا ضحية غضبه. ولقد كان المخزن في الكثير من الأحيان حيلة المحتالين الذين ينصبون على الناس باسمه، كما كان في نفس الوقت بمثابة الفزاعة التي يحتمي بها الفاشلون والانتهازيون والكسالى من أبناء العائلات التي تتوارث ريع البلد وامتيازاته. تغيرت نبرة النادل وانخفض صوته وهو يقول:

- سأنادي عليه وأتركه يتكلف بأمرك.

بعد لحظات أقدم صاحب المقهى، فما كان منه إلا أن فاجأه قائلا:

- يلزمك أن تعلم من يشتغل معك كيفية احترام خدام المخزن. الملازم حميدو بندريس. قائد كتيبة قاعدة أمزميز.

تفاجأ صاحب المقهى بدوره ولم يدر ماذا يفعل. مرحبا سيدي... قال له، ثم أضاف:

- أنت ضيفنا. تفضل بالداخل، يمكنك أن تدخن هناك كما تشاء. فقط، بالخارج، قد تمر دورية الدرك فنقع معها في مشاكل.

أجابه:

- لا عليك. فكلنا أبناء المخزن. كما تريد سيدي، أجاب صاحب المقهى.

بعد قليل عاد صاحب المقهى وهو يحمل "طاجين" اللحم وإبريقا كبيرا من الشاي وبعض الحلوى. تفضل، بعض من واجب الضيافة. شكرا...قال له عبدو، ثم أضاف:

- اترك لي رقم هاتفك، عندما سأصل إلى القاعدة سأتصل بالقيادة الجهوية للدرك كي تخصص لمطعمك معاملة اعتبارية.

أحس صاحب المقهى بالغبطة والفخر فقد أصبح في حماية المخزن، خصوصا وأن مطعمه يوجد على جانب الطريق، وفي الكثير من الأحيان تقع بعض الحوادث مع بعض عابري السبيل من الزبائن وتتطلب تدخل الدرك. أكل "عبدو" بنهم هذه المرة ولم يحس بأي ذنب. الاحتيال أفضل من الفضيحة. هكذا قال بينه وبين نفسه.

عندما أنهى طعامه لف لفافة الحشيش ثم بدأ يدخنها بكل انتشاء. كانت رائحة الحشيش الأصيل التي يدخنها تسري داخل كيانه وتتراقص بعدها في الهواء، معلنة عن بداية سفره الداخلي. إنه يسافر باتجاه الصحراء، ريح صحراوية تهب جافة وساخنة. آآآآه من أثر الحشيش بطعم نسيم الصحراء. سائق الحافلة يشغل المنبه إيذانا بمواصلة السفر. توجه إلى النادل وأراد أن يؤدي له فاتورة الطعام، لكنه ابتسم في وجهه قائلا:

- على حساب صاحب المحل.

أصر على الأداء لكن صاحب المقهى قدم مصافحا وهو يقول له:

- زيارتكم شرفتنا. يمكنك أن تعود في أي وقت. المطعم مطعمكم ونحن في خدمتكم.

شكر صاحب المطعم وصافحه ثم توجه إلى الحافلة. عندما توجه إلى مقعده وجد بأن الرجل البدين قد غير المقعد. تنفس الصعداء. أخيراً، سيستطيع استغلال المقعدين معا من أجل النوم.

(٨)

حينما استفاق عبدو كان الوقت ليلا، والحافلة شبه فارغة إلا من بعض الركاب، يبدو أنهم نزلوا في تلك المدن التي تتوزع على مدخل الصحراء وتركوا له أن يغوص في التيه لوحده. أطل من النافذة، ظلام يلف كل شيء. لم تكن هناك مكيفات بالحافلة، فقط شافطات الهواء التي كانت تحمل معها هواء ساخنا من الخارج، أغلقها... صوت الراديو... أغنية شعبية على أثير الراديو بصوت المطرب المغربي حاييم بوطبول يقول مطلعها:

الحمام اللي والفتو مشى عليا، ما بقالي نسمع صوته في غصاني
ما بقالي في الدنيا ما ندير أمان، بعد الحمام اللي ربيته امشي عليا
صار هارب عني ما دار لي مزية، بعد ما كان صديقي يحوم على خيامي
كل واحد مكوي في حياته مياه كية، كل شيء مجرب التحقيق في كلامي[17].

---

[17] أغنية من التراث الشعبي الجزائري لمحمد العنقى سبق أن أعاد غناءها الشاب خالد، وتعني كلماتها باللغة العربية: الحمام الذي ألفته رحل عني، لم أعد أسمع شذوه فوق أغصاني. لن أستطيع الإحساس أبدا بالأمان، ما دام قد رحل من ربيته من الحمام. هرب عني ونكر الجميل، بعدما كان صديقي ويحوم حول خيامي.

مـرة أخـرى تطـارده كـما تطـارد الأشـباح مريضـا بـالوهم، امـرأة الصحراء. ما هذا الجرح الذي يرفض أن يندمل؟ تـذكرها مـن جديـد. لم تكن صحراوية ولم تسافر أبدا إلى الصحراء لكنها كانت تحمل قلب نساء الصحراء. وقد حـدس ذلـك في أول لقـاء لهـما. كـان ينتظرهـا في محطـة القطار، وبينما كانت تصعد السلالم المتحركة للمحطة كان يراقبها هنـاك في الأعلى، بدون أن تنتبـه إليـه. يـذكر أنهـا كانـت ترتـدي سروال جينـز أزرق، وسترة بنفسجية، وتحمل في يدها حقيبة نسـائية زرقـاء سـماوية اللون. وكانت تصعد إلى الأعلى كأميرة من زمن الصحراء. فكر في الهـرب لأنها ستعري الصـحراء التـي توجـد بداخلـه. لم تكـن تضـع إلا الضروري اللازم من الزينة النسائية، ماكياج خفيف يبرز تقاسيم الوجـه بـدون أن يسقط في الاستعراض، قرطين أزرقين، سلسلة ذهبية رقيقة تزين عنقهـا. وكانت تجمع شعرها الخمري اللون إلى أعلى الخلـف. أمـا حيـنما مـرت من أمامه فقد لمح مسحة من حزن عميق في عينيها العسليتين. فتساءل بينه وبين نفسه: كيف تستطيع هذه المـرأة أن تجمـع بـين المتناقضـات فتبدو في حزنها باذخة الفرح؟

حينما اقتربت منه لم تتعرف عليه، فقد أرخى لحيته وجعلهـا تنسـدل على وجهه كزاهد في الحضور يريد أن يخلو إلى نفسه فيصـبح لامرئيـا، مـما جعله يتأمل تقاسيم وجهها المنحوت بعناية. كل شيء في مكانه. كانت تبدو في زينتها كمن يضع النقط فوق أحرف المحيا. لم تكن قد تعرفت عليه بعـد مباشرة، إنها تعرف فقط أنـه ينتظرهـا هنـاك في ركـن مـن محطـة القطـار. وصلت إلى أعلى السـلم ولم تلتفـت يمنـة أو يسرة، بـل اتجهـت مبـاشرة إلى الباب المفضي إلى خارج المحطة، وهنـاك توقفـت. أخرجـت هاتفهـا النقـال

كل امرئ سبق له أن اكتوى بما اكتويت، ومن لم يجرب فليتحقق بنفسه من كلامي.

وركبت رقما. رن الهاتف في جيبه لكنه لم يـرد عـلى اتصـالها. أراد أن يطيـل عمر هذه اللحظة حتى تصير عمرا. أجمـل مـا في الحـب البـدايات... لـذلك فقد كان يعشق أن يطيل عمر البدايات... حتى إذا ما انتهت بدايـة يفتعـل الصدف لكي يصنع بداية جديدة.

تبعها وبداخله رغبة في الهرب. لم يكن مسـتعدا لامـرأة تنـزع عنـه كبرياءه وأناه. توجـه إلى خـارج المحطـة وأشـعل سـيجارة وهـو يراقبهـا خفية، فكر للحظة في الهـرب لكنـه غـير في آخـر لحظـة قـراره. لم يكـن يعرف بأن هذا القرار سيقلب ترتيبه الـداخلي رأسـا عـلى عقـب. توجـه إليها بكل هدوء ثم وقـف إلى جانبهـا يـدخن سـيجارته. كانـت لا تـزال تكتب رسالة نصية، ولم تنتبه إليه. وبدون أن يلتفت إليها قال لها:

- أتسمحين بأن أدعـوك إلى فنجـان قهـوة لـكي تسـتمعي إلى قصـيدتي الأخيرة؟

استدارت بدهشة ممزوجة بنوع من الاستنكار وطعم المفاجأة، ثـم ابتسمت بكل هدوء ومدت يدها إليه مصافحة:

- أقبل... بشرط.

أجابها:

- أقبل شرطك... ما دام لن يلزمني بشيء.

تأملته للحظات كأنها تستنطق أفكاره ثم أجابته:

- شرطي ألا أكون قصيدتك الأخيرة.

لقد تزوجت رجلا آخر، فلماذا لا زال يتذكرها. لقد اتخـذت القـرار لوحدها، نعم، أحبته وأحبها. أحبها كما لم يحب امرأة مـن قبـل، أحبهـا حد التماهي والانصهار. ولقد انتظرته طـويلا وكانـت تريـده زوجـا لهـا،

كانت تعشق صراحته وكان يحب أن يتعرى معها من كل شيء... إلا من كبريائه. لم تكن تعلم أن كبرياءه سيحفر قبرا لهما لذلك عشقت كبرياءه.

لقد كانت ابنة مناضل من كبار المناضلين الشرفاء الذين رفضوا أن يقايضوا تاريخهم النضالي بالمناصب والامتيازات كما فعل العديد من الرفاق. حكت له عن طفولتها، وتيتمها المبكر، وعن كل شيء. كانت متعلقة أشد التعلق بوالدها، وكان متعلقا بها وبوطنه. لم يكن يتركها لوحدها طرفة عين، وكان يرافقها حتى إلى المدرسة، كل يوم، وينتظرها عند الخروج. وفي طريق المدرسة كان يغني معها أغنية وطنية يقول مطلعها: "إيييه... أمة المغرب. إيييه... دولة المغرب. إن عشنا نعش كراما...أو نموت متنا كراما. يا بني المغرب سيروا... لا تكونوا غافلينا... جددوا عهدا عظيما.... للجدود الغابرينا... أنقدوها من حياة الفقر والجهل...ما عهدنا العرب ترضى عيشة الذل". ولقد عاش كريما، ومات كريما. حينما مد الملك الراحل يده للمعارضة كي تدخل إلى الحكومة وتشكل ما سمي أنذاك بحكومة التناوب، ظل يصرخ في الرفاق. احذروا، إنها حيلة ماكرة. كيف توقعون شيكا على بياض وبدون ضمانات. إنهم سيمسحون فيكم جميع أخطائكم. أتجلسون جنبا إلى جنب مع من كان بالأمس جلادكم؟

حاول الرفاق إغراءه بالمناصب في الديوان بالوزارة بدون جدوى، ثم بعد ذلك فكروا في حيلة واقترحوا عليه منصبا في سفارة قصية بأمريكا اللاتينية كي يتخلصوا من وجعه وصداعه، ولكنه رفض المساومة وما تزحزح عن موقفه قيد أنملة. لقد عاش كريما ومات كريما كما كلمات النشيد الذي كان يغنيه لها، لم يغير موقفه كما يغير معطفه، لكن الرفاق فعلوا ذلك. فحينما ألفوا الكراسي الأثيرة لم يستطيعوا عنها فراقا. فحينما حصل حزب الرفاق على المرتبة الأولى في الانتخابات لم يتم تعيين

الوزير الأول من حزبهم، لم يحترم النظام تعهداته ولذلك قرر الشيخ الانسحاب، لكن الرفاق خذلوه بعدما تخشبت أجسادهم وأصبحت ثقيلة بفعل عادة الجلوس الطويل فوق الكراسي الأثيرة.

لقد تغيرت مواقف البعض منهم مائة وثمانين درجة، أما البعض الآخر فأصبح محاميا للشيطان، وانتقل من الدفاع عن الطبقات الشعبية إلى الدفاع عن اللوبيات الاقتصادية التي تحتكر خيرات البلاد بطريقة غير شرعية. انفرط عقد الرفاق وتفرق دمهم بين القبائل، أما شيخهم فقد انزوى وصام عن الكلام. بعد ذلك، تعارك الرفاق واختلفوا بخصوص الشيخ الجديد، فلقد كانوا لا يستطيعون العيش خارج ثقافة الشيخ والمريد، ثم تطاحنوا فيما بينهم من أجل المناصب والغنائم، وبعد ذلك تغيرت سحنات أغلبهم بعدما ظهرت عليهم ملامح الثراء. لم يمهل الزمن "سلاَّمْ" كي يحضر حفل تأبين الرفاق. لقد رحل قبل أن يشهد مأتمهم، مات عندما كانوا يصولون ويجولون داخل الحكومة في أوج عنفوانهم، رحل وهو يكتب بيان الذكرى الخمسين لتأسيس الحزب، وظل وفيا للعهد الذي قطعه على نفسه: أن يعيش ويموت كريما. وذلك ما كان، فقد مات يحمل القلم ذات ليلة صيفية رمضانية.

دخلت صبيته على غفلة منه كي تلاعبه، ظنته أول الأمر نائما، هزته بلطف ضاحكة، وعندما لم يستيقظ بدأت تبكي، لم تكن تعرف بعد معنى الموت. سمعتها أمها التي كانت تعد طعام العشاء، أقبلت، هزته، لكنه لم يبد حراكا، وضعت أذنها فوق قلبه، أنذاك تأكدت بأنه نزل من مقصورة القطار. كان مبتسما، وسعيدا، وهو يلوح بمنديل الوداع. لكنهم لم يكونوا سعداء برحيله، فلقد أحسوا باليتم والخذلان في مدينة الغول التي تلتهم كل شيء، ويباع فيها ويشترى كل شيء حتى أعراض الناس، مدينة يصبح فيها الشرف بمثابة وصمة عار على جبين الشرفاء.

أقبل أخوها الأكبر من المقهى وحينما دخل إلى المنزل اشتم رائحة الموت، توجه بسرعة إلى الصالون حيث كان "سلام" ممددا وهم متحلقون حوله فأدرك أن يد القدر امتدت كي تسرق منهم عماد المنزل ومعمدان سعادتهم وعرابها. حاول أن يوقظه بأقصى ما يستطيع، لكنه لم يتململ، حينها، تأكد بأن ملاك الموت يحوم داخل المنزل ويريد أن ينتزعه منهم عنوة، رفع الكنبة التي كان ممددا فوقها بأقصى قوته لعله يستفيق، لكن، بدون جدوى. فقد أسلم روحه إلى بارئها ورجعت نفسه المطمئنة إلى ربها راضية مرضية، "والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق".

بعد ذلك، تقاطر الرفاق على المنزل وتباكوا كما تباكى إخوة يوسف وهم يلعنون الذئب ويتبرؤون من دمه، ثم قدموا الوعود تلو العهود بأن يحفظوا أمانة رفيقهم ويتعهدوا أسرته. وأقاموا له جنازة مهيبة نقلت أطوارها في نشرة الأخبار الرئيسة بالقناة الرسمية، ثم ألقوا البيانات التأبينية والخطب يعددون فيها مناقب الشهيد وفداحة خسارة الوطن. وبعد ذلك تفرقوا بعدما أدلوا بتصريحاتهم للصحافة وتصدروا الصفوف الأمامية للجنازة كعادة تجار الموت والجنائز.

مرت الأيام، وانفرط الرفاق من حولهم، ولم يعد يزرهم إلا القليل منهم ممن كانوا من يعدون بين الأصدقاء. حاولت الأسرة تدبر أمورها بعد رحيل معيلها، واقترح أحد الأصدقاء على الأم أن تشتغل فبحث لها عن عمل كمسيرة لمعمل خياطة يملكه أحد الرفاق. التحقت بالعمل واشتغلت بكل كد، لكن الالتزامات المالية للأسرة كانت أكبر من أن تغطيها لوحدها، لذلك اضطرت أن تفرغ مسكنها داخل الحي الأنيق حيث يسكنون وانتقلوا للعيش داخل حارة شعبية.

كبرت امرأة الصحراء وسط صحراء غاب عنها الرفاق، وودعت فجأة طفولتها وأصبحت امرأة تحمل جرحا دفينا يسكنها كوشم قديم.

أحست كما لو أن القدر خذلها لذلك أصبح الحزن يلازمها ويرقص في عيونها طربا بل ويزيدها جمالا وإغراء. كان لحزنها فيض جاذبية جعله يسقط صريع غرامها منذ أول لقاء، أحب شفافيتها معه حيث كانت تبدو كحوض أكواريوم بدون أن تبوح بأي شيء. وأحس بكل شيء بدون حاجة لأن تعلنه، ولذلك أحبته. لكنهما افترقا ذات حادثة عشقية يصارع دوما ذاكرته كي لا يتذكرها.

لقد حدد معها موعدا من أجل الخطبة أكثر من مرة، لكنه كان يؤجل ذلك في كل مرة. اعتقدت أنه يماطل ككل الرجال، لكن الأمر لم يكن كذلك. فقط، لم تكن لديه المقومات الأساسية لكي ينشئ بيتا للزوجية. لم يكن عمله في التمثيل قارا وكان يخشى أن يصبح عالة عليها ما دامت أموره المادية غير مستقرة بعد. قدم مشروعا من أجل الحصول على قرض يسمح له بخلق مقاولة فنية تقوم بتنشيط المآثر السياحية، وكان يرى بأن سائح الألفية الثالثة يبحث عن عرض سياحي متنوع يجمع بين الترفيه والتثقيف، وأنه يمكن استثمار التاريخ الغني للبلد من أجل تنشيط المآثر التاريخية عوض عرض الجدران والبنايات التاريخية الخاوية على عروشها. لقد كانت فكرة مشروعه تقوم على أساس استغلال الفن الدرامي من أجل خلق حياة الفترة التاريخية الخاصة بكل أثر تاريخي: فمآثر المرابطين تجسد فيها وقائع تاريخية وقعت في عهد المرابطين، نفس الشيء بالنسبة للموحدين والمرينيين والعلويين. ولقد فكر في تمويل خطته عن طريق خصم نسبة من تذاكر الدخول للمآثر التاريخية، ومداخيل صور السياح والصور مع الشخصيات والفضاءات التاريخية، كما استطاع الحصول على وعود من بعض المستشهرين الذين يفضلون الاستشهار من خلال المنتوج الثقافي.

أعد ملفا متكاملا، وقطع جميع المراحل، بقي ينتظر فقط لحظة تأشير البنك. كان قد دخل في ترتيبات الخطبة والزواج، والتقى بأم امرأة

الصحراء وحددا موعدا للخطبة. وعندما بقي يومان فقط لحفل الخطبة تلقى الخبر القاصم: لقد تم السطو على فكرة مشروعه.

توجه إلى البنك فأبلغوه بأن ملفه لا زال قيد الدراسة والتمحيص من أجل التحقق من الضمانات. طلب مقابلة مدير البنك وشرح له بأن فكرة مشروعه تمت قرصنتها لكنه جواب مدير البنك كان هادئا وحاسما:

- إذا كنت تعتقد بأن فكرة مشروعك أصلية فأؤكد لك بأنها ليست كذلك. إنها تطبق في إسبانيا التي لا تبعد عنا إلا مسافة أربعة عشر كيلومترا. لكنك، يمكنك أن تضع ملفك بيد القضاء.
- القضاء؟ وهل هناك قضاء أكبر من الذي قدر وقضى. هكذا قال بينه وبين نفسه مغمغما.

أراد أن يحتج. لكن، ضد من؟ البنك؟ ببساطة سيلفقون له تهمة إهانة موظف أثناء مزاولة عمله. لم يجد طرفا يحتج عليه غير الذي قدر وقضى فطلب تأجيل الخطبة ثم دخل بعدها في دوامة من الإحباط. حاولت أن تستفسره لكنه لم يرد أن يكسر تلك الصورة التي تحملها عنه، ففسرت الأمر على أساس الرغبة في التماطل والتملص من الالتزامات. لقد كان يحب البذخ في كل شيء عندما يلتقي بها بين سفرين، لكنه يصبح شديد البخل حينما تستفسره عن أعطابه مع الحياة. كان يجيب دوما بأن كل شيء على ما يرام. لقد كان ينتصر لمكابرته على حساب الحقيقة ولذلك كبرت المسافة بينهما، وسكن الصمت الملغوم حواراتهما الهاتفية حتى انقطع الخط بينهما دونما رجعة، ولم يعد هناك خط الرجعة.

حاول الانشغال عن جرحه لذلك فتح حاسوبه المحمول، أراد أن يبحر في الإنترنت لكنه كان خارج مجال التغطية. أشعل بعض الموسيقى. أغنية

"قبلني كثيرا"[18] بصوت أندريا بوتشيلي. لقد كان يعشق صوته لأنه يستطيع أن ينتزعه من أقصى أطراف جسده كما الديك، أما عندما يصدح فينتزع الصوت من أطراف أصابع القدم. هكذا يعبر الصوت داخل كل الأجراس الصوتية من الصدر حتى أعلى الرأس، فيصبح كنيسة تترنم بكامل أجراسها لكي تعلن بداية ترتيل الصلاة. لم يكن يغني فقط، بل كان يصلي فيتطهر جميع المستمعين معه، وكان يعشق أن يتطهر بصوته.

حاول أن يقرأ بعض الكتابات المخزنة داخل نشرته النفسية، وأول ما صادفه نص "الزلازل العاطفية". لم يقو على الاقتراب منه فقد كان يؤرخ لجرحه، بقي متسمرا للحظات تمالك نفسه بعدها وهو يقول: يلزم أن نعرض جراحنا للشمس كي نشفى منها. وذلك ما كان، فقد فتح صفحة "الوورد" فوجد النص مرقونا ولا يزال في كامل طراوته، كأنما كتبه بالأمس فقط، رغم أن فراقهما قد مرت عليه أكثر من ستة أشهر. لقد كتب لها النص بمناسبة عيد ميلادها بعد الفراق، لكنه لم يرسله لها كعادته في كل عيد ميلاد. كانت في حضن رجل آخر، ولذلك أصر نكاية فيها على تدنيس طهارتها داخل النص المكتوب.

سنة سعيدة لامرأة احتلت بداخلي كل الأزمنة والعصور. لسيدة تحبل بكل العواصف والفصول. كل سنة نودعها نطوي معها أفراحنا الصغيرة، وندفن معها بعض الخيبات. نترقب القادم الحافل بكل الإثارة متربصين بالفرح الكبير، بفرح لا يأتي في موعده كلما ترقبناه كمضاربين زاهدين في أفراحهم الصغيرة. سيدتي الجميلة، ها أنا ذا أجدد في غيابك صلتي بك، ما من امرأة احتلتني كما احتللتني ومدت إلي رغم المسافات جسرا يعانق جسرا في مدن لا تتصافح فيها الجسور. وفي مدن متخمة

---

[18] قبلني كثيرا **Bessame mucho** بصوت Andrea Bocelli

حد الامتلاء يصبح الوفاء عن جوع خطيئة الرجال، وفضيلة في ثرثران النساء. أحبك! لا يكفي حبك... هكذا ردد صوتها بداخلي، تردد صوتها بداخلي كثيرا... لا يكفي حبنا. لا... يكفي... يكفي... حبكِ. حبكَ، خدمة إجبارية، حكم بالأشغال المؤبدة مع وقف التنفيذ... هكذا تردد صوتها بداخلي. معلقة ما بين سفرين وغياب، وأفراح صغيرة مؤجلة. قبلاتنا افتراضية، عناقنا تحكمه فأرة الحاسوب، ولقاءاتنا المختلسة تعذبني، تغمرني بالخطايا وتفترس بداخلي ما تبقى من الفرح الطفولي ومن خمرة الزاهدين. حقا؟ لم يعد يكفي أن تكوني سيدة حرة وشاعرها...لم تعد صباحاتكِ مدهشة في عيوني. ألا يكفي ما تقاسمته معك من الجنون والسفر فوق طاولة مقهانا الأثير. لم تعد كافية قالت. أنا امرأة، لي احتياجاتي العاطفية لا أختلسها كقط متشرد على أعتاب أكياس القمامة. متشردة أنا في حبك، لا أقدر على التقدم خطوة، ولا أقوى على التراجع حيث بدأت. قدر العاشقين، ينتهي صغيرا كل ما بدأ مدهشا، استثنائيا، وكبيرا. فكل امرأة مجرة. إذا ما عصف زلزال بمدينة صغيرة يتغير وجه المجرة. استشعروا الصفائح التكتونية لنسائكم، فقد يضرب زلزال عاطفي مدينة فيغير وجه المجرة، و قد يعصف بكل الكون.

(٨)

اخترقت الحافلة المدينة الصحراوية فأحس بتيار هوائي جاف وساخن يلفح وجهه. نظر من النافذة، كانت الحافلة تتهادى فوق رمال الصحراء وقد كشفت بعض مصابيح الإنارة العمومية عن بعض الكثبان الرملية المتناثرة هنا وهناك بعيدا عن الرصيف. لم يكن عبدو متعودا على تحمل درجات الحرارة المرتفعة لذلك فكر كيف سينام في ظل الجو

الخانق، إنه لا يتحمل المكيفات الهوائية ولا يطيقها. توقفت الحافلة في المحطة فنزل مع بعض الركاب القلائل ثم خرج يبحث عن سيارة أجرة صغيرة. مرت بضع دقائق وهو ينتظر، ثم لاحت له سيارة أجرة قادمة في الأفق. أشار لها فتوقفت، خرج منها رجل أسمر وأخذ منه حقيبة الظهر ثم وضعها داخل حقيبة السيارة وهو يبتسم له:

- مرحبا بك في مدينتنا.

أجابه:

- شكرا. فندق تافيلالت من فضلك.

وطيلة المسافة إلى الفندق ظل يتجاذب أطراف الحديث مع السائق الأسمر. لقد كان طيبا كعادة أهل الصحراء، وكريما لم تغير من طبعه قيم الاستهلاك التي زحفت على المدن الداخلية فالتهمت معها كل شيء. قارن بينه وبين سائقي المدن الكبرى الذين يتعاملون مع الزبون كأنهم يحملونه داخل سياراتهم الخصوصية، فيشترطون عليه الوجهة التي سيحملونه إليها. تذكر يوم كان ينتظر سيارة الأجرة خلال يوم عاصف وقد بلله المطر، فلم يرد أي سائق أجرة أن يتوقف له، لقد كانوا يصطادون السياح فقط، وعندما لا يجدونهم فيختارون الأماكن التي سيحملون منها الزبائن. بعد مدة توقف له أحدهم، حاول فتح الباب لكنه وجده موصدًا، سأله السائق: إلى أين تريدني أن أحملك؟ كان يعرف الحيلة، لذلك لم يرد أن يغامر بكشف وجهته التي ربما لن تناسب السائق، قال له:

- احملني حيث تريد. المهم ألا أبقى تحت المطر.

ضحك السائق وفتح له الباب، ثم حمله إلى وجهته.

سأله السائق الصحراوي:

- من أية مدينة قدمت؟
- من تاملالت.
- آآآه... المدينة البيضاء بالأمازيغية.
- تتحدث الأمازيغية؟
- بعض الشيء... هناك أيضًا أمازيغ الصحراء.
- آآآه... لم أكن أعرف. ظننت أن الأمازيغ يوجدون فقط في الجبال وفي بعض سهول الجنوب قرب الأطلسي.
- مرحبا بك عندنا.
- شكرًا.
- إذا تفضلت تكون ضيفي، سأكون سعيدًا بذلك.
- لقد سمعت كثيرًا عن كرم الضيافة لدى أهل الصحراء، لكن ليس من سمع كمن رأى، تسعدني دعوتك. لكنني حجزت داخل فندق يملكه صديق لي.
- إذن أتمنى لك مقامًا سعيدًا.

مدَّ له السائق بطاقته الشخصية فوقها رقم هاتفه:

- إذا احتجت لأي شيء يمكنك أن تهاتفني. تسعدني خدمتك.

استلم منه عبدو البطاقة ثم سأله عن الثمن، لكنه رفض أن يأخذ منه مقابلًا. أصرّ أن يأخذ منه ثمن الخدمة لكنه رفض قائلًا:

- دعها للمرة القادمة. إذا أردتَ اكتشاف المدينة يمكنك مهاتفتي.

شكره عبدو ثم نزل من سيارة الأجرة وهو يقارن بينه وبين أخلاق سائقي الأجرة داخل المدن الكبرى. إذا أردت معرفة أخلاق أهل مدينة يلزمك أن تختبر سائقيها. هكذا ردد بينه وبين نفسه.

عندما وصل الفندق وجده عبارة عن قصبة تاريخية ضخمة بنيت بالتراب المدكوك على شكل قوالب تتداخل بشكل أفقي وعمودي، وتتخللها نوافذ ضيقة ذات شكل طولي. خمن أنها كانت في الأصل حصنًا لوجود برج في كل طرف من أطرافها. وجد في باب الفندق مجموعة من الزبائن ينامون فوق مصطبة موضوعة على الأرض في الباحة الخارجية. دخل إلى البهو الفسيح فوجد شخصًا نائمًا في مكتب الاستقبال. السلام عليكم قال له عبدو. فرك موظف الاستقبالات عينيه وهو يردد: وعليكم السلام. مرحبا. سلّم له عبدو بطاقة التعريف الوطنية وهو يقول له: لدي غرفة محجوزة عندكم. فتش موظف الاستقبالات داخل سجل موضوع فوق المكتب ثم أجابه: نعم. الغرفة رقم خمسة وعشرين. تفضل معي.

قاده موظف الاستقبالات إلى غرفته. دخل إليها فوجدها حارة وملتهبة. سأله:

- ألا توجد غرفة بها تهوية أفضل؟

أجابه موظف الاستقبالات:

- كل الغرف ساخنة، لذلك يفضل أغلب الزبائن المبيت في باحة الفندق في العراء.

أضحكه هذا الأمر، يؤدون فاتورة الغرفة ليناموا في العراء.

- أليست لديكم غرف مكيفة؟
- كل الزبائن يأتون هنا من أجل الاستشفاء عن طريق حمامات الرمل، لذلك ينصح بعدم التعرض للمكيفات الهوائية أثناء مرحلة الاستشفاء، فالمسام تكون واسعة جدا بعد حمامات الرمل وقد تتفاقم أزمتهم الصحية بفعل ذلك.

فكر عبدو للحظات ثم قرر أن ينام في العراء كأغلب الزبائن. ناوله موظف الاستقبالات مصطبة ووسادة ثم دله على مكان صالح للنوم في سطح الفندق حيث كان هناك بعض النسيم العليل يلطف من حرارة المكان. فرش المصطبة فوق أسفلت السطح، ووضع الوسادة ثم نام عميقًا هذه المرة.

الفصل الثاني:
زهرة الصحراء

قالت الشجرة: لا تكتم صرختك بل دع صداها يتردد في الوجود، فإن لم يسمعها العبد فقد سمعها رب الوجود. إذا رأيت مغتصبًا فلا تكتم صرختك، وإذا ما عشقت الحياة فلا تقتل دهشتك، وإن أنت أحسست بالحب فلا تكتم شهقتك.

(١)

استفاق في الصباح باكرًا بسبب حرارة الشمس التي لفحت وجهه، أراد أن يعود إلى النوم مجددًا لكنه لم يستطع. أخذ معه المصطبة والوسادة وتوجه إلى مدخل الفندق حيث توجد منطقة مُظلّلة. حاول العودة إلى النوم هناك لكن ضجيج الزبائن لم يتركه فقد كانت هناك جماعة قادمة من الشمال تلعب لعبة "البارتشي"[١٩] مما عكر عليه صفو نومه. لم يكن متعودًا على النهوض باكرًا. تقلب للحظات وهو يفكر. ماذا سأفعل إذا ما استفقت في هذه الساعة الباكرة؟ سيكون نهاري طويلًا في عز هذا الحر. اللعنة على "عمي إدريس" واقتراحاته الغبية. فكر أن يستقل أول حافلة ثم يعود إلى مدينته. نعم. هذا هو الحل. نهض من فراشه ثم توجه إلى الحمام وصبّ على جسده ماءً باردًا، فأحس بارتعاشة أعقبتها انتعاشة، برررررر.

خرج من الحمام وتوجه إلى باحة الفندق، وهناك طلب طعام الإفطار. قدم صاحب الفندق ورحب به كثيرًا، ثم قدم النادل وقدم له طعام إفطار صحراوي يتشكل من بعض البلح، حليب النوق، خبز الشعير، زيت أركان[٢٠]، عسل صحراوي، وإبريق شاي بالأعشاب

---

[19] لعبة البارتشي أصلها إسباني، وهي جد منتشرة في شمال المغرب. تلعب بواسطة النرد ومجموعة من الأقراص الصغيرة الملونة، وتقوم على أساس التسابق حيث الفائز هو الذي يجعل أقراصه تصل إلى قلعته قبل الآخر.

[20] زيت يستخرج من لوز شجر الأركان وهو شجر نادر يتواجد بسهل سوس المغربي ويعمر لمدة ٢٠٠ سنة وهو زيت يستخدم بكثرة في المطبخ التقليدي لهذه المنطقة، كما يستخدم لخواصه التجميلية والعلاجية.

الصحراوية. تناول طعام إفطاره ثم استفسر صاحب الفندق عن البرنامج فقال له:

- حمامات الرمل تبتدئ من الساعة الحادية عشرة صباحًا وتنتهي عند الثانية بعد الزوال. بعد ذلك هناك خرجات على الجِمال لزيارة بعض الواحات، وهناك أيضًا جولات عبر الدراجات النارية رباعية العجلات، وسهرات ليلية على نغمات الأهازيج الصحراوية وإيقاعات قبائل الطوارق. عدا ذلك، يمكنك أن تقوم بجولة سياحية في المدينة، وإذا أردت يمكنك الاستفادة من حصص تدليك بشحم الإبل.

سأله:

- هل هناك مسابح يمكنني أن أقضي فيها بعض الوقت قبل حلول موعد حمامات الرمل؟

- نحن ما زلنا لم نبنِ مسبحنا بعد، لكن يمكنني أن أطلب من صديق أن يستقبلك بمسبح فندقه الذي يوجد على مقربة من فندقنا. حذارِ أن تسبح بعد حمام الرمل، يجب أن تكون السباحة قبل ذلك لكي لا تبطل مفعول الحمام الرملي.

شكره عبدو على اقتراحه وطلب منه أن يدله على ذلك الفندق وأن يوصي صديقه. ثم بعد ذلك دخل إلى غرفته فوجدها ما زالت حارة، وهناك لف لفافة من الحشيش ودخنها بكل نشوة. كانت النشوة مختلفة بطعم جو الصحراء، أحس بها تخترق خياشيمه وتصعد بسرعة إلى دماغه، بل أحس ببعض الدوار والخدر اللذيذ. كان الألم أقل هذه المرة مع حرارة الصحراء، لذلك فكر بينه وبين نفسه: ربما يكون عمي إدريس محقًا وتؤدي حمامات الرمل مفعولها. من يدري. إننا لا نعلم شيئًا عن أسرار الطبيعة اللامتناهية.

خرج من الغرفة حاملًا حاسوبه النقال وحقيبة الظهر بها بعض لوازم السباحة، ثم توجه إلى المسبح. سأل في مصلحة الاستقبالات عن صاحب الفندق فلم يجده هناك، لكنه وجد ترحيبًا من موظف الاستقبال. دله على المسبح، ثم أعد له طاولة خاصة ومظلة. شكره عبدو على حسن الضيافة، ثم فتح حاسوبه النقال. كان المسبح ما زال فارغًا حيث أن أغلب زبائن الفندق كانوا ما زالوا لم يستفيقوا بعد. كان هناك فقط سائح أجنبي عجوز مع رفيقته يتناولان طعام الإفطار. لقد كان الجو ملائمًا للكتابة. فتح صفحة الوورد، قرأ ما سبق أن كتبه بخصوص قصة "أريناس" و"يوبا"، فوجد بأنه وجد أخيرًا خيطًا ناظمًا يمكنه أن يتبعه ليكتب رواية. لقد توقف عندما أحس يوبا بتصدع في بنائه الداخلي وبدأ يتساءل عن جدوى وجوده في الحياة وفرط اعتياديته التي تشبه اعتيادية الموتى.

عندما عاد إلى منزله مساءً، أخرج بطاقة الزيارة من جيب سترته. كان اللون الأحمر الفاتح يغلب على خلفيتها فيما تتوسطها بقعة سوداء كأنها أثر موجة ثائرة. بقي يتأمل البطاقة بعض الوقت، ثم قرأ ما عليها: أريناس سيدي أوحمو الطالب. ذكّره هذا الاسم بشاعر أمازيغي يعتبره الأمازيغ بمثابة هوميروس الشعر الأمازيغي. قلب البطاقة فقرأ خلفها "مرسم أفروديت"، شارع الحرية. رقم ١١٢، مع رقم هاتف المَرسم.

بعد ذلك نزع يوبا سترته ثم توجه إلى الحمام كي يزيل عن نفسه إثر إعياء اليوم، ملأ حوض الاستحمام بالماء الساخن ثم استلقى بداخله وأغمض عينيه. تزاحمت في رأسه صور شتى من الطفولة، وتذكر عندما كان يرسم داخل الحصة الدراسية في سلك الرابع ابتدائي بينما كان المعلم يشرح الدرس. انغمس ليرسم شجرة ساحة المدرسة، وتخيلها طفلة تتفرع من رأسها وأطرافها الأغصان، ثم رسم وجهها على هيئة

شمس. بقي يتأملها مبتسمًا وهو غارق في خيالاته الطفولية، ولم ينتبه في غمرة انغماسه لصوت المعلم يطلب منه أن يتم قراءة المقطع القرآني حيث توقف زميله. لكزه جليسه في الطاولة فانتبه ورفع ناظريه لكنه عندما رأى نظرات التلاميذ متوجهة صوبه في تخابث طفولي ارتبك واحمرت وجنتاه، حاول زميله أن يساعده وهو يشير خلسة إلى نهاية المقطع الذي توقف عنده تلميذ القسم لكن المعلم حدجه بنظرة صارمة ثم نهره، وتوجه توًّا إلى حيث يجلس يوبا واقترب من طاولته. ارتبك، ثم أراد أن يخفي ورقة الرسم لكن المعلم كان أسرع منه إذ خطفها منه بسرعة ثم فتحها وبدأ يضحك بكل سخرية وهو يفردها بيديه الاثنتين في الهواء كي يراها كل من في القسم:

- انظروا ماذا يفعل، إنه يرسم لكي يطرد الملائكة من القسم. ماذا يرسم؟ أهذه شجرة أم طفلة أم شمس؟ ما هذا الغباء الذي يجعل تلميذًا يُعرِض عن كتاب الله لكي يخربش مثل هذه الخربشات؟

ارتبك يوبا واحمرت وجنتاه وود لو تنشق الأرض لتبتلعه، لكن المعلم عاجله عندما طلب من التلاميذ أن يحملوه إليه مقيدًا. تطوع شقي القسم وقويه فحملوه إليه ثم ثبتوه فوق مكتب المعلم. عدل المعلم من وضع نظارتيه المقعر زجاجهما وانتفخت أوداجه كديك يغالب الكساح، ثم تناول قضيبه البري الأثير كي يناوله علقة ساخنة لم يجد بمثلها الزمن التربوي. كان المعلم حليق اللحية لكنه كان يملك قلبًا مزغبًا يمنعه زغبه من أن يرى جمال الله فيما كان يرسم. بدأ يهوي عليه بالقضيب البري حتى أصيب بالإغماء من فرط الألم. بعد ذلك أمر المعلم تلميذًا يجلس في الطاولة الأولى بأن يسرع إلى المرحاض كي يأتيهم بسطل ماء بارد ليسكبوه عليه حتى يستفيق من إغمائه.

عندما فتح يوبا عينيه وجد تلاميذ القسم متحلقين حوله يتوسطهم رأس المعلم الذي بدا له في تلك اللحظة كملك الموت. شيئًا فشيئًا بدأ يتبين ملامحه ويسمع صوته وهو يقول له: في المرة القادمة سأنزع عنك جلدك لو وجدتك تخربش في حصة الدرس. "وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ". أرأيت؟ عندما لم تنصت حلت عليك اللعنة. ثم بدأ يقهقه حتى بدت أسنانه الصفراء وانبعثت من فمه رائحة كريهة أصابته بالدوار فتمنى أن يعود إلى غيبوبته مرة أخرى. ومن يومها كره المعلم والقرآن وكره معهما فن الرسم.

في الغد راودته فكرة زيارة المرسم عندما كان يحتسي قهوة فترة بعد الزوال. فكر أن يسألها إن كانت موجودة بالمرسم، لكنه عدل عن الفكرة وقرر أن يذهب بدون سابق موعد. عندما وصل إلى تقاطع شارع الحرية مع شارع المقاومة التقى بها مصادفة بعد خروجها من المرسم. لم تكن تتوقع أن يزورها بمثل هذه السرعة لذلك بادرته قائلة:

- يبدو أنك تعشق فن الرسم.

أجابها:

- لدي رغبة طفولية مسجونة داخل قفص ويلزمني أن أحررها.

ابتسمت أريناس ودعته إلى زيارة مرسمها. كان المرسم يوجد في الطابق الثاني على الشارع الرئيسي، ويلزمك أن تصعد أدراجًا لولبية مصبوغة باللون السماوي كي تصل إليه. عندما دخل المرسم وجد لوحة فوق المسند وقد شارفت على إتمامها. سألته عن رأيه فيها، فأجاب:

- أحببت هذه اللوحة الملقاة على الأرض. لم تكن لوحة بل مجرد قطعة خشبية تنجز فيها خلطة الألوان.
- يا لك من مجنووون. فعلا.... لم أنتبه للأمر. إنها تصلح لكي تكون عملًا فنيًا.

سألها:

- هل لي أن أجرب لمستي؟

أجابته:

- بكل تأكيد.

ثم أفردت قطعة قماش فوق الأرض وأعطته ريشة وألوانًا مائية. تناول منها الريشة ثم وضع لمسته الأولى. لم يكن يعلم بأن اللمسة الأولى قاتلة في فن الرسم. كانت لمسة ثائرة منتفضة تود لو تحلق في الهواء من فرط خفتها وحركيتها. فاجأتها لمسته لذلك سألته:

- هل سبق لك أن تلقيت دروسًا في فن الرسم؟

أجابها بالنفي. ثم بعد ذلك سألها:

- كيف تجدين لمستي؟

أجابته:

- لمستك أصيلة لم تشوهها التقنية.

رفع نظره إليها ثم صمت للحظات فشجعته على مواصلة الرسم. تردد للحظة لكنها ابتسمت له ابتسامة أمومية دافئة. فتناول الريشة من جديد ثم قرر أن يكمل رسم شجرة ساحة المدرسة. انغمس في الرسم حتى نسي نفسه. أما هي فتوجهت إلى حاسوبها المحمول وشغّلت موسيقى سعاد ماسي[21]، وعلى وقع كلمات "يالراوي احكي لي حكاية" أكملَ رسم الشجرة. عندما انتهى رفع أعينه إليها يسألها رأيها كطفل صغير انتهى للتوّ من رسم

---

[21] سعاد ماسي: مغنية وعازفة غيتار وكاتبة أغاني جزائرية، أصلها من منطقة "القبايل". معظم أغانيها بلهجة الجزائر العاصمة بالإضافة إلى الأمازيغية "القبايلية" والفرنسية.

لوحته الأولى. تقدمت إلى قطعة القماش ثم علقتها فوق المسند وقالت له: عندما نمرر الريشة فوق قطعة القماش تلزمنا لمسة واحدة لا نعود بعدها حيث مررنا، لا مجال للتراجع أمام إحساس عارض انتابنا فتحول إلى لمسة فوق قطعة قماش. إننا لا نعيد تعديل اللمسة وإلا أفقدنا اللوحة فرادتها. عندما تمر فلا تعد أبدًا حيث أسقطت لمستك. كما الحياة... لا تقبل الرجوع إلى الوراء. تأمل طويلًا هذا التشابه الشديد بين لمسة الرسم ولمسة الحياة. حقًا إننا نفسد الحياة عندما نريد تعديل اللمسة. فحتى الخطأ له لمسته، لذلك يلزمنا في بعض الأحيان ألا نسعى إلى تصحيح أخطائنا، فجمالية الحياة أنها تكتمل بنواقصها. تعلم بعض التقنيات الأساسية البسيطة سيسمح لك بالتعبير بكل حرية قالت له. ناولها الريشة فبدأت تلقنه أول دروس فن الرسم.

أحسّ عبدو ببعض النشوة عندما وصل إلى هذا المقطع، إذ وجد بأنه استطاع أن يسترسل في الكتابة بسلاسة هذه المرة، كما استطاع الربط بين الرغبات المكتوبة لشخصية "يوبا" وحاضرها، حيث جعل فكرة ذهابه إلى المرسم غير مفتعلة، لأنه كان في تلك اللحظة تحت تأثير عقله اللاواعي، مما يمكن أن يبرر أي تطور للعلاقة بينهما ويجعل القارئ يحتار في الحكم عليه أو محاكمته. كان ما كتبه يستحق أن يكافئ نفسه عليه، لذلك غطس في المسبح وظلّ مستلقيًا على ظهره بعض الوقت، وهو يستمتع بالشمس التي تستحم فوق جسده. بعد ذلك قطع المسبح سباحة جيئة وذهابًا، ثم توجه إلى طاولته وأخذ منشفة، نشف جسده، واستلقى تحت الشمس ونام لبعض الوقت.

(٢)

بعدما استفاق كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة بعد الظهر، تذكر موعده مع حمامات الرمل، لذلك جمع أغراضه بسرعة، وشكر موظف الاستقبالات على حسن الضيافة ثم انصرف.

عندما دخل إلى فندق تافيلالت وجد صاحب الفندق ينتظره بمصلحة الاستقبالات، لقد كان ينتظره لكي يعرفه على "إيدير"، الشاب الذي سيتكلف بدفنه في الرمال. كان شابًا في العشرينيات من عمره، ضعيف البنية، يعرج عرجًا خفيفًا وعندما يتحدث تتحرك شفتاه بطريقة غير متناسقة، لكنه كان طيبًا ويضحك طيلة الوقت. سأله إن أحضر معه بطانية كي يلف نفسه بها بعد حمام الرمل. أجابه عبدو بأنه لم يشترها بعد. فاقترح عليه "إيدير" أن يقتني منه بطانية كان قد أحضرها لزبون لكنه غير الفندق في آخر لحظة.

اشترى منه البطانية، ثم تفاوض معه على ثمن حصص حمامات الرمل، وبعد ذلك تبعه إلى إحدى الهضاب الرملية كي يواجه مصيره هناك.

كان الجو حارًا بعدما وصلت درجة الحرارة إلى حدود خمس وأربعين درجة مئوية، لدرجة أنه كان يرى خيالات ترقص فوق كثبان الرمل الصحراوية. عندما وصل إلى مكان الدفن، وجد هناك مجموعة من الزبائن لا تبدو منهم إلا رؤوسهم وقد غاصوا بكامل جسدهم وسط الرمل. كان الأمر يشبه مقبرة يدفن فيها الناس أحياء.

تناول إيدير معولًا وبدأ يحفر، سأله عبدو إن كانت هناك أفاعي أو عقارب تتجول بالمكان، فأجابه بأن العقارب والأفاعي بدورها تخشى البشر، لذلك فهي تبتعد عن الأماكن التي تكثر فيها حركة الناس داخل

الصحراء. عندما انتهى إيدير من الحفر طلب منه أن يستلقي داخل الحفرة، جلس عبدو بداخلها فأحس بالنار تشتعل بجسده من فرط حرارة الرمل، نهض من مكانه بسرعة ولم يستطع أن يكمل العملية، لكن إيدير طمأنه وأسكن مخاوفه عندما أكد له أن رمال الصحراء رغم شدة حرارتها فهي لا تحرق الجسد. إنها فقط تخزن الطاقة التي تستمدها من الشمس وتلك الطاقة يمتصها الجسد بدون أن تترك أي أثر. ثم طلب منه أن يصبر قليلا فقط لأن جسده عندما سيتعود سيفقد الإحساس بشدة الحرارة. بقي مترددًا بعض الوقت لكن إيدير أكد له أن هذه هي الطريقة الوحيدة كي يتخلص من آلامه، ثم حكى له عن العديد ممن قدموا محمولين فوق كراسي متحركة بفعل فقدانهم القدرة على الحركة، لكنهم عادوا بعد ذلك على أقدامهم. أحس بنبرة الصدق في صوت إيدير لذلك تشجع وقبل المغامرة. قال له مازحًا:

- كان عليهم تسميتك "عزرائيل" هههه.

فأجابه إيدير ضاحكًا:

- اسكت. فربما يسمعك ويقبض روحك داخل هذه الحفرة.
- لا أظنه سيفعل ذلك الآن، لأن أمثالي يعمرون وينكسون في الخلق حتى يظلوا عبرة للآخرين. هههه.

استلقى وسط الحفرة الرملية، وقاوم اللهب المتطاير من حبات الرمل الملتهبة، كان قلبه يدق بأقصى سرعة بفعل الحرارة التي تلف جسده مع كل حفنة من الرمل الساخن يلقيها فوق جسده ليردم الحفرة. تسارعت دقات قلبه وأحس بالدوار، الحرارة لا تقاوم والدم يتحرك بسرعة داخل شراييه ويتدفق يريد أن ينفجر خارجًا. بقي فقط رأسه في العراء لذلك وضع إيدير فوقه شالًا صحراويًا يرتديه رُحّل الصحراء بمثابة لثام.

أحس عبدو بأن نهايته اقتربت ولم يدر ماذا يفعل، حاول أن ينتفض لكن الرمل كان ثقيلًا فوقه، يشبه الأمر حالة الميت داخل قبر. استسلم أخيرًا واعتبر بأنه ينال حقه مسبقًا من عذاب جهنم والقبر. إن كان ما يعيشه قطعة صغيرة من جهنم فكيف ستكون جهنم الحقيقية؟ وهل توجد جهنم أصلًا أكبر من جهنم الأرضية التي نكتوي بنار غدرها عندما تخذلنا صحتنا أو يخذلنا الأحباء والأصدقاء؟ هكذا ردد بينه وبين نفسه وهو يحاول أن يسافر بعيدًا بأفكاره لكي ينسى حرارة القبر الذي اختاره بنفسه لنفسه. قلبه يكاد ينفجر من فرط سرعة دقاته، والعرق يتصبب من جسده بدون توقف فيرطب الرمل داخل الحفرة.

كان إيدير يحمل بيده قنينة ماء ويعطيه لكي يشرب بين كل لحظة وحين، كان يمنحه له عبر جرعات. شيئا فشيئا بدأ يتعود على حرارة القبر، فأغمض عينيه قليلا وهو يستمع لدقات قلبه المتسارعة وحركية الدم الذي يدور دون توقف داخل شراييه. كان يحس بكل ذلك. لقد تجاوز المرحلة الصعبة ويمكنه الآن أن يغمض عينيه قليلا. سيتخيل بأنه في حمام "الصاونا" برفقة امرأة جميلة تدلكه. تخيلها سمراء من عمق إفريقيا، واشتم رائحة البخور وهي تداعب خياشيمه. ويبدو أن الحيلة قد انطلت عليه هذه المرة فقد أحس بانتصاب ذكورته. في غمرة نشوته قطع عليه "إيدير" تخيلاته معلنا انتهاء الحصة الزوالية من حمام الرمل. اللعنة عليك حفار القبر لا تأبه لجمالية أحلامنا لذلك تصر أن تدهسها بمعولك.

بدأ إيدير يرفع عنه الرمل المتراكم حول جسده شيئا فشيئا، ثم لفه ببطانية. وبعد ذلك قاده إلى غرفته الملتهبة. عندما دخل إلى الغرفة أراد أن ينزع عنه البطانية من شدة الحر الذي يخنقه، لكن إيدير نهره قائلا:

- إذا ما أردت نزعها أخبرني لكي أطلب سيارة الإسعاف.
- اللعنة عليك، تستمتع بتعذيبي كما يفعل حراس جهنم غلاظ الأجساد.

ضحك إيدير وهو يقول:

- ظللت طيلة حياتك تمارس النزق وانتهيت بين يدي، سأجعلك تؤدي جزاء ما تقدم من نزقك وما تأخر. هههههه.
- اللعنة عليك مرة أخرى. أتمنى أن تدهسك سيارة فتصيب كامل أطرافك بالشلل فلا تترك لك إلا لسانك السليط. هههههه.
- وأنا أتمنى أن تدهسك ويُشَلَّ فقط لسانك كي لا تستطيع ردًا لسخريتي. هههههه.

بعد ذلك خرج إيدير وتركه في جحيم آخر هذه المرة. كانت الغرفة حارة، أما البطانية القطنية التي تلفه فقد كانت تجعله يحس باشتعال في كامل جسده. عاد إيدير إلى الغرفة ثم ناوله شايًا بالأعشاب الصحراوية. تناول الشاي، فزاد جسده اشتعالًا، لقد كان مصنوعًا من الأعشاب التي تستعمل لمداواة نزلات البرد. صرخ عبدو بأعلى صوته محتجًا:

- أيها اللعين، تريد أن تمعن في التنكيل بي.

لكن إيدير أجابه بكل هدوء هذه المرة:

- بعض الدواء كالكي، لا يشفيك إلا بعدما ينكل بك. إذا ما تعاظم ألمك ردد فقط: رب، مسني الضر وأنت أرحم الراحمين.

أحس عبدو بالراحة وهو يستمع لدعاء أيوب بلكنة إيدير الأمازيغية. أما عندما تركه لوحده فقد استسلم وحلت السكينة مكان تبرمه. وبعد ساعة عاد إيدير وساعده على نزع البطانية التي تلف جسده، ثم دله على الحمام من أجل التخلص من الرمال المبتلة التي تلتصق بجسده. استسلم لحمام دافئ وأحس بانتعاشة لم سبق له أن أحس بها منذ مدة طويلة. وعندما خرج من الحمام أحس بطاقة

جديدة تغمره، فلقد منحته الشمس بعضًا من أسرارها المخزنة وأعطته أملًا جديدًا.

خرج إلى باحة الفندق وجلس هناك، أتى النادل فطلب منه طعام الغداء. كان في أوج نشوته، لذلك ردد بينه وبين نفسه: تزوجتك أيتها الحياة. في تلك اللحظة بالذات التي كان يردد فيها هذه الجملة تغوط طائر فوقه فتساقط برازه فوق كفه اليسرى. رفع عينيه إلى فوق، فوجده، كان يستظل داخل حفرة في جدار الباحة. تذكر ما كانت تقوله له أمه في طفولته عن براز الطيور المبارك الذي يعد بالبركة والرزق. تأمل البراز فوق كفه فوجده كثيراً. لذلك ضحك وهو يقول لنفسه: ينتظرك رزق وفير أيها الشقي. هههههه.

أقبل النادل وهو يحمل طبق سلطة خضر متنوعة، وضعه على الطاولة ثم استفسره عما يريد كطبق رئيسي. سأله عبدو عن الاختيارات المتاحة فأجابه بأن هناك أنواعًا مختلفة من الطاجين، بالدجاج أو لحم الغنم أو لحم الإبل، بالإضافة إلى الكسكس وأكلة "الطنجية" باللحم، وأقدام البقر المطبوخة على الجمر. طلب منه طاجين لحم الإبل. كانت الساعة تشير إلى الثالثة مساء، لذلك فكر بينه وبين نفسه في برنامج الفترة ما بعد الزوالية. بعدما انتهى من تناول طعام الغداء، انتابته رغبة عارمة في الكتابة، لذلك طلب فنجان قهوة ثم ذهب إلى الغرفة وأخذ حاسوبه المحمول وعاد إلى باحة الفندق ثم بدأ يكمل كتابة الرواية

(٣)

بعد انتهائه من إلقاء محاضرته داخل الكلية توجه يوبا إلى مكتبه. كان يلزمه أن يكمل دراسة علمية حول خصوصيات الأدب المغربي

الحديث. كان يجد بعض الروايات موضوع البحث متكلفة في توظيفها لبعض تقنيات الكتابة الحديثة، حيث تتجاور الأساليب بتوجيه واع من الكاتب الذي قرر إعطاءها قالبًا معينا قبل البدء. إنه لا يترك عمله الأدبي يختار الشكل الذي أراده لنفسه بنفسه، لذلك نجد كثيرًا من المطبات الهوائية أثناء كتابتها فلا يكون الانتقال بسلاسة من جنس أدبي إلى آخر. بالمقابل، فقد وجد في بعض نماذج الأدب المغربي المكتوب بالفرنسية هذه السلاسة المفتقدة. ربما من يكتبون بالفرنسية لديهم تمرس جمالي أكبر بهذه التقنيات الأدبية، لذلك ترسخت قواعدها في لاوعيهم وأصبحت تتسلل بطريقة في غفلة عن الكاتب. أليس الأدب تسلية تتسلل من خلالها المعرفة؟ هكذا تساءل يوبا. أكمل البحث بعدما ترك باب المكتب مواربًا بعض الشيء، مرت لحظات وسمع طرقا في الباب:

- تفضل.

كان "عمي إبراهيم" مستخدم مقصف نادي الأساتذة داخل الكلية. تقدم ووضع كأس القهوة فوق مكتبه. وقبل أن يغادر نادى عليه وقال له: تفضل هذا الظرف. أخذ منه عمي إبراهيم الظرف وهو يشكره ويدعو معه لأنه ساعده على فك ضائقته المالية خصوصًا أن العيد الكبير قد شارف ويلزمه أن يشتري خروف العيد.

بعدما خرج عمي إبراهيم حاول أن يكمل المقالة لكنه وجد نفسه مشتت الذهن. عادت به أفكاره إلى المرسم وتذكر الشجرة. اتصل بزوجته لكي يطمئن عليها فأخبرته أنها ستتأخر بعض الشيء لأن لديها اجتماعا مع بعض أعضاء منظمة هولندية غير حكومية تشتغل في مجال حقوق الأقليات. انتابته رغبة في زيارة مرسم "أفروديت" مرة ثانية لكنه

قاوم رغبته بعض الوقت. أشعل سيجارة ثم توجه إلى النافذة وبدأ يتأمل السجال الدائر داخل حلقيات الطلبة.

لقد كانت الساحة الطلابية تعرف غليانا غير مسبوق بسبب حرب غزة، فصيل من الطلبة الأصوليين يتعاطفون مع حركة حماس، وفصيل أمازيغي يرى بأن الصراع الدائر لا يعنيه في شيء، وأن الاضطهاد الذي يتعرض له الأمازيغ هو قضيته المركزية. أما فصيل اليسار فقد كان يرى أن القضية الفلسطينية قضية وطنية، لكنه يختلف مع الأصوليين ولا يريد أن يتعاطف مع القضية من منطق ديني، وإنما من منطق إنساني يرفض اضطهاد الشعوب. وكانت المشاحنات على أشدها بين كل الفصائل الطلابية. ابتسم في قرارة نفسه حينما تذكر اندفاعه أيام شبابه الأول، عندما كان يصول ويجول في مجال الخطابة داخل النقاشات الدائرة بين الطلبة آنذاك في عز الصراع بين المعسكرين الشرقي والغربي. تذكر مفهوم "العنف الثوري" أيام كان يواجه بعض طلبة اليسار من يختلفون معهم باللجوء إلى العنف وتبريره. تذكر أيضًا يوم انسحب من اليسار، كان يتحدث داخل الحلقية عن ضرورة أن نمنح الطالب الحق في الاختيار. كان الرفاق حينها ينظمون أسبوعًا ثقافيًا داخل الكلية، أقاموا معرضًا للكتب يعرضون فيه كتب المهدي عامل، والرأسمال لكارل ماركس، والروايات الروسية فقط، مع دواوين سميح القاسم وأشعار محمود درويش التي تتغنى بالثورة والثوار. أما الأمسية الختامية فتم تخصيصها للأغنية الملتزمة وأغاني الشيخ إمام ومرسيل خليفة، وبعض أغاني فيروز. خرج محتجا من الأمسية، تبعه بعض الطلبة ففتح معهم حلقية حول الحق في الاختيار، فكما نتيح للطالب أن يستمع لأغاني الشيخ إمام فيجب أن نعطيه الحق في أن يستمع أيضًا للطرب الأندلسي

وفن العيطة[٢٢] ومختلف الأغاني الشعبية التي تتغنى بالحب والجمال والشبق. اعتبره الطلبة رجعيًا ومخزنيًا لأنه يكرس موسيقى الطرب الأندلسي التي تمثل موسيقى المخزن يبثها أثناء المناسبات الدينية والوطنية، أما العيطة والموسيقى الشعبية فكانوا يرون فيهما إسفافًا وميوعة لا تليق بمناضل ملتزم. أجابهم:

- ضعوها جنبًا إلى جنب مع الأغنية الملتزمة، ودعوا الطالب يختار.

تعالت أصوات الطلبة المتشددين في الفصيل:

- أنت رجعي.

أجابهم:

- ليست هناك رجعية إلا تلك التي تصادر الحق في الاختيار.

ثم انسحب بعد ذلك من فصيل اليسار.

رن هاتفه المحمول ليجد "أريناس" على الطرف الآخر. كان صوتها منكسرًا بعض الشيء هذه المرة. قالت له:

- أرأيت حجم الخراب الذي تساق إليه الإنسانية بفعل فكرة مقدسة؟

أجابها:

---

[22] العيطة: فن مغربي قديم ظهر منذ عصور سلاطين المغرب، لكنه تبلور بقوة أثناء فترة الاستعمار كنوع من المقاومة ضد المحتل. ولقد كان يعتمد على أشعار تحمل معاني مشفرة لا يفهمها إلا المقاومون وأصحاب الأرض. ولقد أصبحت فرعًا أساسيًا من فروع الموسيقى المغربية عمومًا، والموسيقى الشعبية المغربية خصوصًا. كما تعتبر كذلك فنًا أصيلًا ضاربًا في جذور التراث الشعبي والثقافة المغربيين، حيث يستقي شيوخ القبائل مواضيعهم من الحياة الاجتماعية للإنسان المغربي، وغالبا ما تتناول قصائدهم مواضيع عن العشق والمتعة والذم والتغني بالجمال وبالطبيعة.

- المقدس شريعة المنهزمين.
- كيف؟
- إنهم لن يستردوا حقهم المسلوب ما لم يعتبروه حقًا مقدسًا.
- ولكنه مقدس أيضًا بالنسبة للمنتصرين... فهم فقط استردوا أرضهم التي تتحدث عنها كتبهم المقدسة.
- إن أصل المشكلة ديني ولن يتم حله إلا إذا انتصرت الإنسانية على الأديان.

صمت يوبا بعدها للحظة ثم أضاف:

- ليس هناك حل سياسي للصراع خارج النصوص المقدسة.

أجابته أريناس:

- بل يوجد الحل خارج النصوص المقدسة.
- كيف؟
- عندما تصبح الإنسانية القيمة المقدسة الوحيدة.
- الإنسانية... مفهوم ملتبس، ومغرق في مثاليته. إن العالم تتحكم فيه المصالح... وهي أوضح وأكثر إغراء.
- لا يمكن للإنسانية أن تهزم المصلحة إلا عن طريق المحبة... محبة الإنسان لأنه إنسان، بعيدًا عن كل مصلحة ذاتية أو نزعة قومية وعرقية. إن المحبة يمكنها أن تجعل من الإنسانية قيمة مقدسة.

سألها يوبا:

- وماذا تفعل بك أنت المحبة؟

ضحكت أريناس فترددت رنة ضحكها كنوتة موسيقية، ثم قالت له:

- تريد الاطلاع على نشرتي النفسية إذن.
- بل أحب اللعب بأوراق مكشوفة.

- وأنا أقبل لعبة التعري أمامك.

صمت برهة وهو يخمن في نفسه شكل هذا التعري، لكنها لم تترك له متعة سيناريو التخمينات فقد صوبت نحوه رصاصاتها البلاغية كمحترفة للقتل الرحيم:

- توجد بداخلي منطقة حرة من الاحتمالات اللانهائية، ولا يتحقق منها إلا ما أوحى به الحدس في اللحظة والمكان، فأنا أعشق الرقص على حافة الهاوية.

(٤)

عندما وصل عبدو إلى هذا الجزء من روايته كانت الشمس تقترب من المغيب. في الأفق مجموعة من الجمال في وضعية الجلوس وراءها تلال صفراء مائلة قليلًا إلى الحمرة. كان المنظر ساحرًا، فقد مال لون الأفق إلى البرتقالي وشكل مع لون التلال لوحة تشكيلية تؤكد بالملموس أن وراءها مصورًا خبيرًا يرسم فوق صفحة الأفق ويتحكم بطريقة معجزة في تدرج الألوان. تذكر أنه في غمرة انغماسه في الكتابة نسي أن يدخن لفافته الأثيرة، كما أحس أن الألم قد خفت حدته وأصبح محتملا.

قدمت جماعة من السياح إلى الفندق، كانوا يتحدثون الإيطالية، رجلان، وثلاث نساء. خمن أنهم طلبة بحكم حداثة سنهم. كانوا يساومون سائس الجمال حول ثمن جولة في الصحراء وقضاء ليلة داخل الواحة. وجد أن الفكرة مغرية، ففكر في الانضمام إليهم. توجه إلى موظف الاستقبالات وسأله عن إمكانية أن ينضم إلى الرحلة. أجابه موظف الفندق بأن هذه الإمكانية متاحة، وبما أنه ينزل في فندقهم فبإمكانه أن يستفيد من تخفيض حتى حدود خمسين بالمائة من ثمن الرحلة. وجد الثمن مناسبا فاتخذ قراره.

دخل إلى غرفته وجمع بعض الأغراض البسيطة، ثم طلب قارورة ماء معدني مثلجة، واتجه إلى موضع بداية الرحلة. دله السائس على الجمل الذي سيركبه، وساعده على ركوبه، ثم انطلقوا جميعا. كان الإيطاليون في المقدمة، بينما ظل هو في المؤخرة. وكانت الشمس تترنح مائلة إلى المغيب في لحظاتها الأخيرة كجمرة ستنطفئ داخل فوهة بركان، أما الكثبان الرملية فكانت تشكل مجموعة من التلال. شيئا فشيئا، بدأت معالم المدينة الصحراوية تغيب في الأفق، وبدأ الظلام يخيم على المكان. فكر بينه وبين نفسه: كيف لا يتيهون وسط الصحراء؟ كانوا ثلاثة من الشبان الذين ينتمون إلى قبائل الرحل. أحدهم في المقدمة، والثاني في الوسط، والآخر في المؤخرة.

أشعلوا مصابيح يدوية ثم واصلوا المسير. أحس عبدو ببعض الملل، لذلك أراد أن يكسره بأية طريقة. كانت حركة الجمل تحدث وخزا بين فخده فأحس ببعض الألم، لذلك فكر في طريقة من أجل تناسيه. وبدون أن يطيل التفكير كثيرا، بدأ يردد قصائد من الشعر العربي القديم. تخيل نفسه المتنبي وهو يمخر عباب الصحراء قائلا: الخيل والليل والبيداء تعرفني*** والسيف والرمح والقرطاس والقلم. ثم بدأ يغني هذا المقطع الشعري بطريقة أوبرالية جعلت إحدى الإيطاليات تستدير ثم تنفجر ضاحكة. كانت مليحة وشعرها كستنائي، أما عيونها فكانت عسلية لذلك وجد أن جمالها أقرب إلى جمال العرب. لقد كانت مكتنزة ووجهها مستديرا. أحب هذا التجاوب من طرفها، ولذلك شرع في المزج بين اللحن الكناوي والغناء الأوبرالي مما جعل باقي الإيطاليين يستديرون ناحيته. كان يرتجل كل ذلك، ويمتح مما تلقفت ذاكرته. لكن الأمر بدا مسليا بالنسبة لهم. فجأة، تكلمت صاحبة الشعر الكستنائي وقالت له:

- رااااائع. نطقتها بعربية سليمة.
- أتعرفين العربية؟

سألها بنبرة يختلط فيها الاستغراب بالدهشة.

- أعيش بإيطاليا، لكنني ازددت وقضيت فترة من حياتي داخل الريف المغربي.
- ولكن لغتك العربية فصيحة مع أنك أمازيغية وعشت بعد ذلك بإيطاليا.
- لقد درست اللغة العربية في سوريا أثناء إنجاز أطروحة الدراسات العليا المعمقة حول ظاهرة الصعاليك في الأدب العربي.
- آآآآه... أنت من عشاق تأبط شرا. هههههه
- بل من عشاق عروة بن الورد، روبن هود العرب.

كان باقي الإيطاليين يتابعون المحادثة باهتمام رغم أنهم لم يكونوا يفقهون اللغة، لكنهم أحسوا بأن حبل التواصل يمر سلسا بينهما. سألها عبدو:

- لديك ميول يسارية إذن.

أجابته:

- بل ميول إنسانية تتعالى على كل إيديولوجية ضيقة.

رغم الظلام الذي كان يحجب عنه ملامحها فقد كان يحس بفيض صدقها، بينما عطرها يتطاير فتحمله إليه نسائم الصحراء. أحس كما لو أنه قد عرفها في حياة سابقة، وأراد أن يتعرف عليها أكثر، لكنه فضل أن يصمت قليلا في انتظار أن تأخذ هي مبادرة الحديث بنفسها هذه المرة. لم تتركه يغرق في صمته طويلا فقد بادرته قائلة:

- ما اسمك؟

باغته سؤالها المباشر الذي يكشف رغبتها في التعرف عليه، لم يكن يتوقع منها هذه الغارة التواصلية، لذلك أراد أن يورطها أكثر:

- أي اسم تجدينه يليق بي؟

أجابته:

- مایاس.
- مایاس؟ هممم... ولماذا اخترت هذا الاسم بالضبط؟
- لأنه يطلق على الفهد في الأمازيغية، وأنت تشبهه بكل بساطة.

أعجبه الاسم فتأمله للحظات ثم قال لها:

- سأطلقه على إحدى شخصياتي الروائية. مایاس... أو الفهد الصياد.

أكملت كلامه قائلة:

- ويلزمه أن يشبه اسمه، أتخيله محترفا للغواية. هههه.

أحس كما لو أن هذه الإيطالية ذات الجذور المغربية تتكلم بدون كوابح، وهي تستهدفه هذه المرة. لذلك، استعمل معها تقنية الجودو وهو يقول لها:

- حتما...سيكون شاعرا، يقول ما لا يفعل فيسقط في حبائله الغاوون. هههه.

أحبت ردة فعله وحسه الساخر، وأحست بحميمية معه كأنها تعرفه منذ زمن بعيد. لكنها لم تكن حرة بل كانت مرتبطة بعلاقة مع كوسطانطينو الذي يرافقها في رحلتها. سألها "عبدو":

- ما اسمك؟

أجابته:

- مايا.

وبدون أن يترك مساحة من الصمت عاجلها قائلا:

- اسم قبيلة وحضارة انقرضت في المكسيك.

- نعم... وربما أنا أيضًا من فصيلة نسائية مهددة بالانقراض. ههه.

في تلك اللحظة بالذات اقترب منها كوسطانطينو وحادثها باللغة الإيطالية. لم يفهم عبدو ما دار بينهما، لكنه أحس بأن خليلها أحس ببعض الغيرة لأنها أجابته بطريقة متبرمة. ثم ساد الصمت طويلا بعد ذلك.

كانت القافلة على مشارف الواحة، لذلك استسلم عبدو للصمت وهو يتأمل جمالية المكان. كانت هناك بعض الخيام المنصوبة هناك، وفي الوسط شموع رصت بشكل حلزوني، ثم بعض الزرابي الأمازيغية، وبعض الآلات الموسيقية. داخل إحدى الخيام كانت هناك طاولات طويلة وقد رصت فوقها مختلف أصناف الطعام. قادهم سائس القافلة نحو مكان الجلوس حول الشموع المتناثرة في الوسط، ثم أشعلها واحدة واحدة. كان المنظر ساحرا، خصوصا عندما يرفع المرء أعينه إلى السماء فتبدو النجوم متناثرة كثريات بادية بكامل الوضوح. كان مثلث الصيف يبدو واضحا جهة الشرق، وهو يتكون من ثلاثة نجوم: نجم "فيجا"، ونجم "ألتير"، ونجم "دينيب"، لقد كان المثلث أكثر النجوم بريقا ولمعانا، وكان يبدو أقربها إلى الواحة. بالقرب من نجم فيجا كان سديم الحلقة باديا للعيان، لقد كان يظهر على شكل بقعة حولها هالة في السماء . إنه عبارة عن هالة من الغاز الملتهب الذي سوف يلتئم مع الوقت ليكون نجما جديدا. لقد كان المنظر مذهلا لدرجة أن الإيطاليين ظلوا مسمرين مدة طويلة وأعينهم معلقة في السماء. أحس عبدو أن المنظر يستحق أن يقطع من أجله تذكرة سفر، لذلك أخرج عدته وبدأ بلف سيجارة

محشوة بالحشيش. بعدما أشعلها، انبعثت رائحتها الزكية في الهواء، فداعبت خياشيم الإيطاليين وجعلتهم يقطعون تأملاتهم ويهمسون فيما بينهم. استفسرته مايا بخصوص المكان الذي اشترى منه الحشيش، لأن رفاقها يودون شراء حصة منه. فأجابها بأنه اقتناه من بلدته الأصلية، تاملالت، بشمال المغرب. فهناك فقط تزرع أجود أنواع الحشيش. خسارة، قالت له مايا. لكنه لم يتركها لحسرتها طويلا، فقد فتح علبة سجائره، وأخرج منها قطعة كبيرة من الحشيش، قسمها نصفين، ثم أعطاها نصفا واحتفظ بالنصف الثاني.

- هذا كثير. لم تترك لنفسك ما يكفي.

- في ثقافتنا نقتسم الحشيش كما نقتسم الطعام. ما يكفي ليطعم شخصا يمكنه أن يطعم شخصين. فقط، يلزمنا أن نؤمن بهذه الفكرة.

- شكرًا . أحببت كرمك الحشيشي.هههه.

أضحكته فكرة الكرم الحشيشي، لذلك إمعانا في كرمه لف لفافة وأهداها لصديقها الإيطالي.

- تفضل.

- آآآه. كراتشي[٢٣]...

بعد ذلك قدم شباب قبائل الطوارق وأعدوا آلاتهم الموسيقية، ثم بدأوا بالعزف عليها والغناء. كان شعرهم مضفرًا على شكل جدائل تتطاير مع الريح في غمرة انغماسهم، وغنوا مقاطع شجية من أغاني أمازيغ الصحراء لم يفهم منها شيئا، لذلك توجه عند أصغرهم وكان شعره مصبوغا باللون الأشقر. استفسره بخصوص معاني ما يرددونه.

- تتحدث الأغنية عن دجاجة تحلم بالطيران.

---

[23] شكرًا.

أحب عبدو موضوع الأغنية ولذلك استفسر عنها أكثر. أجاب صاحب الشعر الأشقر:

- تتمرن الدجاجة كثيرا على الطيران. وعندما يتحقق حلمها وتطير يقتنصها صياد ببندقيته.
- ما هذه الأغاني التي تمنع على الإنسان حقه في الحلم؟

لم يفهم صاحب الشعر الأشقر العلاقة بين الدجاجة والحق في الحلم، فالدجاج لم يخلق أبدا للطيران، والحلم لا يكون مشروعا إلا عندما يكون قابلا للتحقق. هكذا أجابه صاحب الشعر الأشقر بحكمة فتيان الصحراء.

- دعنا من الشجن... سنغني أغنية كناوية تحتفي بحب الحياة.
- أتعرف الغناء؟
- لست مطربا، لكنني أغني ما يكفي لكي يبعث الحياة داخل جماعة من الشباب.
- تفضل.

سلمه الطبل الإفريقي فبدأ عبدو ينقر عليه وهو يغني:

- سعدي بالوالي جاني... وعماماتو خضرا... يا مولاي عبد القادر... فارس الحضرة.[٢٤]

كانت الأغنية احتفالية تبعث الفرح في كل من يستمع إليها، وكان يغنيها بطريقة مبتهجة كمن يمتن للحياة لأنها ما زالت تعطيه فرصا ليحياها من جديد. انفرجت أسارير مايا وهي تستمع إليه، ثم بدأت

---

[24] سعيد أنا بقدوم الشيخ الولي، معتمرا عمامته الخضراء، واسمه مولاي عبد القادر... إنه فارس الصحراء.

تتمايل راقصة. سحبها "كوسطانطينو" من يدها برفق ثم بدأ يرقص معها على أنغام الأغنية. كانت رقصتهما لاتينية تمزج بين الطانغو والسالسا، بينما إيقاع الأغنية كان كناويا، مما أضفى سحرا خاصا على العرض. نهض الإيطالي الثاني وسحب إيطالية خمرية اللون من يدها، ثم طوق خصرها، وبدأ يرقص وهو يصرخ:

- تشي أونا بيلا كانسوني ديسيرتو.[٢٥]

بقيت إيطالية شقراء لوحدها تتأمل المنظر، مد لها كوسطانطينو لفافة الحشيش فأكملت تدخينها منتشية على إيقاعات الموسيقى الكناوية. اقترب منها الشاب الذي يصبغ شعره باللون الأشقر ودعاها للرقص، لكنها اعتذرت بأدب، مما جعله يحس بالإحراج. لكن مايا رفعت عنه الحرج حينما سحبته ودعته لكي يرقص معها. كانت تتمتع بذكاء عاطفي رهيب يجعلها تحس بالآخرين فترفع عنهم كل كلفة أو حرج. كان "عبدو" منغمسا في الغناء لكنه يراقب كل شيء. عندما انتهت الوصلة الموسيقية، اقتربت الإيطالية الشقراء من عبدو وسألته إن كان بإمكانه أن يسمح لها بالنقر على الطبل الإفريقي. سمح لها بذلك فبدأت تنقر لكن بإيقاع مكسور، ويبدو أنها أحست بأن نقرها نشاز، لذلك نظرت إلى عبدو مبتسمة وهي تتوسله أن يساعدها. كان عبدو بصدد لف سيجارة من الحشيش، مدها للشاب الأشقر كي يكمل عملية اللف، ثم بدأ يساعدها على النقر. أخذ يدها ووضعها فوق الطبل معلما إياها طريقة النقر الصحيحة. ثم تناول كلتا يديها وبدأ ينقر بهما. كان يجلس مقابلا لها فأحست بحرارة تخترقها عندما لامسها بيديه، نظرت إلى عينيه فكانت ترى بداخلهما كل غموض الصحراء،

---

[25] هذه من أجمل أغاني أهل الصحراء.

فأصرت على التيه وسط صحرائه. أحس عبدو ببعض الإحراج إذ لم يكن متعودا على هذا التحرش الصريح.

كانت مايا تراقب المشهد خلسة، ويبدو أنها أحست ببعض الغيرة النسائية، لذلك حاولت أن تكسر إيقاع تجاوبهما عندما استأذنت من عبدو كي يلف لها سيجارة من الحشيش بدعوى أنها لا تعرف طريقة اللف. ترك عبدو الطبل بين يدي الشقراء وتناول من مايا عدة اللف وبدأ يعلمها طريقة اللف. سألته:

- هل سبق لك أن زرت إيطاليا؟
- ليس بعد.
- أدعوك لزيارة نابولي... ستعشقها.
- شكرًا على الدعوة. رغم أنني أتمنى زيارة البندقية.
- لدي صديقة تملك شاليه هناك، بإمكانها أن تستضيفك.

أحس عبدو بالإحراج لأن مايا أتت مع خليلها، لكنها مع ذلك تتودد إليه بطريقة مكشوفة. سألها:

- ألن يحس رفيقك بالغيرة؟
- إننا نعيش علاقة حرة لا التزام فيها.

كانت الجملة مباشرة وصريحة. أحس عبدو بأن مايا تضيق الخناق عليه وتحصر مساحة اللعب داخل رقعة غوايتهما. لقد كانت تدفعه دفعا لكي يأخذ المبادرة، لكنه رغم إعجابه بجسارتها وذكائها لم يستطع أن يبادر فقد تعلم الدرس جيدا من فِيرُونيك. ابتسم فقط ثم أشعل لفافة الحشيش وأخذ نفسا عميقا ثم نفث الدخان في الهواء وهو يرفع عينيه نحو السماء. لفت نظره شهاب مرق سريعا، وتذكر الشهب التي تطارد شياطين السماء، لذلك طرد شيطانه سريعا وهو يسلمها لفافة الحشيش قائلا:

- أحس ببعض الجوع، سأذهب لتناول بعض الطعام داخل الخيمة.

ويبدو أن البرقية وصلتها سريعا فقد قالت له:

- شهية طيبة.

دخل عبدو إلى الخيمة ووجد أن هناك أصنافا مختلفة من الطعام مرصوصة بعناية. تناول بعض شرائح اللحم المشوي مع الأرز، ثم شوربة خضر، وبعض قطع البطيخ الأخضر والأصفر، ثم جلس يتناول الطعام وهو يفكر في جرأة مايا. لقد استطاعت أن تلفت نظره بل وتنال إعجابه، لكنه يحترم أنها مرتبطة. علاقتها حرة لا تعني بالنسبة إليه شيئا، إنه لا يريد أن يكون سبب تعاسة شخص آخر، خصوصا وأنه أحس بأن كوسطانطينو يغالب نفسه كي يكتم غيرته. لكن الإيطالية الشقراء تتودد إليه. لا... لن يتجاوب مع تودداها، سيجرب العفة هذا المساء، للصحراء لعنتها. هكذا ردد بينه وبين نفسه. إنك عندما تقترف نزوة عابرة داخل صحراء تكون كمن دنس حرمة مسجد لأن الصحراء بمثابة أرض مقدسة. لم يكن يدخن إلا الأجود من الحشيش، لكن تأثيره هذه المرة كان مختلفا. لقد تخيل نفسه وقد سكنته روح "الدلايلاما" وتذكر كل ما قرأه عن المسيح ووصاياه لأتباعه عندما كان يحذرهم من النفوس الخبيثة التي يمكنها أن تخترقهم إذا ما اقترفوا نزوة عابرة. كان يخاف أن تزرع الإيطالية الشقراء روحا خبيثة بداخله، لذلك فضل أن يتحصن. وعندما سمع في آخر الليل تأوهات قادمة من الخيمة المجاورة ابتسم في قرارة نفسه واحتفى بنجاته عن طريق الاستسلام لنوم عميق. لقد كانت الإيطالية الشقراء تعتلي الشاب السائس الأسمر.

أيقظته مايا قبل طلوع الفجر، فتح عينيه ووجدها داخل الخيمة. قالت له:

- صباح الخير.

أجابها:

- ما زال الصبح لم يطلع بعد.
- وهل تريد أن يفوتك أجمل منظر شروق في العالم.
- لم يسبق لي أن تخيلت بأن شروق الشمس يمكن أن يكون جميلا في أي مكان بالعالم. أتصور بأن كل صباحات العالم كئيبة وأن كل من يستيقظون باكرا هم من كارهي البشر الذين يطمعون في الاستئثار بمغانم الدنيا وحدهم، بخلاف من يسهرون الليل ويستيقظون بعد الزوال، يندر أن تجد بينهم شخصا شريرا. هههه.
- عجيب. تستفيق ومزاجك رائق.
- ليس دائما. ربما...

كان يريد أن يقول لها لأنه استفاق على وجهها الملائكي، لكنه استدرك قائلا:

- ربما لأن جو الصحراء يناسب مزاجي.

لكنها استطاعت أن تقرأ المسكوت عنه في كلامه، فبين ربما... وربما، استطاعت أن تضع الكلمات المناسبة على هدى حدسها الأنثوي. لذلك ابتسمت وقالت له:

- سترى انعكاس مزاجك الرائق على شمس الصحراء وهي تنبعث من تحت الكثبان الرملية.

وفعلا، عندما خرجا من الخيمة كان منظر شروق شمس الصحراء يفوق كل توقعاته، فقد كان احتفالا بجميع المقاييس. لقد شاهد لوحة متفردة من إبداع الوجود اللامتناهي. بدأت اللوحة عندما برز جزء من قرص برتقالي في الأفق تحته خط أصفر، تحيط به سحب زرقاء من كل

جانب. ثم بعد ذلك انكسر اللون البرتقالي والاصفر فوق صفحة السماء، تخللهما بعض البياض والسواد، فانعكست بعض الأشعة الصفراء فوق الرمال على مشارف الأفق البعيد. ثم بعد ذلك برز قرص الشمس فبدا كما لو أن السماء تتثاءب كقطة كثيفة الوبر بيضاء برية. أحس كما لو أن الحجاب انكشف بغتة فتجلى مصور الوجود فوق صفحة السماء، ثم توارى بعد ذلك بسرعة تاركا صداه فوق صفحة القلب. ما هذه الروحانية التي تغمره هذا الصباح. تساءل عبدو بينه وبين نفسه. كان الإيطاليون منشغلين بتصوير المنظر، أما مايا فكانت تشهق من الدهشة وهي تصور المشهد فوق صفحة ذاكرتها. وأحس عبدو لأول مرة بكيمياء ساحرة تحدث بينه وبين مايا، كأنهما يعزفان فوق نفس المقام من مقامات الوجود. أحس بتوحد الإيقاع الروحي بينهما، كما لو أنها قطعة قُدَّتْ من روحه نبتت كزهرة لوتس زرقاء، ثم طارت في مرافئ روحه تصنع المطر والشجر وزرقة السماء. أحس كما لو أنها سقطت من روحه عندما خرجا معا من روح الله. ولأول مرة أحس بإحساس روحاني يتجاوز مجرد الرغبة أو العشق في علاقته بالمرأة. لقد كان يحس نحوها بشعور يتجاوزه، ويبدو أنها كانت تحس نفس الإحساس، لذلك شهقت وقالت:

- سبحان الله.

وفي طريق العودة إلى الفندق كانا يسلكان طريق اللاعودة، فقد أشرقت شمس الصحراء بداخلهما وانفجرت ترسم وشما عميقا بكل ألوان الطيف.

(٥)

عندما وصلا إلى الفندق توجه عبدو إلى غرفته، كان يريد أن يجد حيلة لكي يختلي بنفسه ويراجع حساباته بعيدا عن تأثير مايا. لذلك اعتذر فور وصولهما عن تناول الإفطار مع جماعة الإيطاليين بدعوى أنه يريد الاستحمام. دخل إلى الغرفة، ثم استلقى فوق السرير وبدأ يفكر فيها. ما هذا الاجتياح العاطفي الذي يكتسحه في اللحظة الأقل توقعا؟ إنها مرتبطة. ولكنها أكدت له بأن علاقتها بكوسطانطينو علاقة حرة. ومع ذلك، لا يجوز. يلزمها أن تحترم علاقتها الحرة، كما يلزمه أن يكون شهما. ولكن، هل يمكن للإنسان أن يتصرف على العكس مما يحس به. هذا تصرف ضد الطبيعة والفطرة يمكن أن يفقده طبيعته الإنسانية حتما. إننا نعرف بأننا نحب فقط عندما نبدأ في التصرف ضد مصلحتنا الشخصية. تذكر أنه قرأ هذه الجملة في مكان ما، لكنه لم يستطع تحديد قائلها. إن مايا بدأت الآن تتصرف ضد مصلحتها الشخصية. ولكن، هل هي سعيدة مع كوسطانطينو؟ ربما لديهما مشروع ارتباط، وربما زميلها في الجامعة. كان يتمنى لو لم تحدث تلك الكيمياء الروحية بينهما لوجد أكثر من مبرر كي يتوقف عن التفكير فيها. لكن، ما حدث بينهما يتجاوز مجرد الشعور بالانجذاب بين رجل وامرأة. لقد أحس كما لو أن الوجود يتنفس بداخلهما معا بنفس الوتيرة والإيقاع. ويبدو أنها أحست بنفس الأمر، فقد عبرت عن ذلك بالتسبيح. أكيد، لم تكن تسبح لمنظر الوجود الخارجي، وإنما لأنها اكتشفت كونا قائما بذاته يتنفس بداخلها.

خرج إلى الحمام وهو يتمنى ألا يلتقي بمايا أو بأحد الإيطاليين. فتح الباب، ثم دخل، واستسلم للماء البارد يطفئ جذوة الرغبة المشتعلة بداخل أعماقه.

وحينما خرج توجه إلى الباحة كي يتناول طعام إفطاره. كان هناك بعض الزبائن الذين استفاقوا باكرا كي يستمتعوا بجمالية صباح الصحراء. عائلة خمن أنها قادمة من منطقة سوس لأنهم كانوا يتحدثون بأمازيغية غير مألوفة بالنسبة إليه، شاب حليق اللحية يقرأ القرآن، وكهل على مشارف الستينيات يمارس بعض الحركات الرياضية. طلب طعام الإفطار، كان الشاب يقرأ بصوت خفيض لكن قراءته كانت ممتعة، لذلك أمعن عبدو في تركيزه لكي يستمتع بها. كان يقرأ مقاطع من سورة النور: (**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**). كان عبدو يعشق هذا المقطع القرآني ويجد فيه انزياحا شعريا وبلاغة تجعل القارئ يفتتن بفيض المعاني التي يحيل عليها في كل مرة. تذكر حينما كان يتأمل السماء مع مايا رأى ذلك النور المستتر متجليا فوق صفحتها وانكشف له المصور وهو يرسم لوحة الوجود، لقد رأى المشكاة والمصباح والزجاجة... رأى كل ذلك معلقا فوق جدارية السماء. ولذلك بدأ يتساءل عن علاقة النبوة بالصحراء، ربما لأن تقشف الصحراء يجعلنا نغوص عميقا في ذواتنا فنلمس بعضا من روح الله. تذكر تلك المخرجة الأمريكية التي قرأ عنها والتي قدمت إلى منطقة زاكورة بجنوب المغرب، وكيف أنها كانت ملحدة، ولكنها آمنت عندما وجدت نفسها وحيدة في الصحراء. تذكر كلماتها وهي تقول في الحوار الذي قرأه لها: أحسست بالله يرافقني، يلفني، أحسست به يصافحني وأنا في عمق الصحراء. تذكر تيه الأنبياء في الصحراء، وتذكر عيسى وهو يقاوم الغواية داخل صحراء.

عاد النادل ووضع أمامه طعام الإفطار، تناوله بشهية على إيقاع التجويد القرآني. نادرا ما كان يحب الاستماع للقرآن لأنه يلمس نبرة الوعيد والتهديد عند أغلب من يقرؤونه، كأنهم يؤنبون الناس على محبتهم للحياة. لكن قراءة هذا الشاب كانت مختلفة، فقد كان كمن يناجي محبوبه أو كمن يعترف بلوعة الحب. عند هذه اللحظة بالذات خرج فوج الإيطاليين وقد حزموا حقائبهم استعدادا للرحيل. كانت مايا معهم وقد وضعت حقيبة كبيرة فوق ظهرها. توجهت إليه ثم قالت له:

- سعدت برفقتك ولقائك.

أجابها:

- وأنا أيضًا... سعدت برفقتكم.

كان يود أن يستعمل ضمير المفرد لكنه عدل عن ذلك في آخر لحظة كي لا يضفي مزيدا من الخصوصية على لقائهما. أراد أن يستعمل صيغة تجمع بين الرسمية وتحيل على الجماعة في نفس الوقت كي لا يتورط أكثر وكي لا يثير شبهة من حوله. اقترب منه كوسطانطينو ثم صافحه وقال له:

- مرحبا بك عندنا في إيطاليا[٢٦].

قالها بالإيطالية.

أجابه عبدو:

- شكرا. سأحاول زيارتكم إذا ما سافرت إلى هناك.

صافح بقية الشلة، وعندما صافح مايا وضعت بطاقة زيارة في يده وهي تقول له:

---

[26] **Benvenuto in Italia**

- أنتظر أن أقرأ روايتك.
- سأرسل لك بعض المقاطع منها في بريدك الإلكتروني.
- آآآه... سأكون سعيدة بذلك.

اقترب منهم المرافق وبدأ يساعدهم على وضع أمتعتهم في سيارة رباعية الدفع مركونة بالخارج. رافقهم عبدو إلى غاية باب الفندق ثم ودعهم هناك. وحينما عاد أحس كأنه أسقط جزءًا منه فالتقطته ووضعته في حقيبة ظهرها ثم ولت هاربة.

توجه عبدو إلى غرفته ثم حمل حقيبة الظهر، وتوجه إلى مسبح فندق " تمبوكتو". كان المسبح ممتلئا عن آخره بالزبائن، أحس بأن الجو غير ملائم للكتابة، لكن نادل الفندق تعرف عليه واقترح عليه أن يجلس في شرفة تطل على المسبح. وجد أن الفكرة مغرية. طلب قهوة "إكسبريسو" وجلس ليكتب. حاول أن يكمل قصة "يوبا" و"أريناس" لكنه وجد بأن قريحته لا تسعفه. لذلك لبس ملابس الاستحمام ونزل إلى المسبح ليستحم، قطعه جيئة وذهابا مرتين، ثم عاد إلى مكانه بالشرفة وقد انتعش بعض الشيء. كانت الشرفة خالية لذلك استغل خلو المكان من أجل لف سيجارة الحشيش.

قدم النادل وهو يحمل له القهوة التي طلبها، توجس عبدو حينما لا حظ بأن تعابير النادل تغيرت عندما اشتم رائحة الحشيش. ربما يكون مدمنا، وربما لا. ربما سيخبر صاحب الفندق وقد يمنعه من التدخين أو يطرده. أراد "عبدو" أن يلطف من حرج الموقف، لذلك سأل النادل:

- ألا يأتي السياح الإسبان إلى فندقكم؟

أجابه النادل:

- قليلا.

لذلك عاجله عبدو قائلا:

- لدي العديد من الأصدقاء الذين يملكون دورا للضيافة بمدينتنا السياحية، سأقترح عليهم التنسيق مع فندقكم قصد تبادل أفواج السياح.
- فكرة جيدة. سأقترحها على صاحب الفندق.
- إنهم يقصدون مدينتنا قصد تدخين الأجود من الحشيش.
- لقد اشتممت رائحته.

أحس عبدو من طريقة إجابة النادل بأنه من مدمني تدخين الحشيش، فقد تحركت أرنبة أنفه واستدارت كمكنسة كهربائية عندما سمع كلمة الأجود من الحشيش.

- حشيشنا طبي. يصلح للتداوي، وليست لديه مضاعفات جانبية كحشيش المدن الداخلية. يسميه الإسبان العشبة الطيبة. ههه.

أراد عبدو أن يمزح مع النادل كي يخلق معه علاقة حميمية تجعله يسمح له بتدخين الحشيش في الشرفة. أما العشبة الطيبة فيطلقها الإسبان على النعناع لكنه كان يستغل جهل النادل باللغة الإسبانية. سأله النادل:

- هل تحمل معك البعض منها.

أدرك عبدو بأن النادل سقط في شرك لن يخرج منه. لذلك أجابه:

- نعم. أتريد أن تدخن؟

أجابه النادل بدون تردد:

- نعم.

أخرج عبدو عدته وأعطى للنادل مقدار سيجارة من الحشيش.

- هل لديك ورق التلفيف؟

- لا...

مد له عبدو ورق التلفيف مع سيجارة شقراء، فانفرجت أسارير النادل الصحراوي الأسمر وتغير لون وجهه وتفتحت سمرته قليلا بفعل السرور الذي علا محياه. وضع العدة في جيبه ثم استأذن كي يكمل تلبية طلبات الزبائن. أما عبدو فقد أحس بأن الرغبة في الكتابة قد عاودته من جديد.

(٦)

عندما وصل يوبا إلى منزله مساء رن هاتفه المحمول. لقد كانت زوجته فاما على الطرف الآخر تريد الاطمئنان على أحواله وتخبره بأنها ستعود مساء الغد بعدما تغير برنامج الورشة التدريبية. قال لها:

- أمر بحالة تطرف عشقية، وسأفجر شوقي فوق راحتيك شظية شظية.

أجابته:

- وأنا كذلك يا حبيبي، بي شوق عارم كي أنام بحضنك. أتفكر بي كما أفكر فيك؟

- لا أحب أن أفكر بك في الغياب حتى تحضرين... وعندما تحضرين فإنني لا أفكر فيك، بل أحتفي بالحياة معك.

سألته:

- وعندما أغيب فيم تفكر؟

أجابها: حينها أتوقف عن التفكير، أن تفكر في شخص غائب معناه أنك تخون لحظتك الراهنة مع الحياة.

كانت تعرف أنه يحب أن يعيش الحياة لحظة بلحظة، وكانت تحترم طريقته تلك، لذلك لم تكن تلزمه بشيء عندما تغيب. أحيانا كانت تنتابها غيرة نسائية لكنها كانت سرعان ما كانت تطردها من خاطرها لأنها تثق في نفسها كامرأة وتعلم علم اليقين مقدار ما يكنه لها من حب.

في مساء الغد كان هناك في المطار لاستقبالها. كانت فاما خارجة كأميرة من منطقة الاستقبال، بكامل كبريائها الأنثوي الجميل وهي تبتسم له. لقد كانت فاتنة في فستان عاجي اللون يعطيها إطلالة هادئة وأنيقة بدون تكلف. أما عندما حضنته فاكتشف بأنه افتقد رائحتها التي تذكره برائحة غابة الصنوبر. أحس بعطرها يسري بداخله ويدغدغ منعرجات رجولته. عندما وصلا إلى وسط المدينة دعاها إلى تناول وجبة العشاء في مطعم مكسيكي يوجد في ضاحية المدينة ويطل على النهر الذي يخترقها. وهناك في شرفة المطعم سألته:

- ألا زلت تحبني بنفس الشغف يوم تعارفنا لأول مرة في مطعم الحي الجامعي؟
- أحبك بشغف مختلف هذه المرة.
- شغف أقل أم أكثر؟
- كلمسة الرسم، لكل شغف طعمه الخاص.
- كيف هو شغفك بي اللحظة؟
- أود لو بداخلي أخفيتك وبخفة الحواة مارست معك الحب.

تأملت كثيرا عبارته الأخيرة، وفاجأها هذا الانزياح الشعري الطارئ على طريقة تعبيره. لقد كان أنيقا في قميصه الأخضر الفاتح وسروال الجينز. وكانت تعشق لحيته عندما يتركها تنسدل بكل بوهيمية فيبدو كمناضل من زمن الشيوعيين. وهناك في المطعم بعد الانتهاء من تناول وجبة العشاء فتحت حقيبة السفر، وأخرجت منها هدية له. فتح

العلبة فوجد بداخلها ساعة "بولوفا" سوداء، إطارها وسوارها مصنوعان من الكريستال الشواروفسكي فضي اللون. طبع قبلة فوق شفتيها بكل خفة كأنه مراهق يختلس قبلة سريعة في قاعة سينما. أربكتها قبلته وأصابتها بالخجل لأنهما كانا يتواجدان داخل مكان عمومي في بلد تصادر فيه قبل العشاق.

عندما عادا إلى المنزل اقترب منها وحضنها، ثم ربت على بطنها وقال:

- ألم يحن الوقت كي ينفخ فيه من روحه.
- ربما يرفض بذاءة وبشاعة العالم.
- سأعلمه أن الحياة جميلة وتستحق أن تعاش، وسأقوم بغوايته كما أغوى إبليس آدم كي يقدم إلى هذا العالم.

ضحكت فاما وسألته:

- وكيف ستقنعه بقضم تفاحة الحياة؟

لم يجبها يوبا هذه المرة. فقط، ابتسم ابتسامة واثقة ودافئة وأخذ يدها ووضعها فوق صدره، ثم انحنى على ركبته ووضع أذنه على بطنها كطفل صغير يريد أن ينصت بداخل بطنها لنبض قلبه. لقد كانت تعشق حينما يتخلص من كل ما يربطه بعالم الكبار ليصبح في حضرتها طفلا. مسح على بطنها ثم نفخ في الحبل السري كأنه يريد أن ينفخ فيه الروح. ابتسمت ومررت أصابعها فوق شعره مما جعله يسترسل في الكلام فتخرج الكلمات من فمه وتعبره في لحظة انخطافة شعرية تنتابه كلما أحس بالتماهي مع لحظة من لحظات الحياة. أعرف أنك هناك تراقب الحياة ولا تريد أن تكون، تسخر منا نحن الأحياء الأموات بينما أنت حي هناك حياة الأبدية، ترفرف مع الملائكة حول مشكاة من النور.

أعرف أنك لا تريد أن تأتي هنا حيث الخطيئة والغباء، والمرض والألم والحرب، وحيث نعيش متاهة كبرى اسمها الحياة. أعرف أنك تسخر من تعلقاتنا بالأشياء، ومن شهوتنا الجارفة للتملك، ومن عطشنا الذي لا يرتوي لأننا نشرب ماء البحر الأجاج كلما شربنا منه ازددنا عطشا... أعرف كل ذلك، لكنني أعترف لك أن الحياة جميلة وتستحق أن تعاش، وأن الألم معلم، والمرض سفر داخلي جميل، وأن متاهة المعرفة لذة لا يعرفها إلا من يعرف قيمة العقل، وأن الشر مجرد ظل لغياب النور. أتعرف أن الخطيئة وجه آخر للمعرفة... فنحن لا نتعلم إلا بعدما نغرق في مستنقع الخطايا فتحلق أرواحنا عاليا ثم تعود إلينا ما دمنا نعشق الإنسان فينا. ما أجمل الحب، سيطحنك، سيعجنك ويوقد تحتك نارا يستوي فوقها خبز قلبك المختمر... فيقطر خمرة تقدمها على موائد المحبين. ستتعرف على أجمل النساء، و ستجلس بين يدي كاهن بوذي لكي تتعلم منه أن كل شيء في الحياة يدور، وأن كل شر اقترفته يداك سيعود إليك عندما تكتمل دورة الدائرة، وستتعلم أيضًا أن الخير سنبلة تنبت سبع سنابل، في كل سنبلة مائة حبة تحصدها عندما تكتمل الدورة. ستسافر إلى إيثاكا[٢٧]، وفي الطريق إليها ستقرأ الفلسفة لكي تعرف الطريق، وستنظم الأشعار عندما تكتوي بنار الحب، أعرف أنك ستشك كثيرا لأنك لا تريد أن تستكين إلى يقين الآباء، وأنك ستحطم كل أصنام التقاليد، وسترقص وتغني محتفيا بخساراتك. صدقني، ستحب الحياة. أعرف أنك حينما ستدرس لن تجد عملا، وستنام متأخرا بعدما تكون قد قضيت كل الليل في الدردشة الفورية أو في مشاهدة شريط

---

[27] جزيرة في كيفالونيا في اليونان، إنها الموطن الأسطوري لأوليس، الملك الذي ترك بلده كي يكون من قادة حرب طروادة، وهو صاحب فكرة الحصان الذي بواسطته انهزم الطرواديون.

سينمائي أو قراءة رواية، حينها، ستستيقظ متأخرا وأنت تلعن الحياة. أما حينما ستدخن سيجارتك الأولى خلسة سأعرف ذلك، وسأشتري لك علبة سجائر، سأقول لك... تفضل، فالسجائر تقوي القدرة الجنسية. هل ستحتاج حينها لموعظة مني حول أضرار السجائر. لن أتبرم أو أشتكي منك، بل سأكلفك برعاية الأزهار في حديقة منزلنا الصغير، ستطعم العصافير وتأخذ قيلولة وأنت تستمع لموسيقى الجاز. سأعطيك أجرة عملك بعدما تجمل الحديقة، وسأعلمك أن الأجر يكون مقابل العمل، فتدعو حبيبتك إلى السينما لمشاهدة شريط سينمائي يحفل بحب الحياة. ستكون سعيدا حينها لأنك ستتعلم كيف تنضج في الجليد إذا ما تأخر الربيع. سيزهر الربيع بداخلك، عندئذ، لن يكون هناك مرض ولا ألم... ستشيد لك جنة بداخلك، وستستظل تحت أشجارها الباسقة.

لست ولدي، إنك ابن الحياة. لذلك، لن أكرهك على فعل شيء لا تريد فعله، فأنا لا أريدك أن تصبح نسخة مني. ستخطئ كثيرا، وتبكي كثيرا، وستغسلك دموعك. بعدها... ستضحك كثيرا، وستسخر من الأحياء المتعلقين بالأشياء. لا تكترث إن تركتك امرأة على قارعة الوقت، تلك محطتها إن هي أرادت النزول، افرش لها زربية وورودا... واجعل فراقها حفلة باذخة تليق بما اقتسمته معك من حب. لا تخف، في المحطة القادمة ستصعد امرأة أكثر غواية وفتنة، وستنسى معها حبك القديم، وقد تسخر من غبائك يوم كنت لفراقها تبكي... ما أجمل الغباء.

أعرف أنك تسخر مني هناك، وأنك تضحك من غبائي وتعلق أمك بك، وأعرف أنك لا تريد أن تكون، لن أكرهك على حياة لا تريدها ما دمت لا تريد أن تأتي إلى الوجود. لكن، إذا أرادت الحياة أن تسمح لك بذلك، سأكون سعيدا حينها... يكفي أن يقول لك كن... لتكون. أحبك.

اغرورقت عيناها بالدموع وهي تستمع لحديثه مع مستمعه الافتراضي، لكنه لم يحب أن يتركها تستسلم لغيمة الحزن التي عبرتها لذلك قال لها:

- تذكرينني وأنت تبكين بالأم تيريزا. هههه.

ابتسمت لتشبيهه ثم سألته له:

- أطاعنة في الطيبوبة أبدو لك؟

- بل طاعنة في الغواية فأنا أعشق غواية الراهبات. هههه.

التصقت به وهي تشتم رائحته فيخرج صوتها متقطعا بأنفاسها:

- سأسجنك في الدير وأستمتع بالخطيئة معك.

ثم افترسته كلبؤة شرسة وتركت أثر قبلاتها فوق كل مناطق جسده. لقد كانت كمن يود ترسيم حدود مملكته من جديد.

(٧)

استيقظ يوبا متأخرا في الصباح فوجد نفسه وحيدا في السرير. لقد استيقظت زوجته مبكرا وذهبت إلى مكتبها لكي تشرف على بعض القضايا المستعجلة بنفسها. لم تكن لديه حصة التدريس في ذلك اليوم، لذلك تقلب في فراشه بعض الوقت. كانت أصوات العصافير تتناهى إلى سمعه، ربما تركت زوجته بعض الحب في شرفة المنزل كعادتها في بعض الصباحات المشمسة. بقي فوق السرير لبرهة طويلة من الزمن وهو ينصت لأصوات العصافير، كانت تزقزق بنبرة احتجاجية هذه المرة. ربما تستعرض شخصيتها على مشارف موسم تزاوج الطيور. نهض من فراشه ثم توجه إلى الحمام، وأصر هذه المرة أن يأخذ دوشا باردا. كان يعشق

ذلك عندما يكون مزاجه رائقا، إنه يفضل حينها أن يستسلم لتلك الرعشة التي تجعل جسده ينتفض فيحس بتسارع دقات قلبه. تلك الشهقة يعشق أن يحس بها، لكن فاما كانت تعارض أمر استحمامه بالماء البارد. شرح لها أكثر من مرة بأن الاستحمام بالماء البارد أفضل في الصباح لأنه يجعل الجسم في كامل نشاطه وحيويته لكنها لم تقتنع بالمرة. أغمض عينيه ثم فتح الدوش، واستسلم لبرودة الماء الذي جعله يشهق أكثر من مرة ويرتعش، ثم بعد لحظات تعود جسده على برودة الماء وسرت بداخله انتعاشة حلت محل الرعشة. أغلق صنبور الماء ثم أخذ منشفة موضوعة في دولاب الحمام ونشف جسده. وبعد ذلك توجه إلى المرآة فوجد بأن لحيته يلزمها بعض التشذيب، كانت بعض الشعيرات البيضاء تبدو بارزة لذلك فكر أن يقلمها كي يجعل مظهره أكثر شبابا. تناول ماكينة الحلاقة الكهربائية ثم بدأ يحلق ذقنه لكنه لم يحلقه كاملا، بل ترك لحيته جد خفيفة كمن لم يقم بحلق لحيته لمدة لا تتجاوز الأسبوع. لقد كان ذلك هو الحد الأقصى المسموح له بحلقه فقد كان يكره أن يبدو حليق الوجه كمؤخرة رضيع. هكذا كان يحلو له أن يسخر من نفسه إذا ما داهمته نوبة تمرد فقام بحلق ذقنه كاملا.

خرج يوبا من الحمام وأشعل التلفاز ثم توجه إلى المطبخ كي يعد وجبة الفطور. لقد كانت زوجته تحب الإفطار بعد ساعتين من بداية العمل، لذلك كانت تتناول إفطارها في المكتب. كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحا، لذلك فكر أن يعد فطورا متكاملا يكفيه لآخر اليوم، شريحة لحم مشوي، بيض مسلوق، سلطة فواكه، خبز كامل، عصير برتقال. كان يعشق الاستمتاع بإعداد وجبة الفطور ويحلو له أن يعدها ويوقظ زوجته كي تتناول طعام الإفطار معه في عطلتهما الأسبوعية. رن جرس المنزل، توجه إلى جهاز "الأنترفون" فوجد حارس العمارة التي يقطنان بها

يعلمه بوصول إشعار بطرد بريدي وصله ويلزمه أن يوقع عليه شخصيا. فتح الباب واستلم الإشعار ثم وقع. طرد بريدي وصله يتضمن مجموعة من الكتب التي طلبها وأدى ثمنها ببطاقة الائتمان الدولية، لذلك يلزمه أن يتوجه إلى مصلحة البريد كي يستلمها.

عندما أنهى يوبا تناول وجبة الفطور كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة والربع. ارتدى ملابس الخروج ثم توجه إلى المقهى ليرتشف قهوته الصباحية ويقرأ الجرائد. كان يعشق هذه العادة الصباحية منذ كان في المرحلة الثانوية. فتح عمود الرأي اليومي الذي يحب قراءته فوجد مكانه فارغا، خطان أسودان مكان العمود إشارة على الحداد. صاحب العمود تم اعتقاله بعد النبش في ملفاته القديمة، لقد وجدوا قضية صالحة للتلفيق له وجعلوا الأمر يبدو كأنه قضية مدنية. اللعبة كانت مكشوفة لكنها ذريعة جيدة من أجل فرملة قلم مزعج. عندما أنهى قراءة الجرائد توجه إلى مكتب البريد لكي يستلم الطرد، وجد المكان غاصا بالناس والجهاز الذي يحدد ترتيب الزبائن داخل الطابور غير مشغل. هناك فقط حارس أمن يحاول أن ينظم عملية تسلم الطرود لكن دون جدوى. كانت هناك فوضى عارمة حيث تجمع الزبائن بطريقة فوضوية أمام مكاتب البريد من أجل استلام طرودهم. هناك طرود قادمة من الخارج، وأخرى من داخل المغرب. وهناك طرود تخضع للتفتيش وأخرى لا تخضع لذلك. دله الحارس على المكان الذي يجب أن ينتظر فيه كي يستلم الطرد.

بقي واقفا في الطابور يتأمل إلى أن وصل دوره، توجه إلى المستخدمة وقدم لها الإشعار، استأذنت منه للحظات دخلت فيها إلى مكتب آخر، ثم عادت بعد ذلك وقالت له: طردك ستستلمه في المكتب المقابل، فهو غير خاضع للتفتيش. كان المكتب المقابل غاصًا بالناس،

لذلك قالت له: اذهب هناك مباشرة دون أن تنتظر دورك، فقد انتظرت ما يكفي في هذا الطابور. ثم نادت على المستخدمة الموجودة هناك وأبلغتها بإشارة من يدها. توجه إليها، كان هناك فرنسي عجوز وزوجته ينتظران أيضًا دورهما في الطابور، وحين وصل إلى المكتب أعطى الإشعار للمستخدمة فدخلت تبحث عن الطرد، احتج الفرنسي عليه مطالبًا إياه بأن يأخذ مكانه في الطابور، حاول أن يشرح له بأنه انتظر في الطابور المقابل لكن الفرنسي لم يتفهم الأمر. لذلك رجع إلى آخر الطابور كي ينتظر دوره. حينما خرجت المستخدمة مع الطرد لم تجده، نادت عليه فأجابها من آخر الطابور، طلبت منه أن يتقدم لاستلام الطرد فأجابها بأنه لا يستطيع ويلزمه أن ينتظر دوره كي لا يقوم بخرق القانون. أصرت عليه كي يأتي ليأخذ الطرد لكنه وضّح لها أن الفرنسي احتج عليه بشدة لأنه لم ينتظر دوره، وبرغم أنه شرح له أنه انتظر دوره في الطابور المقابل فلم يتفهم الأمر. خرجت هذه المرة من مكتبها وهي تحمل الطرد في يدها ثم توجهت إليه قائلة:

- فليذهب الفرنسي إلى الجحيم، لستَ مضطرًا لأن تشرح له شيئا. خذ الطرد.

لم يدر ماذا يفعل واحمرت وجنتاه خجلًا، أما الفرنسي فبدأ ينظر إليه بغيظ. تناول الطرد وخرج من المكتب وهو يلعن في نفسه هذا الموقف الذي وضع فيه نفسه بسبب هذا الطرد.

عندما وصل إلى الباب الرئيسي لمكتب البريد رنّ هاتفه رنة واحدة دلالة على وصول رسالة مكتوبة. تفحص الهاتف فوجد رسالة نصية من أريناس تقترح عليه أن يلتحق بها في الورشة لأنها تريد أن تقترح عليه الاشتغال على عمل فني معًا، عمل يجمع بين اللمسة الفطرية ولمستها الفنية. وجد أن الفكرة مغرية، أن تجمع في لوحة واحدة بين إحساس

الرجل والمرأة. كان يريد أن يرسم كطفل وأن يعبث بالألوان بعدما تحرر من عقدة الطفولة، لذلك توجه إليها بسرعة. وعندما وصل إلى المرسم وجد الباب مواربًا. دخل، فوجدها منهمكة في رسم امرأة زجاجية ملامحها مكسرة بطريقة تكعيبية. حيث يغيب التماثل بين طرفي وجهها. تقدم منها على أطراف أصابعه دون أن يشوش على تركيزها، وتناول فرشاة الرسم ثم رسم وردة زرقاء نابتة من عينها. رسمها تنمو وهي تمدد جذورها بزرقة قرنية العين فتتشقق العين. نظرت إليه برهة ثم عادت ببصرها إلى اللوحة.

سألته:

- كيف علمت بالأمر؟

أجابها:

- لا أعرف.

- نعم. أنا امرأة ميتة مع وقف التنفيذ. مومياء محنطة أعيش في جلباب امرأة.

- ولم تستمرين في العيش داخل منزل بارد؟

شهقت عندما قال كلمته الأخيرة. ثم صمتت طويلًا، وبعد ذلك انفجرت في نحيب هامس. فاجأته ردة فعلها ولم يدر ماذا يفعل. يبدو أن اللعبة تحولت إلى أمر جدي. احترم صمتها ونحيبها رغم أنه كان يحس كما لو أن دموعها تنسكب كحمض بداخل قلبه. بعدما أنهت نوبة البكاء.

قالت له:

- لم أعرف أبدًا وادي الحب.

- وما هو هذا الوادي؟

- عندما ينتهي زوجي من ممارسة الحب معي يتوجه إلى مكتبه كي يكتب أبحاثه، فيقطع عني رعشتي. أود منه أن يعانقني وأن يستمر بداخلي لكنه لا يجد متعة في الأمر ولا يتفهمه. وحتى عندما أطلب منه ذلك يفعله معي ذلك بطريقة ميكانيكية فأحس كما لو أنني أحضن جثة باردة. ذهبنا إلى طبيبة مختصة في العلاقات الزوجية لكن دون جدوى.
- هل تزوجتِ عن حب؟
- كنت أظن بأنني تزوجت عن حب، لكنني سقطت فقط في فخ التمثلات.
- كيف؟
- كنت طالبة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية. أحضر محاضراته حول التاريخ. كانت كل الطالبات تعشقنه. كان وسيمًا ورزينًا برغم تقدمه في السن. وعندما كان يحاضر يجعلنا نسافر معه وهو يتحدث عن الجدلية المادية والحتمية التاريخية، ويفسر الحاضر على ضوء الصراع الطبقي. كنت معجبة بانحيازه للمستضعفين. لكنني لم أجرؤ أبدًا على الحديث معه بعد المحاضرة. كنت أجلس دائمًا بالصفوف الأولى وألمس إعجابه الصامت بي. لم يكن يجرؤ على مفاتحتي بإعجابه لكنني كنت ألمس ذلك بغريزة الأنثى، وكنت أستمتع بذلك في صمت. انتبهت زميلتي إلى الأمر فقالت لي:
- يبدو أنه مغرم بك.

فأجبتها:

- لا يغريني هذا النوع من الرجال.

صمتت أريناس لحظة تتأمل تشققات بؤرة العين في اللوحة، ثم نفضت عنها انكسارها وأخذت فرشاة ثم بدأت تكمل الخطوط الدقيقة لتشققات. بعدها استدارت ناحية يوبا ثم قالت له:

في حقيقة الأمر، أستمتع بذلك. ربما كان إعجابه يدغدغ نرجسيتي ويحجبني عن رؤية احتياجاتي الروحية العميقة. لقد كان محط إعجاب أغلب طالبات الكلية. أما حينما انتهت السنة الدراسية الثالثة وبدأت أفكر في بحث التخرج فلقد اقترح علي أن يكون المشرف على بحث نيل شهادة الإجازة. قبلت الأمر واخترنا الاشتغال على تاريخ فن العمارة بالأندلس. لقد كان ينتمي إلى عائلة عريقة النسب والحسب، وكانت تربطه قرابة عائلية بعيدة بعائلتنا. أنت تعلم شبكة المصاهرة داخل العائلات العريقة بالمغرب. بعدما ناقشت بحث الإجازة اقترح عليّ الزواج. لقد وجدت فيه الأب الذي افتقدته في سن مبكرة، وكنت أحس معه بالحماية، لم أكن أرى العالم إلا من خلال عيونه. احتضن أحلامي الفنية وساعدني كي أشق مساري الفني، وأمدني بشبكة علاقاته في وزارة الثقافة فجعلني أتعرف على المسؤولين عن المعارض الفنية، لكنه خنقني لأنه كان يعاملني كطفلة صغيرة يخاف عليها حتى من نسمة الهواء. شيئا، فشيئا، تحولت إلى تحفة داخل بيته يعرضها للزائرين وتعلمت أن أتقمص دور المرأة حتى فقدت طبيعتي. لم أعد أحس برغبة تجاهه أثناء ممارسة الحب، لقد فقدت شهيتي بعدما أصبحت ممارستنا للحب مفرطة في اعتياديتها، أقوم فقط بواجبي تجاهه، وعندما يفرغ ذكورته بداخلي أنام بينما يكمل الاشتغال على أبحاثه كأنه كان بصدد تدخين سيجارة سرعان ما عاد بعدها إلى عمله. البارحة طلبت منه الطلاق، لم أعد أتحمل الحياة معه وأرغب في استعادة عفويتي.

صمت يوبا طويلا بعدما أكملت جملتها الأخيرة ثم قال لها:

- ألديكما أطفال معا؟

أجابته بالنفي. وقبل أن ينبس بكلمة جديدة وضعت أصبعها فوق شفتيه ثم أغلقت عيونها ثم باغتته بقبلة كأنها تسارع الزمن كي لا تغير

قرارها. أصابته قبلتها بشلل ظرفي ولم يدر ماذا يفعل بنفسه. اختلطت عليه الأمور ولم يعرف كيفية التصرف في حضرة امرأة متزوجة وهو الذي لم يسبق له أن عرف امرأة أخرى منذ تزوج. توقفت عن تقبيله عندما لمست تردده. بقيا صامتين للحظة يتأملان بعضهما البعض. ثم يبدو أنه لم يستطع المقاومة كثيرا فانهارت دفاعاته دفعة واحدة، ثم ألقى بشفتيه فوق شفتيها يلتهمهما بكل الشوق والعشق والشبق والرغبة المتوقدة... مما أشعلها دفعة واحدة فالتهمت شفتيه وظلا يقبلان بعضهما لبرهة طويلة أحسا فيها كأنهما يعرفان بعضهما البعض دهرا من الزمن. فجأة، رن هاتفه المحمول، كانت زوجته على الطرف الآخر. توقف عن التقبيل وتردد في فتح الخط، لكنها شجعته بابتسامة خفيفة.

- اشتقت إليك حبيبي، أريدك معي الآن بدون تأخير... تعال... تعال...

قالت له زوجته.

فأجابها:

- سآتي فورًا بعدما أشرب قهوتي المسائية.

وبعدما أقفل الخط صمت لبعض الوقت ثم استأذنها في الانصراف. ابتسمت وقالت له:

- انصرف... لا يجوز أن نتأخر عن مواعيد من يحبوننا.

وعندما خرج من ورشتها انخرطت في نوبة بكاء طويل وهي تتحسر على برودة منزلها. أما هو، فعندما كان يشرب قهوته المسائية أصر على شربها بدون سكر، لقد كان يريد استعادة مذاق قبلتها ممزوجًا مع طعم القهوة المر. كانت تبدو فاتنة في الغياب، باذخة الأنوثة كهودج أميرات يتهادى فوق صهوة جمل. لقد كان يستمتع

بجرعته من الغياب، ففتح لها حجرة اللعب داخل قلبه كي تمارس هواية العبث برجولته.

(٨)

عندما عاد يوبا إلى منزله مساءً، وجد زوجته تقرأ رواية في السرير. كانت تلبس قميصًا ليليًّا أحمر وتستمع لموسيقى سليم الهلالي. كان صوته يصدح بأغنية "محني الزين"[٢٨]. لم يرد أن يعكر صفو انشغالها لذلك توجه إلى حوض الأكواريوم، وبدأ ينقر فوق الزجاج. شيئا فشيئا بدأت الأسماك الملونة تتجمع قرب فوهة الأكواريوم. أسماك حمراء صغيرة وأخرى متوسطة الحجم، وبعض الأسماك الصفراء والرمادية. قدم للأسماك طعامهم من خلال الفوهة. كانت هناك سمكة في أسفل الأكواريوم تتحرك بصعوبة، حاول النقر أكثر من مرة كي ينبهها لتأخذ حصتها من الطعام لكنها لم تستجب. خمن أنها مريضة. فكّر بينه وبين نفسه ماذا يمكن أن يفعل لإنقاذها. إنها تحتضر... أتاه صوت زوجته من الخلف. وقبل أن يستدير لكي يسألها ما العمل حضنته من الخلف. مرر يديه فوق شعرها يداعبها ثم سألها:

- وماذا يمكن أن نفعل من أجل إنقاذها؟
- لا يمكننا أن نفعل شيئا. يجب أن تعول على مناعتها الذاتية، فالحياة استحقاق لمن يتمسك بها. إن هي تمسكت بالحياة يمكنها أن تستمر في العيش، وإن كانت ضعيفة ستتنازل عن حقها في الحياة.

---

[28] أغنية لسليم الهلالي، تعتبر من روائع التراث الموسيقي المغربي.

تأمل جملتها الأخيرة وتذكر الكثير من البشر الذين يتنازلون عن حقهم في الحياة كل يوم. لذلك قال لها:

- كلما ضعفت الروح كلما ترهل الجسد وأصبح رخوًا... أليس كذلك؟

أجابته:

- الروح مفهوم غامض ومجرد بالنسبة إلي... لذلك أحب التعبير عن الأمر بالنفس. كلما عشقت النفس الإنسانية الحياة واحتفت بها كلما تمسّك الجسد بحقه في الحياة.
- ولكن يحدث أحيانا أن تضعف النفس عندما تستعبدها الرغبات؟
- نعم...

ثم أردفت بعد لحظة من التفكير:

- هناك قانون أساسي في الحياة، قانون البقاء. للأقوى، والأنقى، قانون الأحرار الذين لا يجعلون الرغبات تستعبدهم.

أحس كما لو أن زوجته تمرر له رسالة مشفرة. لذلك قال لها وهو يغير موضوع النقاش:

- ما يهمني هو أنك الأشهى.

قالت له ضاحكة:

- احذر شهيتك. فقد تستعملك إذا أصبحت شهية زائدة للحياة.

مرر أصابعه فوق بطنها ثم قبله وقال:

- ألم يحن موعده بعد مع الحياة؟

أجابته:

- لقد قمت بما يلزم من الفحوصات عندما كنت في هولندا ووجدت بأن لا مانع لدي. يلزمك أن تقوم بفحوصات بدورك.

لقد كان يخشى كل ماله علاقة بالطبيب. وكان يتجنب الدوامة التي يدخلك فيها الأطباء. لكنه هذه المرة لم يستطع التهرب كثيرًا.

- غدا سآخذ موعدًا لزيارة طبيب متخصص.
- شكرًا حبيبي. أعرف أن خصوبتك كانت مرتفعة عندما أجرينا الفحوصات قبل أن نتزوج. ربما هناك مجرد عائق بسيط.

وفي الصباح أخذ موعدًا مع الطبيب. أعطته السكرتيرة موعدًا في آخر المساء بعدما قالت له:

- لقد كان مقررًا أن يكون الطبيب في المصحة من أجل القيام بعملية جراحية، لكن لحسن حظك تراجع المريض عن إجراء العملية في آخر لحظة، وفضل أن يتعايش مع ألمه متعاطيًا بعض المسكنات.

وفي المساء التحق بالطبيب في المصحة. طلب منه أن يقوم ببعض الفحوصات الإشعاعية، وبعض التحاليل الخاصة بالخصوبة، ثم طلب منه أن يعود إليه غدًا من أجل فحص آخر على ضوء نتائج التحاليل.

عندما خرج يوبا من عند الطبيب وردت رسالة نصية على هاتفه المحمول. فتح الرسالة فوجد أنها واردة من هاتف أريناس، وأنها تستأذنه من أجل أن تقوم بعرض لوحته شجرة الشمس في معرض فني بمدينة إشبيلية الإسبانية. رد على رسالتها النصية معلنا موافقته. ثم هاتف زوجته ليدعوها إلى تناول طعام العشاء في مطعم يوجد فوق سفينة راسية في الميناء. سبقها إلى هناك وتناول بيرة وهو ينصت للموسيقى الإسبانية التي تنبعث من مقطورة السفينة. اقترب منه نادل يلبس لباس البحارة وسأله إن كان يريد أن يتناول طعام العشاء، فطلب منه أن يأتيه ببيرة ثانية وعندما تقدم ضيفته يمكن له أن يلتحق بهما كي يسجل الطلبيات.

أغنية "كما الماء"[٢٩] بصوت كامارون ديلا إيسلا وباكو دي لوسيا[٣٠] تصدح في كل أرجاء المكان:

آآه... كما الماء... كما الماء... كما الماء... كما الماء الصافي، عندما ينحدر من الجبل، أريد أن أراك دومًا في الصبح كما في المساء[٣١].

وقبل أن ينتهي المقطع الأخير من الأغنية أحس بصوت يهمس في أذنيه:

- كما الماء أريدك حبيبي.

استدار فوجد زوجته وهي تبتسم له ابتسامة دافئة أعادته من سفر طويل مع كلمات الأغنية. قبلها ثم نهض من مكانه وسحب الكرسي الذي يوجد قبالته ودعاها إلى الجلوس. بعد ذلك التحق بهم النادل وقدم لهما لائحة الطلبيات. طلبت وجبة "الباهية" الإسبانية، فيما اختار يوبا طَبقًا متنوعًا من أسماك فواكه البحر، لكنه شدد على النادل أن يكون مشويًا على الفحم. سألهما النادل إن كانا يريدان مشروبات، فطلبت مياها معدنية، أما هو فطلب قنينة صغيرة من النبيذ الأبيض مع بعض المياه الغازية. كان يحب أن يخفف من حموضة النبيذ عن طريق مزجه ببعض الماء لأن معدته لم تعد تستحمل طعم الحموضة.

كانت الإنارة تنعكس فوق صفحة البحر وتسمع هدير أمواجه ممزوجة مع أغنية "أنت تعشقني"[٣٢].

---

[29] Como el Agua

[30] Camaron de la isla y Paco de lucia

[31] Ay، como el agua...Como el agua...Como el agua...Como el agua de dia y de noche، asi quiero verte، que abaja del monte،agua clara

لينيا باستوري[33]. كان يعشق الأغنية؛ لذلك بدأ يتمايل في مكانه وهو يقلد بعض حركات الغجر وهم يرقصون بطريقتهم على مقاطع هذه الأغنية. لقد كان يرقص بطريقة مضحكة جعلت زوجته تستلقي من الضحك وهي تتأمل طريقة رقصه على إيقاع الفلامنكو. لم يكن رقصه يمت للفلامنكو بصِلة، لكنه في نفس الوقت كان يعكس روح الغجر المحتفية بالحياة، فكان يرقص كطفل بكل عفوية فيبدو رقصه مدهشًا لأنه لا يشبه رقص أحد... إنه تعبير عن الاحتفاء بالحياة حد التماهي معها.

نهضت من مكانها وسحبته من يده ثم بدأت ترقص معه "الرقصة الإشبيلية"[34]، ويبدو أن الأمر أثار انتباه بعض زبائن المطعم فظلوا يصفقون على وقع إيقاع الفلامينكو، وهناك من أغرته الأغنية كي يدعو رفيقته للرقص معها. أما صاحب المطعم الإسباني فكان يدخن سيجاره الكوبي منتشيًا بهذه الأجواء الاحتفالية في مطعمه. وعندما انتهت الأغنية تقدم النادل يحمل الطلبيات.

عندما عادا إلى مكانهما وجلسا قبالة بعضهما البعض سألته:

- ما رأيك لو نسافر لقضاء نهاية الأسبوع بمدينة "إستبونا"[35] الإسبانية؟

---

[32] Tu Camelas تعني أنت تعشقني بلهجة الغجر في جنوب إسبانيا.

[33] Niña Pastori اسمها الفني، واسمها الحقيقي María Rosa García García. مغنية فلامنغو إسبانية ذائعة الصيت.

[34] الرقصة الإشبيلية La sevillana رقصة شعبية مشهورة في إسبانيا، وأصلها من مدينة إشبيلية. ترقص جماعة كما ترقص زوجيا.

[35] إستبونا Estepona: مدينة صغيرة في الجنوب الإسباني تطل على البحر، وتوجد على مسافة قريبة من مالقة.

- أجابها: نسافر. اشتقت للسفر معك.

وفي الصباح مرّ على المصحة وأخذ صور الفحوصات الإشعاعية والتحاليل ثم توجه عند الطبيب. وجد العيادة ممتلئة عن آخرها. توجه إلى السكرتيرة وأعطاها الصور والتحاليل فطلبت منه الانتظار قليلا حتى يفرغ الطبيب من فحص بعض الزبائن. جلس في صالة الانتظار. تناول مجلة موضوعة فوق الطاولة، تفحصها فوجد أنها مجلة نسائية. بحث عن موضوع لتزجية الوقت. كانت المواضيع نفسها، طرق وضع الماكياج، أخبار الموضة والنجوم، الأبراج اليومية، وصفات المطبخ... تساءل بينه وبين نفسه عن سر رواج مجلات بهذا الخط التحريري.

تناول هاتفه المحمول وحاول أن يقرأ موضوعًا على شبكة الإنترنت لكنه سرعان ما أحس بالملل.

بدأ يتأمل في زبائن العيادة. امرأة محجبة حامل. شاب يلبس نظارات طبية أنيقة يرافق أمه. رجل يحمل شاربًا كثًا مع امرأة بجلباب تقليدي وطفل صغير. امرأة بدينة في الأربعينيات تحتل مقعدين، تساءل بينه وبين نفسه: ربما قدمت لكي يصف لها الطبيب وصفة تجعلها تتحمل أعراض سن اليأس. اليأس؟ لماذا اليأس؟ ما معنى أن نقول بأن امرأة وصلت سنَّ اليأس فقط لأن دورتها الشهرية انقطعت؟ فكأنما حياة المرأة مرتبطة بالإنجاب فقط؟ ردد بينه وبين نفسه.

صوت السكرتيرة يقطع عليه تأملاته. رددت اسمه للمرة الثانية فانتبه، فتوجه إليها ثم دخل عند الطبيب. تناول منه الصور الإشعاعية أول الأمر ثم قال له:

- نتائج الصور الإشعاعية تثبت أن جهازك التناسلي سليم. هناك بعض آثار ميكروب قديم لكنك شفيت منه.

تناول بعد ذلك التحاليل وعدل من وضع نظارتيه ثم قال له:

- خصوبتك أقل من المعدل. فلكي تكون حظوظ الحمل وافرة يلزم أن يكون تركيز الحيوانات المنوية ما بين خمسة عشر إلى عشرين بالمائة. ما مهنتك؟

- أستاذ جامعي.

- هل تذهب إلى الحمام التركي أو الصاونا؟

- في بعض الأحيان.

ربما أثر الأمر على خصوبتك، فالحيوانات المنوية لا تستحمل الأماكن التي تكون فيها الحرارة مرتفعة، قال له الطبيب. ثم أردف:

- تركيز الحيوانات المنوية لديك لا يتعدى عشرة بالمائة.

سأله عن سن زوجته فأجابه بأنها في أوائل الثلاثينيات. فكر الطبيب للحظات ثم قال له:

- لسنا مستعجلين. سنجرب بعض العقاقير التي تزيد من الخصوبة... وبعد ذلك سنرى إمكانية اللجوء إلى التخصيب الاصطناعي.

كتب له الوصفة ثم ضرب له موعدًا بعد ثلاثة أشهر. وعندما خرج من عند الطبيب أحسّ كما لو أن حملًا ثقيلًا انزاح عنه. نعم... هناك إمكانية... ردد بينه وبين نفسه. كان يخاف أن يخبره الطبيب بأنه عاقر ولا يمكنه أن يُنجِب.

(٩)

عندما حلّ المساء جلس عبدو يراقب منظر غروب الشمس. رغم أنه يراقب المنظر من نفس زاوية الأمس لكنه وجده مختلفًا، فلوحة

غروب اليوم لا تشبه لوحة غروب البارحة. فكر أن يجعل المساء منطلقًا للحدث الروائي هذه المرة. وأن ينتقل ليحكي عن أريناس وتركيز بؤرة السرد حولها، فهناك جانب مظلم في حياتها يلزمنا أن نكتشفه. من يدري، فربما تكذب على يوبا من أجل أن تجد مبررًا لشغفها. أحيانًا، يعشق الإنسان أن يكذب كذبة بيضاء ثم يصدقها ليصنع عالمًا جميلًا من الوهم ينسيه بشاعة وشظف الاعتيادية اليومية التي يرزح تحت ثقلها. لكن، إن كانت كاذبة، فستفقد الرواية ألقها بعدما يختل الميزان. يلزمه أن يجد مبررات لكل شخصية ويجعل الخطأ بمثابة حتمية قدرية كأبطال التراجيديات اليونانية، حينما تتصارع فيما بينها لا يمكننا أن ننحاز إلى شخصية دون أخرى، فكل شخصية فعلت ما تراه صوابًا انطلاقًا من وجهة نظرها، وحتى إن وقعت الشخصيات في الخطأ فيلزمه أن يجد لها من المبررات ما يجعل خطأها إنسانيًا يمكن أن يقع فيه كل قارئ.

عندما عادت "أريناس" إلى بيتها ليلًا وجدت زوجها في انتظارها. كان يشاهد التلفاز متنقلًا بين بعض القنوات الإخبارية. توجهت إلى غرفة النوم وغيّرت ملابسها لكنه التحق بها وطلب منها أن تلبس ملابسها من جديد لأنه يود أن يخرج معها هذا المساء لتناول طعام العشاء خارج المنزل. اعتذرت منه لأنها تحس ببعض التعب لكنه أصر على ذلك.

وعندما كانا في السيارة لم تنبس بكلمة، صمت ثقيل كان يخيم عليهما. دخلا الفندق الفاخر حيث يتواجد المطعم. توجه إلى غرفة الاستقبال وحجز غرفة داخل الجناح الملكي، ثم توجه إليها ودخلا المطعم معًا. سألته:

- هل تريد المبيت خارج المنزل اليوم؟

أجابها:

- بل أريد أن نعيد ليلة دخلتنا.

جعلتها جملته الأخيرة تبتسم بسخرية مريرة ممزوجة بالألم. في بعض الأحيان يبدو لها كجذع شجرة أجوف، لكنها لم تعترض أو تنبس ببنت شفة. استغرقت في صمتها حتى ابتلعها. عندما سجل النادل الطلبيات سألها:

- هل قصرتُ في حقك يومًا؟

كان آخر ما تتوقعه منه هذه الطريقة المباشرة وهذا التشييء للعلاقة الزوجية والذي يحصرها في الواجبات والحقوق. نظرت إليه نظرة استهجان، فلم يدر ماذا يفعل. ضغط على أصابعها بأصابعه وهو يضم كفها ويحضنها داخل كفه.

- أحبك... أعرف أنني لا أتقن التعبير عن الحب. لكنني مستعد لأن أتطور.
- مشكلتك أنك لن تتطور.
- أريد فرصة أخرى وسأثبت لك مقدار حبي لك.

صمتت صمتًا يشبه نذير العاصفة. وعندما تحدثت خرجت منها الكلمات بكل هدوء وعي تضغط على مخارج الحروف كمن يضع الحركات فوق الحروف.

- أريد الطلاق.

فاجأه طلبها وباغته ففقد توازنه للحظة ابتلع فيها ريقه ثم احمرت وجنتاه وهو يقول:

- ما المشكلة؟ أقوم بواجباتي الزوجية على أكمل وجه. لم يسبق لي يومًا أن قمت بخيانتك أو حتى بالتفكير في امرأة أخرى.

ليتك فعلت. هكذا رددت بينها وبين نفسها عندما كان يسترسل في مرافعته كمحامي مبتدئ. أفضل رجلًا محتفيًا بالحياة برغم نزواته العشقية وطيشه على صنم مفرط في اعتياديته. كان يبدو لها ككهل فقدَ دهشة الحياة وعفويتها.

عندما لاحظ سهوها الواجم عدل من وضعية ثم قال:

- سأترك لك أسبوعًا كاملًا من أجل إعادة التفكير في قرارك، وأنا مستعد لكل ما تقترحينه عليّ... سأطور نفسي، سأشتغل عليها... ربما يلزمني أن أعيد النظر في بعض الأمور بخصوص علاقتنا. أحيانًا... أخاف عليك أكثر من اللازم... ربما يخنقك ذلك. أعرف. لكنني أخاف عليك لأنني أحبك... فنحن عندما نحب نخاف من فقدان من نحبهم.
- أنت لا تخاف عليّ، إنك تخاف فقط أن تفقد تحفتك الفنية التي تتجمل بها بين أقرانك.

خرجت منها الكلمات كما تخرج الحمم في بداية بركان ملتهب. ثم أضافت:

- أحس بأنك لا تفرق بيني وبين تلك التحف الفنية التي تعشق جمعها وعرضها بصالون المنزل.
- ليس كذلك عزيزتي. لقد اخترتك بين كل الطالبات لأنك امرأة استثنائية، عاقلة، سليلة عائلة عريقة، مثقفة وجميلة. أنت امرأة لم يجد بمثلها الزمان.

ابتسمت بمرارة بينها وبين نفسها وهو يمعن في تذكيرها بجراحاتها ويضغط بقوة فوق الجرح الغائر بداخلها.

- أريد الطلاق...

صرخت في وجهه منفجرة. ارتبك والتفت ناحية زبائن المحل ليتأكد بأن لا أحد قد سمع هدير غضبها.

- فهمت... أم لم تفهم؟

صرخت في وجهه بكل قوة هذه المرة حتى انعقد لسانه من هول صرختها. استدار بعض الزبائن يستطلعون الأمر مما جعله يحس ببعض الإحراج. صعد الدم فوارًا إلى وجهه ثم قال لها:

- كما تريدين. نلتقي غدًا صباحًا عند العدول.

ثم تناول ورقة الحساب وأدى الفاتورة. اندهش نادل المطعم إذ لم يتناولا شيئًا من أصناف الطعام التي طلبها. بعدما عاد ألقى بمفاتيح السيارة فوق الطاولة واستأذن منها لأنه يود أن يبيت في الفندق هذه الليلة. أخذت مفاتيح السيارة ثم توجهت إلى المنزل. دخلت فأحست بثقل يجثم على صدرها ككرة لهب بداخلها. حاولت النوم لكنها لم تستطع، بكت طويلًا.

وفي الصباح، عندما أنهت إجراءات الطلاق، حجزت في أول طائرة متوجهة إلى فرنسا، وهناك قضت أسبوعًا تتسكع في دروب باريس وتدفن بؤسها في المتاحف والمعارض الفنية.

توقف عبدو عند هذا المقطع، فقد كان الوقت متأخرًا. أحس ببعض الألم في ظهره لذلك قرر أن يتوقف عن الكتابة. داهمه بعض الجوع فأراد أن يطلب طعام العشاء. وجد أن المطعم قد أقفل أبوابه. استفسر من موظف الاستقبالات فأجابه بأن مستخدمي المطعم ذهبوا إلى النوم. لم يكن بإمكان عبدو أن ينام على معدة فارغة، لذلك منح موظف الاستقبالات بعض البقشيش ثم أسر له بأن لديه خللا في المعدة يجعلها تفرز سائل الحموضة بدون وقت، ولذلك يلزمها ألا تظل فارغة لمدة طويلة وإلا تسببت له في قرحة.

قال له موظف الاستقبالات:

- سأبحث لك عن أي شيء أجده في المطبخ.

فتح الثلاجة واقترح عليه الأكلة الأكثر شعبية بين الطلبة، أكلة "البي إم": البيض، والطماطم. لم يكن لعبدو الحق في الاختيار لذلك وافق بدون تردد قائلًا:

- مع إبريق شاي صحراوي إذا أمكن.

أومأ موظف الاستقبالات برأسه علامة الموافقة.

حينما انتهى موظف الاستقبالات من إعداد الوجبة، قدمها إليه وهو يقول له:

- في المرة القادمة حاول أن تخبرني بأنك تريد تناول العشاء متأخرًا حتى أحجز لك وجبتك. سأحاول قال له عبدو، ثم أضاف: ولو أن معدتي مزاجية، تباغتني فلا أعرف متى تريد الطعام ومتى تتركني بدون شهية.

عندما انتهى عبدو من تناول الطعام توجه إلى السطح حيث ينام، فوجد بعض الزبائن وقد احتلوا منطقة مهمة من السطح. اللعنة. لم يتركوا لي هذا المكان آمنا. لم تكن لديه مشكلة في أن يقتسم السطح مع أشخاص آخرين. لقد كانت مشكلته الوحيدة تتمثل في كونه يريد أن يدخن الحشيش، لكنه لا يريد رؤية تلك النظرات الشزراء التي يوجهها من لم يسبق لهم تدخين الحشيش إلى مدخنيه. تذكر صديقه الذي كان ينهاه عن تدخين الحشيش ويقدم له المواعظ، ويشرح له مضار تدخين الحشيش، وكيف أنه عندما التقى بفتاة من أبناء الجالية المغربية المقيمة بالخارج، وكانت متحررة بعض الشيء تحررا شكليًا، ذاق معها أول مرة متعة لفافة الحشيش، وبعد ذلك تعود تلك المتعة حتى أدمنها.

ومن يومها حينما يلتقيه ويذكره بمواعظه حول مضار الحشيش يضحك قائلًا:

- لا تذكرني بأيام الجاهلية... كلما كبر جهلنا بالحياة كلما كانت مواعظنا أكبر. أفهم الآن لماذا الجهلة فقط هم من يتخصصون في المواعظ. هههههه.

كانت هناك عائلة من الذكور بأكملها في السطح. طفلان، ورجل يلبس عباءةً بيضاء، وشيخان، وشاب

بلحية خفيفة. عصابة تسطو على مكان نومه الآمن. ماذا سيفعل؟ اقترب منهم وسلم عليهم بتحية الإسلام. حيوه بأحسن منها. ثم قال لهم:

- أتحبون الاستيقاظ باكرًا أم تودون الاستمتاع بالنوم لفترة أطول؟

لقد كان السؤال تدخلًا سافرًا في شؤونهم الشخصية، ولذلك بدا على وجوههم بعض الاستغراب، مما جعله يتدارك قائلًا:

- الشمس تشرق باكرًا هنا، وتكون حارة تزعج من يرغب في الاستمتاع بالنوم لفترة كافية.

- آآآه...

أجابه الرجل صاحب العباءة البيضاء ثم أضاف قائلا:

- نحن نستيقظ باكرًا، لكن الأطفال يحبون النوم إلى حدود العاشرة. ما العمل؟

اقترح عليهم عبدو أن يناموا قرب الباب الخلفي للفندق حيث لا تصل أشعة الشمس هناك إلا في حدود الظهيرة لأن المكان غير مكشوف بكامله. شكره الرجل على نصيحته ثم توجه مع طفليه إلى الجانب

الخلفي من الفندق. عندها، تنفس عبدو الصعداء. أخيرًا، سيخلو له المكان. أخرج عدته ثم لف سيجارة من الحشيش، ودخنها، ثم بدأ يتأمل ليل الصحراء. كان هناك مصباح كهربائي يتيم موضوع قرب رأسه كي يبدد العتمة. النسيم يهب فيسمع صوته يتراقص في الفراغ. إحساس رهيب ليل الصحراء لا يستمتع به إلا من يملك روحًا شفافة تستطيع أن ترى اللذة خلف الألم، تلك التي تخلصت من ارتباطها بعالم اللذة الحسية. الصحراء، لذة أخرى، سفر داخلي عميق، اغتسال وحفلة تعميد. نسيم الصحراء حينما يخترق خياشيمك ويسافر عميقًا داخل أوصالك يحيي الخلايا الميتة، ويعيد ترتيب السلسلة الوراثية التي نحملها من جديد، تلك التي اختلت بفعل قيم الاستهلاك فجعلت منا ذواتا مزيفة. في الصحراء نعود إلى أصلنا، ذلك الكائن الذي لا يحتاج إلى مقارنة نفسه بالآخرين. إنك تكتفي بما لديك، بما أنت عليه، فتضع سلاحك وتوقف جميع حروبك. الصحراء، شاسعة، قاسية، ومتاهة للتائهين عن أنفسهم من لا ينصتون لصوتهم الداخلي العميق ووحي حدسهم.

تذكر عبدو بأن أهل الصحراء أهل طيبة وجود وكرم. لكنهم عندما تكتسحهم قيم الاستهلاك فهم يتحولون إلى مسوخ متخمين بالرغبات. تذكر صحراء شبه الجزيرة العربية عندما حدثت فيها الطفرة البترولية وتذكر خماسية مدن الملح لعبد الرحمان منيف. أطفأ المصباح الكهربائي وبقي يستمتع بالظلام الذي يلفه من كل جانب. أصغى السمع يستمتع بصوت الصمت الكامل. الصمت المطلق، صوت الفراغ. لم يسبق له أن عاش مثل هذه الحالة من قبل. سكينة وانسجام تام مع الوجود. أحس كما لو أنه قطعة من هذا الوجود المترامي الأطراف، كما لو أن النفس الطالع من أعماقه امتداد لتنفس الكون الذي يتنفس بداخله. رفع

عينيه للسماء ورأى القمر وقد انتصف. قمر الصحراء لا يشبه باقي الأقمار. كانت تحيط به هالة من السحب الخفيفة فتزيده جمالًا وجلالًا، بعض الظلال تنعكس عليه فيبدو كأنه يشرق من وراء جبل قطني. لقد كانت السكينة مغرية للكتابة، لذلك أشعل المصباح الكهربائي من جديد، ثم بدأ يكتب.

(١٠)

عندما حلت نهاية الأسبوع سافر يوبا مع زوجته فاما إلى مدينة "إستبونا" الإسبانية. أرادا أن يعيدا ليلة شهر العسل حينما قضيا معًا أسبوعًا هناك. لم يسافرا بالسيارة هذه المرة، بل فضّلا القطار. كانت المسافة بين المدينة والميناء تعادل الخمس ساعات. استقلا مقصورة الدرجة الأولى. كان القطار غاصًا بالمسافرين كعادته نهاية الأسبوع. دخلا إلى المقصورة فوجدا كل المقاعد ممتلئة بالمسافرين. أخرج يوبا تذكرة السفر فوجد أن رقم الكرسي الذي سيسافر فيه تشغله سيدة في أواسط الأربعينيات. كانت تضع نظارات طبية، لذلك حينما سألها عن رقم مقعدها في تذكرة السفر، نظرت إليه من تحت النظارات فذكرته بأولئك الموظفين الذين لديهم ميول تسلطية يعكسونها عبر طريقة نظرهم من خلف العدسات الزجاجية. قالت له:

- لماذا تسأل؟

- لأن تذكرتي تحمل نفس رقم المقعد الذي تجلسين عليه.

نظرت السيدة الأربعينية إلى رقم المقعد ثم أجابت بطريقة يقينية مفرطة في الثقة.

- ربما اختلط عليك الأمر مع أرقام المقصورة الثانية.
- لكن تذكرتي تحمل رقم هذه المقصورة.

مد لها التذكرة، فتأكدت بنفسها. أخرجت تذكرتها من حقيبة يدها، تحققت منها، فوجدت بأنها تحمل أيضًا نفس رقم المقصورة ونفس مقعد السفر.

- هناك مشكلة...

قالت له ذلك وقد تسلل بعض الشك فتشقق اليقين. ثم أضافت:

- يبدو أنهم باعوا نفس التذكرة مرتين.

طلب يوبا تذكرة زوجته فوجد أنها تحمل رقم المقعد المقابل، كان هناك شاب يرقن فوق حاسوبه النقال. طلب منه يوبا أن يتأكد من رقم تذكرته فوجد أنها تحمل نفس رقم المقعد. ثم غمغم بينه وبين نفسه قائلًا:

- نعم، هناك مشكلة...

أخذت فاما تذكرة الشاب، تفحصتها ثم سألته:

- هذه تذكرة قطار الثانية بعد الظهر.

أجابها الشاب:

- نعم، لقد تأخر لمدة ساعة.
- ذهب يوبا يبحث عن المراقب لكي يبث في هذا اللبس. عندما دخل المراقب طلب التذاكر موضوع النزاع، ثم قال للسيدة الأربعينية والشاب:
- لقد ركبتما القطار الخطأ.
- كيف؟

- قالت له السيدة. فأجابها:
- قطاركما ينطلق في الثانية بعد الظهر، وهذا قطار الثالثة بعد الظهر.
أجابته السيدة:
- لكن قطار الثانية بعد الظهر تأخر مدة ساعة ولم ينطلق إلا في حدود الساعة الثالثة بعد الظهر. أجابها المراقب بطريقة رجال السلطة:
- بل تأخر ساعة وعشر دقائق، وانطلق بعد هذا القطار.
عندئذ انفعل الشاب قائلًا:
- ليست المشكلة مشكلتنا، أنتم من تتحملون عواقب التأخر. إذ لا يمكن لقطار الثالثة بعد الظهر أن يتحرك قبل قطار الثانية بعد الظهر.

أجاب المراقب:

- تحدث بعض هذه الأمور أيام عطل نهاية الأسبوع والأعياد، بفعل الاكتظاظ.

قالت له السيدة الأربعينية:

- لن نتحرك من أماكننا... ليست المشكلة مشكلتنا، أنتم من يجب عليكم تحمل مسؤولية التأخر، بل يجب عليكم تعويضنا.

قال لها المراقب بكل برودة دم هذه المرة:

- يمكنكما أن تنزلا في المحطة المقبلة وتستقلا قطاركما.
- لن أنزل في أية محطة مقبلة، يكفي هذا التأخر الذي تسببتم لي فيه.

سأله يوبا إن كان بإمكانهما أن ينزلا في المحطة المقبلة ويستقلان القطار المقبل مكانهما. فأجابهما المراقب:

- تذكرتكما تخص فقط الرحلة على هذا القطار. اقترح يوبا استبدال تذاكرهما مع الشاب والسيدة الأربعينية، فوافق المراقب، تبادلا التذاكر، ثم خرجا من المقصورة ينتظران الوصول إلى المحطة المقبلة. لم تشكرهما السيدة الأربعينية على أريحيتهما، لكن، بالمقابل، بدرت من الشاب ابتسامة فيها بعض الامتنان.

وصل القطار إلى محطته المقبلة فخرجا ثم توجها إلى مقهى لينتظرا القطار المقبل. كانت الساعة تشير إلى الرابعة وعشر دقائق بعد الظهر، وكانت محطة القطار مكتظة عن آخرها. استأذن يوبا زوجته ثم ذهب إلى كشك الجرائد، اشترى بعض الجرائد اليومية، وقنينات المياه المعدنية، ثم اقتنى بعض قطع الشوكولاتة السوداء. توجه إلى المحطة، فوجد زوجته تراجع بعض التقارير حول تأثير مقاربة النوع على التقليص من حجم الفقر في الدول النامية. ابتسم بجانبها قائلًا:

- لا يمكنني أن أقرأ شيئًا يدخل ضمن مجال العمل وأنا مسافر.
- ربما لأنك لا تحب عملك.
- بل بالعكس، يلزمنا أن نغيب عن الأشياء التي نحبها حتى نجدد شغفنا نحوها.
- ربما... في مجال العلاقات الإنسانية. لكن، في مجال العمل يلزمنا ألا نتراخى وإلا فقدنا شغفنا بما نعمله.
- عجيبة أنت.
- بل طبيعية فقط وطبيعتي نارية، يلزمني أن أستغل اشتعالي واضطرام اللهب. فإذا غفلت بعض الوقت قد تنطفئ جذوتي، وحينها يلزم الكثير من الوقت كي تشتعل رغبتي من جديد.
- أما أنا فأحب تلك الفترات التي أبتعد فيها عن عملي كي أستمتع بممارسة أشياء أخرى. قد أقرأ الجرائد، وقد أخرج في نزهة لوحدي أمام شاطئ البحر أو قد أرسم...

استغربت فاما هذا التغيير الذي طرأ على هواياته، لكنه شرح لها أنه التقى بفنانة ومدرسة رسم أثناء حفل تقديم ديوانه الشعري، فاقترحت عليه أن يتلقى دروس الرسم في ورشتها لأن الصور الشعرية التي تتضمنها قصائده جديرة بأن تتحول إلى لوحات تشكيلية. فكر في الأمر وقرر أن يمنح للطفل بداخله فرصة الحياة من جديد داخل عالم من الأصباغ. لم يحك لها عن تفاصيل ما وقع بينهما، بل حاول أن يجعل الأمر يبدو كما لو كان محض مصادفة جعلته يكتشف موهبته في الرسم. لقد كان الخبر عاديًا، لكن طريقة إلقائه بدت كما لو أنه ارتكب جُرمًا فقد نطق كلمة "ورشتها" بصوت خفيض كمن يريد أن يواري جريمة عشقية. أحست فاما ببعض التوجس لكنها أخفت هواجسها عنه وهي تقول له:

- فكرة جيدة. أنا أيضًا أفكر أن أتلقى دروسًا في الكمان. لدي عشق له منذ طفولتي.
- أعرف مدرسًا روسيًّا يستطيع أن يعلمك الكمان. عندما سنعود، سأسجلك في حصصه الدراسية.
- لا أستطيع الالتزام بحكم انشغالاتي المهنية المكثفة في القادم من الأيام.
- لا عليك، إنه يستطيع أن يقدم لك حصصًا تتماشى مع برنامجك المهني.
- فكرة جيدة.

قالت فاما. ثم أضافت وهي تغلف عبارتها بابتسامة غامضة:

- وربما سأفكر في تلقي دروس الرسم أيضًا. من يدري.

أحس يوبا بأن زوجته ترسل له رسالة مشفرة، كما لو أنها تهديه موسيّ حلاقة داخل سرير قطني. لكنه تدارك بسرعة وهو يقول مبتسمًا ابتسامة الموناليزا:

- فكرة جيدة، من يدري. فقد تكتشفين موهبة فنية مكبوتة بداخلك. أهم شيء، أن ممارسة الفن تجعل الإنسان يخرج من بعده الأحادي الذي يسجن فيه نفسه ليعيش بأكثر من بعد.

صوت المسؤولة عن الإعلان داخل محطة القطار تعلن بأن قطار الرابعة والنصف سيتأخر عن موعده لأكثر من خمس وأربعين دقيقة.

- ما زال لدينا بعض الوقت كي نحتسي قهوتنا بكل هدوء.

قال لها يوبا، لكنها أجابته:

- أتمنى ألا يتعدى التأخر خمس وأربعين دقيقة فقط، وإلا سيضيع علينا موعد الباخرة الأخيرة في الساعة الحادية عشرة.

انشغل بقراءة الجرائد الموضوعة فوق طاولته. أخبار متفرقة عن قرب الانتخابات والخوف من المشاركة الانتخابية المتدنية بفعل عزوف الناخبين. بعض قادة الأحزاب يدعون الشباب إلى المشاركة الانتخابية بكثافة لأن صوتهم هو الذي يمكنه أن يشكل الفارق. الصفحة الثانية حملة إشهارية يتكلف بإنجازها مقاول مقرب من السلطة وصاحب وكالة إشهارية، الحملة تشجع على انخراط الشباب في المشاركة السياسية.

الساعة تشير إلى الخامسة وعشر دقائق، ويلزم أن يكون القطار في المحطة. لم تكن هناك إشارة إلى وصول القطار، توجه إلى لوحة مواعيد القطارات ووجد أنه لا توجد إشارة إلى قطار الرابعة والنصف. رفع عينيه إلى اللوحة التي توجد فوق السكة التي من المفروض أن ينطلق منها القطار، كانت اللوحة مطفأة.

- اللعنة عليهم، القطار تأخر أكثر من خمس وأربعين دقيقة، ورفعًا للحرج، لم يعلنوا أي شيء، بل تمادوا في وقاحتهم وأطفأوا اللوحة الضوئية التي تحدد موعد انطلاق القطار ومدة تأخره. ما هذا الاستهتار بالمواطنين؟

توجه إلى مكتب مدير المحطة لكي يستفسر لكن المكتب كان مغلقًا. أخبره الحارس بأن مدير المحطة خرج في مهمّة رسمية. سأله إن كان يوجد هناك أحد كي يستفسر منه عن سبب تأخر القطار. فأجابه الحارس:

- يمكنك الاستفسار في الشباك.

كان الشباك ممتلئًا بالمسافرين الذين يرغبون في اقتناء تذكرة، وتلزمه أكثر من ربع ساعة في الطابور كي يصل إلى الشباك. سأل الحارس عن المسؤول الذي يمكنه أن يتقدم إليه بشكاية فأجابه:

- يمكنك أن تقدمها لمدير المكتب. لكن يوم الإثنين، فالإدارة لا تشتغل يوم الأحد.

عاد يوبا إلى زوجته، كانت الساعة تشير إلى الخامسة وخمس وأربعين دقيقة. استفسرت منه عن سبب تأخر القطار. شرح لها ماذا وقع فانفجرت غيظًا. تأملت جموع المسافرين، كلهم متبرمون، ولكن، لا أحد منهم رفع صوته بالاحتجاج. الساعة تشير إلى الخامسة وخمس وخمسين دقيقة. القطار لم يأت بعد. لا أحد أتى لكي يشرح سبب التأخر أو مدته. نهضت فاما من مكانها وتوجهت إلى الشباك، كان الطابور طويلًا. استسمحت الزبائن، ثم توجهت إلى المكلف بالشباك. سألته عن الشخص المسؤول عن المحطة نيابة عن المدير، دلها على مكتب جانبي يوجد به رئيس المصلحة. توجهت إليه وسألته عن سبب تأخر القطار... فأجابها بأن هناك عطب تقني. سألته:

- ولِمَ لم يتطوع أي أحد من المكتب كي يشرح للمسافرين سبب التأخر ويعتذر لهم؟

أجابها:

- تفاديا للإحراج. فقد سبق وأن قدرنا مدة تأخر القطار لكننا أخطأنا التقدير، خصوصًا، أنه لم تبدر من المسافرين أية ردة فعل أو احتجاج يستدعي الشرح والاعتذار.

أحست فاما بالدم يسري باردًا في أطرافها وبغصة في حلقها ورغبة في أن تتجشأ في وجه هذا المسؤول الذي لا يحترم مسؤوليته، لكنها قررت أن تكتم غضبها وأن تحوله إلى فعل. توجهت إلى اللافتة التي تحدد موعد وصول القطار في السكة المخصصة له وهي تقول:

- إنهم يحتقروننا... لم يأت أحد من أجل الشرح ولا للاعتذار. كأننا قطيع يسوقه السائس ويحرث به ولكنه لا يكترث لحاجياته ولا ينصت لأعطابه.

أجابها أحد المسافرين:

- القطارات تتأخر دائمًا، الاستثناء أن تأتي في موعدها. كل شيء متأخر عن موعده في بلدنا. شيء عادي.

تعالت أصوات المسافرين بين ساخر، محتج، ومستغرب. رفع أحدهم صوته ساخرًا:

- لن يسمعكم أحد ولو بُحّ صوتكم. إنهم جماعة من الصُّم فلا فائدة من الصراخ.
- أجابته فاما:
- إذا كانوا صُمًّا فأنا لم أخلق خرساء. من اختار أن يكون أبكمًا فليخرس للأبد. أما من يرفع عقيرته بالصراخ فقط حينما يتعلق الأمر بزوجته وأولاده وبعض المواطنين البسطاء... فأنصحه بالذهاب إلى طبيب نفسي لأن لديه حالة متقدمة من الشيزوفرينيا، ونقص مهول في الرجولة.

سرت همهمة بين الجموع سرعان ما تحولت إلى استنكار للحشد فتناهت إلى أسماع يوبا وأخرجته من استغراقه في القراءة. أحس بأن هناك شيئا ما ليس على ما يرام. خمن، ربما هناك من تحرش بزوجته

فأعطته درسًا أخلاقيًا جعل الجموع تستنكر وتحتج. عندما خرج إلى السكة وجدها تصرخ غاضبة:

- أفضل أن أموت شهيدة وأن يدهسني القطار على أن أعيش عيشة الذل والهوان.

ثم توجهت إلى سكة القطار ووقفت في منتصفها. توجه إليها يوبا وهو يحاول منعها لكنها صرخت في وجهه فلم يجد بُدًّا من التضامن معها. خرج أعوان السكة الحديدية يريدون أن يمنعوهما من عرقلة حركة القطارات لكنهما لم يستسلما لهما، لقد قاوما بكل شراسة كأنهما يدافعان عن أرض مغتصبة. تضامنت الجموع معهما، تحركت وتدحرجت موجة بشرية باتجاه السكة وقد قررت أخيرًا ممارسة حقها في الاستنكار والغضب.

خرج الشخص المسؤول يريد أن يتحاور مع الجموع الغاضبة، لكنهم تجمهروا حوله يفرغون غضبهم وحقدهم تجاهه مما جعل رجال الحراسة يفكون أسره بصعوبة. توجه المسؤول إلى داخل المكتب ثم بدأ يتكلم في الميكروفون:

- أنتم ترتكبون جنحة عقوبتها السجن. سأنادي على الشرطة... تحملوا مسؤوليتكم.

بدأت الجموع الغاضبة في الصراخ:

- هات الشرطة... هات الشرطة...

قالت فاما:

- إن لم تكن الشرطة في خدمة الشعب... فالسجن أهون.

تعالت أصوات المحتجين:

- هذا عار... هذا عاااار. هذا منتهى الاحتقار.

وصل مدير المحطة فتوجه إلى جموع المحتجين، وحاول أن يتفاوض معهم بطريقة ودية. ثم وصل معهم إلى حل. سيقلهم قطار جديد سينطلق من المحطة بعد خمسة عشر دقيقة. كانت الساعة تشير إلى السابعة إلا ربع. تفرقت جموع المحتجين شيئا فشيئا، وعندما قدم القطار، كانت الساعة تشير إلى السابعة وعشر دقائق.

لم يكن بإمكان فاما ويوبا مواصلة السفر لأنهما لن يستطيعا اللحاق بآخر باخرة متوجهة إلى إسبانيا في حدود الحادية عشرة ليلا. لذلك فكرا في العودة إلى بيتهما وإلغاء برنامج نهاية الأسبوع. كانت الحشود تتدافع من أجل الصعود إلى القطار. توجهت فاما إليهم وقالت لهم:

- يلزمكم أن تقدموا شكاية بالتأخر حال وصولكم. ستجدون المكتب لا يشتغل الأحد، لكن، قدموها الاثنين. لا أحد سيعرف بما وقع لكم إن لم تقدموا شكايات في الموضوع.

كانت تعلم بتجربتها أن الحشود لا ذاكرة لها، فسرعان ما ستنسى أمر الشكاية. لكنها قررت أن تعود يوم الاثنين كي تقابل مدير المكتب وتقدم شكاية في الموضوع. قال لها يوبا:

- وما فائدة شكاية يتيمة تقدمينها؟
- أجابته:
- إن تلك الشكاية تشبه تلك الورقة الملغاة التي سأضعها في صندوق الانتخابات. لا يهمني أن أقوم بهذا الفعل وحدي. يهمني فقط أن أقوم بواجبي ... وكفى. يكفيني ألا أكتم صرختي، ولأدع صداها يردده الوجود.

وحينما كانا في طريق العودة إلى منزلهما ظل يوبا يفكر فيما وقع، وفهم العلاقة بين العزوف عن المشاركة في الانتخابات وبين تأخر مواعيد القطارات.

الفصل الثالث:
ولتأتِ العاصفة !

قالت الشجرة: إذا لم تستطع أن تحول قلبك إلى جنة، فأنت لا تستحق الجنة، الجنة هنا... وهنا الجحيم.

(I)

بعدما عادت أريناس من أروبا كانت كمن أغلق بابًا وفتح بابًا آخر على المجهول. كانت سعيدة لأنها تحررت كفراشة من شرنقتها، لكنها في نفس الوقت كانت تخاف المجهول الذي ستواجهه. امرأة وحيدة مطلقة في مجتمع يعتبر المطلقة إما ضحية، أو امرأة سهلة. كان الفن وسيلتها لتفريغ ما يعترم بداخلها من إحساس باليتم. هاتفتها أختها من أجل أن تعود للعيش بالقرب منهم، لكنها اتخذت قرارها، ستحتفظ باستقلاليتها وستكتري منزلًا بعيدًا عن سكن الأسرة. لقد تربت وسط أسرة تحترم استقلالية الفرد، لذلك لم يلح عليها أحد كثيرًا، أما أختها فقد تفهمت أختها قرارها.

في أول يوم سكنت فيه بالمنزل، قرأت رواية "صمت الآلهة" ل "جيلبير سينويه" ويحكي فيها عن كلاريسا وهي روائية عجوز بصمت اسمها في حقل الرواية البوليسية، لكنها ستفقد القدرة على مواصلة الكتابة نتيجة لمرض ألم بأصابعها، وستعتزل بمنزل داخل جزيرة اسكتلندية. لكن، في إحدى الليالي سيلفت انتباهها حضور جثة رجل يلفظ أنفاسه الأخيرة وسط منزلها. دنت الروائية مرتجفة من الرجل، فوجدت أن حنجرته مذبوحة تمامًا والدم يسيل منها بغزارة مشكلًا بركة فوق السجاد. حاولتْ أن تستدرجه للنطق إلا أنه لم يسعه ذلك، لكنه أدخل يده في جيب سترته وناولها بتوسل مستطيلًا كرتونيًا صغيرًا.

عند مجيء الشرطة لم يبق أي أثر للجثة، الشيء الذي خلف داخل كلاريسا هلعًا وتوترًا كبيرين نجم عنهما سيل من الأسئلة: هل سقطت ضحية خيالها؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون سوى صورة ذهنية مجنونة اختمرت في ذهنها. أسئلة ستفقد مشروعيتها أمام استمرار وجود

المستطيل الكرتوني الذي يحتوي نصًا مرموزًا بحوزتها، إنه برهان قاطع على أنها لم تكن ضحية وهم، لكن من عساه يستوعب هذه القصة الغريبة؟ لم يتبق لكلاريسا من ملاذ بعدما امتنع محقق الشرطة عن تصديقها إلا صديقها البروفيسور ماكلين، هذا الأخير الذي لن يبخل عليها بشيء من أجل تفكيك رموز المستطيل.

بعد رحلة بحث طويلة ومرعبة راح ضحيتها أستاذ تاريخ الأديان باكوفيا وصديقه صموائيل شلونسكي، تمكنت كلاريسا من فك رموز المستطيل الكرتوني بمساعدة من الملاكين دانييل وساميل، حيث كشفت مجريات البحث أن الجثة التي ظهرت بمنزل كلاريسا كانت تجسد جبريل الذي سعى إلى إخبار كلاريسا بجرائم القتل التي ترتكب في الجنة ضد الملائكة، لعلها تساعده في الكشف عن هوية القاتل، فقد فككت أعقد الجرائم في رواياتها البوليسية. إلا أن القاتل وصل إلى جبريل وذبحه في منزلها قبل أن يخبر كلاريسا بمجريات الأمور. في نهاية الرواية، سوف تتمكن كلاريسا من تحديد هوية القاتل الذي لم يكن سوى الأخ التوأم للإله الصامت غير المبالي بالجرائم التي ترتكب، إنه إبليس الذي يراهن على أنه إذا ما حل الشقاء محل السعادة، سيعرض البشر عن عبادة الإله وسيعوضون حبهم له بكراهيته.

انتبهت أريناس إلى أنها قرأت الرواية دفعة واحدة واستغرقتها أحداثها طيلة اليوم. كان الجو حارًا، لذلك فتحت النافذة .لقد كان أثاث غرفتها بسيطا: سرير على الطريقة اليابانية منبسط على أرضية الغرفة، أباجورة، وبعض الزرابي المزركشة بالطرز الأمازيغية. مكتبة صغيرة، ودولاب من الحجم المتوسط. لم تكن هناك تلفزة بمنزلها. فقط، مشغل للموسيقى أوصلته بجهاز الفلاش ميموري (USB).

كان صوت فيروز يصدح بأغنية "المحبة" لجبران خليل جبران:

المحبة.. لا تعطي إلا ذاتَها..

المحبة.. لا تأخذُ إلا مِن ذاتِها..

لا تملُكُ المحبةُ.. شيئًا ولا تريدْ أن أحدًا يملُكها..

لأنّ المحبة مكتفية بالمحبة..

وقالتْ المِطرَة ثانيةً : حدثنا عنِ الزواجْ..

فـقـال: وُلِدتما معاً وتظلانِ معاً..

حتى في سكونِ تذكاراتِ الله..

ومعاً حينَ تبددُكما.. أجنحةُ الموتِ البيضاءْ..

كُونَا فَرِحَين.. غَنيا فَرِحَينْ..

إنما اترُكا بينكُمَا.. بعضَ فُسُحات..

لترقصَ فيها رياحُ السماواتْ..

تذكرت أنها لم تكن تحب زوجها لذاته، لقد أحبته لنسبه ووضعه الاعتباري داخل المجتمع ووجاهته، لذلك لم ترقص بينهما رياح السماوات. تذكرت يوبا، لقد أحست بانجذاب غامض نحوه لم تستطع تفسيره، فمنذ أول قصيدة أحست بأنه يتكلم لغتها التي لم تستطع التعبير بها عما يخالجها.

- لكنه متزوج، وهي لا تحب أن يسطو أحد على عالمها الصغير إذا ما تزوجت مرة أخرى.

لقد كان غامضًا، لا يحكي لها عن تفاصيل حياته، لذلك خمنت أن حياته ترزح تحت عبء اليومية والاعتيادية، ولربما انطفأت جذوة الحب التي اشتعلت يومًا بينه وبين زوجته لتفسح المجال للواجب

الاجتماعي. أحيانًا، يستمر الأزواج في العيش مع بعضهم البعض فقط من باب اللياقة الاجتماعية أو حفاظا على التماسك الأسري.

تذكرت أريناس بحثا علميا كانت قد قرأته يتكلم عن كيمياء الحب، ولقد قدرت خلاصات البحث مدته في ثلاث سنوات على أقصى تقدير.

- ربما يستمر البعض بعدما تتأصل بينهما الصداقة فتحل محل الحب. ربما، ذلك فقط ما يجمعه بزوجته، وإلا، فما الدافع الذي سيجعله يقبلها في مرسمها.

لكنها تذكرت أيضًا أن ما يجعل الحقيقة علمية هو قابليتها للدحض، بمعنى، إمكانية مقاومة الحب للزمن. لقد أحسّت بطعم العشق في قبلته، فلقد أغمض عينيه لبعض الوقت كمن يسبر أغوار بعد آخر داخل قبلتهما. لم يكن من نوع الرجال الذين يفقدون عقولهم لمجرد الاشتعال. كان متزنا، مرهفا، صادقا وشفافا حد التواري والاختفاء. أما قبلتهما فكانت تشبه قفزة المظلي في الهواء، لذلك خمنت أنها ستبقى معلقة لمدة طويلة بين الأرض والسماء. لا يهم بالنسبة إليها، إنها لا تسعى إلى تملكه، ولا تريده زوجا لها أو أن تسرقه من زوجته. إنها تريد فقط أن تعيش معه العشق بدون تملك ولا إكراه. أن تحس بالشغف الذي سيجعلها تحبل منه بأكثر من لوحة وعمل فني. لكن الأمر غير أخلاقي رددت بينها وبين نفسها. إنها لم تسع للتأثير عليه أو غوايته، لقد تطورت الأمور بينهما بمحض الصدفة، لذلك فعلاقتهما طبيعية. ثم ما المانع من أن تقتنص معه بعض اللحظات العشقية .إنها لن تسعى أبدا لكي تؤثر على علاقته بزوجته، ستترك الأيام تدبر ما بينهما بطريقة طبيعية. أليس كل ما هو طبيعي أخلاقي؟ تذكرت الإله الصامت في الرواية لذلك قررت ألا تتدخل وأن تترك الأمور تسير على طبيعتها لأنها بهذا الشكل تكون بصدد تنفيذ إرادته.

لقد كانت ترفض الأديان، وتجد أنها السبب فيما يحدث من تفرقة بين الأمم والشعوب. كانت تؤمن بأن الحقيقة توجد في الكثير من الأحيان خارج النصوص المقدسة، وربما كانت الرواية تكشف عن بعض الحقائق التي تبحث عنها. في هذه اللحظة بالذات اقتحم صرصار طائر عزلتها ودخل إلى غرفتها، ثم تعلق بستارة النافذة. تخيلته أول الأمر صرارا، اقتربت منه وعندما تعرفت عليه صرخت وهي تحس بالتقزز. أرادت طرده فدخل إلى غرفتها. أحست بالفزع الممزوج بالاشمئزاز مع رغبة في الغثيان. بحثت عنه فطار واستقر فوق سريرها. تقززت وهي تتخيل تقاسم سريرها مع صرصار لذلك اشتعل بداخلها كل الإصرار كي تقتله.

توجهت إلى الحمام وتناولت منشفة ثم عادت إلى السرير وأغمضت عينيها ثم وجهت إليه ضربتها، لكنه كان أسرع بديهة منها وطار داخل الغرفة فاستقر فوق الدولاب. صرخت، ارتعبت، وتسارعت دقات قلبها، وفكرت كيف ستقضي الليلة لوحدها مع صرصار داخل نفس الغرفة. تذكرت زوجها، على الأقل، لو كان معها لطرد الصرصار لأن الرجال يصلحون لأمثال هذه المهمات. فكرت أن تهاتف يوبا كي يبحث معها عن حل، لكنها لم تستطع ذلك فقد اقتربت الساعة من منتصف الليل. بحثت عن كرسي داخل المنزل، ثم اعتلته لتبحث فوق الدولاب، لكنها لم تجده. بحثت خلف الدولاب، ولم تجده أيضًا. لقد انشق جدار الغرفة وابتلع الصرصار. بحثت عنه طويلا دونما جدوى، وحينما أعياها البحث غيرت ملاءة السرير ثم جلست تنتحب كما لو كانت طفلة شهدت مصرع والديها في حادثة سير. بكت كثيرا وشهقت حتى انقطعت أنفاسها، ثم قررت أخيرا أن تستكين لرغبة الإله الصامت وأن تنفذ إرادته، فنامت بعدما أعياها النحيب.

عندما أنهى عبدو هذا المقطع، انتبه إلى أن المسبح أصبح غاصا بالزبائن. لمح صديقه النادل الأسمر واكتشف أنه لم يتناول قهوته بعد. توجه إليه مستفسرا منه عن السبب الذي جعله لا يتقدم إليه من أجل تلبية طلباته، أجابه النادل الأسمر مبتسما:

- اعذرني. نسيت. لقد فعلتها عشبتك اللعينة. هههه.

ضحك عبدو كثيرا ثم قال له:

- لا ينصح بتناول العشبة الطيبة أثناء فترات العمل، خصوصا إذا كان هذا العمل يتطلب تواصلا مع الآخرين. أما وعملك تحت الشمس فأخمن أن مخك قد يذوب فيسيل مخاطا من خياشيمك. ههه.

طلب منه عبدو عصير برتقال شربه على عجل، وعندما أراد أن يؤدي ثمنه رفض النادل أن يستلمه منه قائلا:

- على حسابي هذه المرة.

ألح عليه عبدو لكنه تمسك بموقفه بكل أدب ولياقة.

(٢)

عندما أنهى عبدو حمّامه الرملي استسلم لنوم عميق لم يستفق منه إلا قبل غروب الشمس. لقد نام في تلك الغرفة الحارة ولم يكترث بفعل التعب، كان منهكا إنهاكا لذيذا. توجه إلى باحة الفندق كي يتناول طعام الغذاء، لم يجد أحدا بالمطعم. كانت هناك سيدة خمسينية تغسل الأطباق. سألها عن النادل فأجابته بأنه ذهب لكي يتسوق حاجيات الغد. سألها إن كان قد ترك له وجبته، بحثت داخل الثلاجة ثم عادت قائلة:

- هل طلبت منه أن يحجز لك الوجبة؟

أجابها بالنفي. لتقول له:

- في المرة القادمة، إذا أردت أن تتناول طعام الغداء متأخرا يلزمك أن تعلم النادل بالأمر.

فكر عبدو ووجد بأنها محقة في كلامها. سألها إن كان بإمكانها أن تتدبر أي شيء يسد به رمقه. فتشت فوجدت بعض اللحم المفروم وقطع البطيخ الأحمر. طمأنته، ثم أعدت له الوجبة.

بعدما انتهى عبدو من تناول الوجبة شكرها كثيرا، ثم أدى لها ثمن الوجبة وصعد إلى مرقده في السطح حيث كان هناك نسيم عليل فتح شهيته لتدخين لفافة. لقد كان ألم الظهر قد بدأ يخف، لكنه أراد أن يتجاوز الاستعمال الطبي للعشبة الطيبة فيستعملها للسفر هذه المرة. كان السطح شاغرا لأن الزبائن يفضلون رؤية منظر الغروب قرب الكثبان الرملية حيث تأخذ الجمال قيلولتها، فمنظر الغروب وقرص الشمس الأحمر كانا يغريان بالتأمل والسفر في الملكوت. عندما أفلت الشمس وجد أن الفرصة مناسبة لكي يكمل كتابة الرواية.

حينما استفاقت أريناس كتبت رسالة هاتفية إلى يوبا تخبره برغبتها في لقائه لأن هناك معرضا فنيا كبيرا سينظم بمدينة إشبيلية، ولقد أرسلت لوحته مع بعض لوحاتها فاهتموا كثيرا بأسلوبه في الرسم، وطلبوا إمكانية أن يعرض لديهم. مرت ساعة لتصلها رسالة نصية من يوبا يخبرها بأنه سينهي محاضرة داخل الجامعة ثم سيلتحق بها لمناقشة اقتراحها. اقترح أن يلتقيا في الساعة الرابعة مساء في مقهى " كيرنيكا" الذي يوجد في تقاطع شارعي المقاومة والحرية.

عندما حان الموعد كانت أريناس أنيقة أناقة مختلفة هذه المرة. سروال جينز أزرق ممشوق على قدها وقميص صيفي في اللون الرمادي

المفتوح تتوسطه رسوم فرعونية أضفت عليه طابعا غرائبيا جميلا. لقد غيرت تسريحة شعرها فبدت أكثر شبابا وحيوية. دخلت إلى المقهى في الموعد المحدد فوجدت يوبا جالسا في ركن قصي من الجانب الخلفي للمقهى قبالة حوض أزهار الليلك وقف ليسلم عليها ثم سحب كرسيا لتجلس عليه. قالت له:

- بدون مقدمات. أريدك معي في المعرض.

أجابها:

- لكنني لا أملك إلا لوحة يتيمة.
- سترسم أكثر من لوحة.
- لست متأكدا من النجاح في هذا الأمر.
- لمستك تجعل اللوحة تبدو وقد رسمت للتو، إنها تحبل بحركية داخلية تجعل الألوان تظل طرية رغم مرور الزمن.
- لهذه الدرجة؟
- نعم. لقد تحدث لي المدير الفني لمعرض إشبيلية طويلا عن لمستك، إنه يشبهها بلمسة فان غوغ.

تذكر يوبا نوبات الصرع التي كانت تجتاحه وفكر طويلا في العلاقة التي يمكن أن تجمع بينه وبين فان غوغ. فضحك وهو يقول لها:

- أخاف أن تصيبني عدواه فأقطع أذني ذات نوبة صرع. ههه.

أجابته:

- مرحى بالصرع الإبداعي. ههه.

وعندما انتهيا من شرب قهوتهما كانا قد اتفقا على الأشغال سويا وأن يجعلا من يوم الغد حصتهما الأولى من أجل الاستعداد للمعرض.

عندما عاد يوبا إلى منزله بدأ يفكر في هذه المغامرة الفنية التي سيفتح أعينه عليها، فلقد أحس بنفسه كطفل وقد دخل عالما جديدا لا يخضع لقانون الجاذبية. لم تكن زوجته قد عادت بعد، لذلك فتح التلفزيون فوجد قناة تعرض فيلما إيرانيا مدبلجا باللغة الإنجليزية. كان يتحدث عن رجل وامرأة يقرران الانفصال. فالمرأة حصلت على تأشيرة للهجرة إلى إحدى الدول الأوروبية، لكن الرجل يرفض أن يرافقها. حينما يقفان أمام القاضي من أجل مباشرة إجراءات الطلاق يسألهما القاضي عن سبب الانفصال، فتجيب بأنها حصلت على تأشيرة للهجرة لكن الزوج يرفض أن يرافقها. وحينما يسأل الزوج عن السبب الذي يجعله يمتنع عن مرافقة زوجته، يجيب الزوج بأنه ملزم بالبقاء بجانب أبيه المريض بالزهايمر لكي يرعاه. تتدخل الزوجة قائلة:

- يمكنك أن تضعه داخل دار للعجزة. إنه لم يعد يعرفك.

فيجيب الزوج:

- نعم. إنه لا يعرفني، ولكنني أعرفه.

عندها، يتدخل القاضي فيسألهما عن خيار ابنتهما فيجيب الزوج بأنها تفضل البقاء معه. تعترض الزوجة قائلة بأنها ما زالت صغيرة ولا يمكنها أن تعي عواقب اختيارها، فمن شأن الهجرة إلى أوروبا أن تفتح أمامها أبواب المستقبل. لكن الزوج يقاطعها قائلا:

- إنها في الحادية عشرة من العمر، وتعرف كل شيء.

تأمل في هذا الموقف المحبوك فنيا، فالطفلة تنحاز لوالدها كما انحاز هو لوالده. إنها تتخذ معه نفس الموقف ضد مصلحتهما الشخصية. تأمل جمالية أداء الممثلين وتكثيفه، مما جعله يتتبع الفيلم بكل حواسه وينغمس داخل أحداثه، فقد كان يقدم له خبرة جمالية

وأخرى حياتية، كما كان يبعث بداخله لـذة جماليـة لا تعادلها إلا لـذة ممارسة الحب مع من نحب. وقبل أن تصل أحـداث الفـيلم إلى نهايتها دخلت زوجته فاما، كانت متعبة بعض الشيء بفعل ضغط العمل. قبلته على جبينه ثم دعته لتناول طعام العشـاء الـذي اسـتقدمته جـاهزا مـن الخارج، وبعدما انتهيا استأذنته كي تذهب للنوم.

توجه يوبا إلى غرفة المكتب وهناك تتابعت مشـاهد الفـيلم داخـل ذاكرته. تساءل:

- ما الذي يدفع زوجين يحب بعضهما البعض إلى طلب الانفصال؟

تفهم أن ينفصلا إذا كانت هناك مشاكل بيـنهما أو توقفـت المـودة وحل محلهـا الجفـاء. لم يـدر أينحـاز إلى موقـف الزوجـة أم إلى موقـف الزوج؟ من حق الزوجة أن تفكر في تطوير حياتهما بعيـدا عـن مجتمـع منغلـق ومحـافظ كـالمجتمع الإيـراني. لمـاذا لم يقـف إلى جانبهـا لـكي يساعدها؟ ألم يكن هناك مـن حـل إلا الانفصـال؟ وهـي لمـاذا لم تـتفهم ظروفه وعمق العلاقة التي تجمعه بأبيه؟ لقد انتهـى الشريـط بالقـاضي وهو يسأل الصبية عن الطرف الذي تختار أن تعيش معه، فتجيب بأنها حسمت اختيارها وهي تغالب دموعها. أما الأب والأم فقد ظلا ينتظران قرارها خارج المحكمة وعلامات الترقب والتـوتر باديـة عـلى وجـوههما. لقد انتهى الشريط نهاية مفتوحة ليترك للمتفرج إكمالها.

إن كل متفرج يتخذ موقفه انطلاقا مـن تربيتـه وقناعاتـه وعلاقتـه بأسرته، فموقف المتفرج الشرقي يمكن أن يختلف عـن موقـف المتفـرج الغربي، كما أن من عاش ظروفا أسرية صعبة في طفولتـه سـيتخذ موقفـا مختلفا عن من عاش في كنف أسرة تحيطه بدفئها. سأل يوبا نفسه:

- لو وقع في نفس الموقف فماذا كان سيصنع؟

تذكر وتده من جديد وعادت أحداث الماضي تتسارع داخل ذاكرته. تمنى أن يجده أو يجد قبره على الأقل، كان يريد أن يسأله لماذا فعل ما فعل؟ ربما لو وقع في نفس الموقف لاختار الانحياز لزوجته. أكيد. لكن، لو كانت أمه هي التي مرضت بالزهايمر أكان سيتخذ نفس الموقف؟ لا أظن، هكذا قال بينه وبين نفسه. وإذا افترضنا أن ظروفه المادية صعبة، وأن مستشفى أوروبا سيحسن أوضاعه المادية كثيرا، بإمكانه أن يكون أكثر نفعا لوالدته ولو من بعيد، فمريض الزهايمر يحتاج رعاية طبية خاصة وعناية مستشفى شيء الذي يستلزم مصاريف كثيرة ودخلًا شهريا محترما. ذكرته هذه الافتراضات بتلك التمارين التي كان يقوم بها غابرييل غارسيا ماركيز مع كتاب السيناريو في ورشة التخييل، ثم تذكر الدراسة التي يلزمه إكمال للاشتغال عليها حول أثر أدب أمريكا اللاتينية داخل الرواية المغربية.

كان يعشق عوالم غابرييل غارسيا ماركيز وجورج أمادو، وتذكر نوفيل البرازيلي، وزوربا اليوناني، تلك الشخصية التي ألهمت جيلا بأكمله. تذكر أيضًا أنه شاهدها فيلما من بطولة ممثل يمثل كأنه يكتب الشعر. أنطوني كوين. زوربا كان يحيا الحياة دون ذاكرة، ويكتشف كل شيء كأنه يراه للمرة الأولى. كان يندهش عندما يركل برجله حجرا ويستمتع برؤيته وهو يتدحرج فيرى كأن بداخله حياة تجعله يواصل الحركة من تلقاء نفسه، وكان يصرخ كطفل من فرط الدهشة. زوربا، كان يأخذ الحياة كما تأتي ويرقص محتفيا بالخسارات. لا يحاول أن يجهد نفسه لكي يقنع أحدا بفكرة أو بوجهة نظر، بل كان يقول: كفى يا نوربا. فكل امرئ يسير على هواه، إن الإنسان كالشجرة. ولا أظن أنك تشاجرت مع شجرة تين لأنها لا تحمل كرزا، أليس كذلك؟

فكر يوبا بينه وبين نفسه، لِمَ لم يفكر أحد الكتاب المغاربة بإبداع شخصية زوربا المغربي؟ ألم يكن المغاربة طيلة تاريخهم شعبا محتفيا

بالحياة؟ ربما تكمن المشكلة في مخيلة بعض الأدباء الذين يستسهلون الكتابة فيكتبون أول فكرة تخطر على بالهم، أمثال هؤلاء يصورون محبة الحياة في الأدب بنوع من "البؤسانية" إذ يرتبط عند أغلبهم بحياة البارات ومصاحبة العاهرات والليالي البيضاء في الحانات الرديئة. أكيد، إن خيال أديب يقضي حياته متسكعا بين البارات يلكز مؤخرة بائعات الهوى لن ينتج لنا إلا زوربا يروج للبؤس ويجعل القارئ يفتقد لشهية الحياة. تذكر مقولة غابرييل غارسيا ماركيز بأن الكاتب الحقيقي ليس صديقا جيدا للناشرين، بل هو صديق جيد لسلة النفايات، بمعنى أن ما يلقيه من مسودات داخل صندوق القمامة يفوق أضعافا مضاعفة ما يحتفظ به. كانت هذه الفكرة مدخل الدراسة التي يشتغل عليها وقادته لكي يبحث عن أثر الواقعية السحرية في الأدب المغربي. انكب على إكمال الدراسة، وفي غمرة انغماسه وصلته رسالة نصية على هاتفه المحمول، فتح الرسالة فوجدها قادمة من أرياس، تتمنى له فيها ليلة سعيدة. ابتسم بينه وبين نفسه ثم أجابها متمنيا لها بدوره ليلة سعيدة.

عندما أنهى اشتغاله توجه إلى غرفة النوم، كانت فاما مستغرقة في نوم عميق. توجه إلى السرير بكل هدوء وبدون أن يشعل الأباجورة، سحب الغطاء ثم استغرق في النوم.

(٣)

استيقظ يوبا في الساعة العاشرة صباحا. كانت زوجته تعد طعام الإفطار، اشتم رائحة الفطائر اللذيذة التي تعدها له كلما كان مزاجها رائقا. توجه إلى الحمام ثم استحم بالماء البارد لكي يحس ببعض الانتعاش، ثم بعد ذلك دخل إلى المطبخ. كانت فاما منهمكة في إعداد

القهوة التقليدية التي يحبها، بطعم ماء الزهر. احتضنها من الخلف ثم قبلها، وبعد ذلك ساعدها على إعداد المائدة. أثناء تناول وجبة الفطور سألته عن برنامجه اليومي فأجابها بأنه سيلتقي بأحد الطلبة الذين يحضرون رسالة الدكتوراه تحت إشرافه، وبعد ذلك سيتوجه إلى مرسم أفروديت لكي يبدأ في ممارسة هوايته الجديدة. استحسنت فاما الفكرة، وتمنت أن تزور معه المرسم في المرة القادمة وأن تطلع على بعض أعماله، فأجابها بأنه سيقوم بدعوتها لمشاهدة لوحاته كلما انتهى من رسم إحداها واقتنع بها. لقد كانت فكرة أن يقتنع بلوحة من لوحاته حيلة ذكية منه كي يؤجل زيارتها للمرسم أطول مدة ممكنة، فقد كان يخشى أن تشتم أثر حرائقهما العشقية فوق بياض اللوحات. تمنت له أن يستمتع بهوايته الجديدة ثم غيرت الموضوع. لقد كانت تثق في نفسها لذلك لم تحمل الموضوع أكثر مما يحتمل. بعد ذلك أخبرته بأنها ستسافر لمدة ثلاثة أيام من أجل المشاركة في مؤتمر حقوقي ينظم بالصحراء من أجل دراسة مقترح توسيع صلاحيات بعثة الأمم المتحدة لتشمل مراقبة حقوق الإنسان في المناطق موضوع النزاع مع جبهة البوليزاريو التي تطالب باستقلال الصحراء عن المملكة. قال لها:

- ولكنك تعرفين أن ورقة حقوق الإنسان مجرد مراوغة من أجل إشعال الفتنة في المنطقة.

أجابته:

- أعرف. ولكنه حقهم في التعبير، ويلزمنا أن نحترمه.

لم يكن يوبا يستسيغ أن تصل مناصرة زوجته لقضايا حقوق الإنسان إلى درجة الوقوف ضد مصلحة البلاد في بعض الأحيان، لكنها لم تكن من النوع الذي يمكنه أن يتنازل عن قناعاته بسهولة حتى ولو اقتضى الأمر تعذيبها أو نفيها خارج البلاد. لقد كان يعلم بأن النظام

السياسي غير خطته في التخلص من المناضلين الذين يزعجونه، فهو لا يحتاج إلى أن يزج بهم في المعتقل انطلاقا من آرائهم السياسية. إنه لا يريد أن يصنع منهم رموزا ولا أن يؤلب الرأي العام الدولي ضده. يكفي أن يلفق لهم بعض القضايا المدنية، كأن يحشو سيارة أحدهم بالمخدرات، أو أن يلفق له تهمة الخيانة الزوجية بعدما يعد سيناريو متكاملا حتى تثبت التهمة. كان يخاف عليها لأنه يعرف بأن رجالات النظام لا يتساهلون مع من يهددون الوحدة الترابية.

- فلتراقب بعثة الأمم المتحدة حقوق الإنسان في تندوف أيضًا.

قال لها يوبا. ثم أضاف:

- هناك حيث تنتهك كرامة الإنسان كل يوم، ويتم احتجازهم في ظروف مهينة. هل سيقبلون بالأمر؟
- إن الأمر يتعدى صلاحيات الهيئة، فهي مسؤولة فقط عن المناطق المتنازع عليها.
- وما الذي سيضمن ألا تصبح ورقة حقوق الإنسان طريقة لابتزازنا؟ ألم تتدخل الولايات المتحدة الأمريكية في السياسة الدولية للعديد من الشعوب باسم الدفاع عن حقوق الإنسان؟
- عندما تنتهك حقوق الإنسان داخل بلدك فأنت تعطي المشروعية للآخر من أجل أن يتدخل في شؤونك الداخلية. لذلك، فنحن عندما نناضل من أجل احترام حقوق الإنسان في بلدنا فإننا نساهم في استقراره ونضمن استقلاليته.

بعدما سافرت فاما توجه يوبا إلى الجامعة والتقى بالطالب الباحث هناك، قدم له بعض التوجيهات العامة، ثم بعد ذلك هاتف أريناس ليخبرها بأنه سيلتحق بها في المرسم.

كانت هناك في استقباله وقد أعدت له قطعة القماش التي سيرسم عليها، واختارت له تشكيلة خاصة من الأصباغ. كانت صوت المغنية اليونانية هاريس أليكسيو يصدح بأغنية "صلوات القديسين" وهي أغنية يونانية قديمة تنبذ الحرب وتمجد السلام. لقد كانت كل الأجواء مناسبة كي يحضر لديه المزاج الإبداعي الخلاق، لذلك انهمك بدون مقدمات في الرسم. كانت أريناس حافية القدمين ترسم ثم ترقص على أنغام الأغنية فوق اللوحة فترتسم آثار خطواتها، وعندما كان يرسم لوحته اقتحمت عالمه وهي ترقص. أحس كما لو كانت اعتدت على لوحته وأراد أن يحتج بطريقته الخاصة، فالتقط ريشة وغمسها في خلطة من الأصباغ ثم صبغ فستانها. جذبته إليها كي تمتزج الصباغة المتواجدة فوق فستانها بنتوءات جسده. ارتسمت لوحة بهية فوق صدرها بعدما تمسحت بتضاريس رجولته، وجدا الأمر ممتعا، لذلك أخذت مزيدا من الصباغة ثم صبغت ملابسه. وبعد ذلك سحبته إليه من أجل الرقص. رقصا فوق لوحتها، ثم وضعت بعض الصباغة فوق شفتها وقبلته. أحس بطعم الصباغة الممزوج بقبلتها فوق شفتيه وأحب ذلك، كانت قبلة بطعم مختلف، لذلك رسم أثر قبلته فوق عنقها. أحست بارتعاشة جعلتها تغمض عينيها قليلا كأنما تجمد الإحساس اللذيذ الذي شعرته لتجعله خالدا أبديا. لكن اللحظات الممتعة لا يمكن تخزينها أو الاحتفاظ بها طرية في ثلاجة ذاكرتنا. لذلك، اقتنصت قبلة، ثم أخرى... حتى وجدت نفسها تمارس الحب معه فوق اللوحة فامتزجت الأصباغ بجسديهما. وعندما وصلا إلى قمة نشوتهما صرخت فيه:

- أريد الارتواء فخصب رحمي.

كان يعلم بأن خصوبته ضعيفة لذلك أفرغ فيها كل حليب ذكورته وهو ينتشي. تأوهت في استرخاء وهي ترنو إليه بعيون ناعسة من فرط

الارتواء، وبعد ذلك أخذت بعضا من حليبه فمزجته بالأصباغ، ثم غمست ريشتها وهي تقول له:

- ستخرج اللوحة بطعم ذكورتك.

أجابها:

- أتمنى ألا تصيبك بعدوى العقم الإبداعي.

سألته:

- لماذا؟

أجابها:

- لأن مخلوقاتي أضعف من أن تخصب بويضتك.

قالت له:

- من يدري؟ ربما تستثيرها رائحتي فتبعثها من رقادها.

توجس يوبا بعض الشيء لكنها طمأنته:

- لن أطالبك بشيء، أتحمل مسؤوليتي كاملة لأنني أنا من طلبت منك أن تفرغ بداخلي عسل ذكورتك. أخمن أنه بطعم العسل. ههه.

عندما خرج يوبا من المرسم وعاد ليلا إلى منزله. استرجع تفاصيل علاقتهما وهو يأخذ حمّاما ساخنا. لقد تجاوزا الحدود ويبدو أن الأمور قد تخرج عن السيطرة فتدمر كل شيء. لكن، لماذا يفكر بهذه الطريقة؟ من يدري، ربما تعطيه الحياة فرصة كي يكتشف عوالم أخرى تخرجه من رتابة اليومي والاعتيادي الذي يثقل كاهله. ألا يستحق الأمر بعضا من المجازفة؟ ثم، ما الذي لديه كي يخسره. إنها مثله، تخاف على سمعتها وتريد أن تبقى علاقتهما سرية، بالإضافة إلى ذلك فهي امرأة ناضجة ولديها حس المسؤولية. لا بأس من بعض الجنون الذي يسمح للحياة أن

تبدو بألوان قوس قزح. أليست الألوان نتيجة مغامرة شخص أراد أن يجرب ألوانا جديدة بعيدا عن الألوان الأساسية؟ يلزمنا أحيانا الانحراف كي نستلذ طعم الاستقامة. ثم إننا لا يمكننا السير في طريق مستقيم دائما، وإلا خبطنا الأسوار وسقطنا في الحفر. من حقنا أن ننحرف أحيانا وأن نغامر ونجازف باقتحام مناطق مجهولة، يلزمنا فقط أن نضع نصب أعيننا مبتغانا وأن نعرف ما الذي نريده بالضبط. وما أريده من أريناس مجرد اقتسام غواية إبداعية وعشقية تجعلني أحس ببعض الشغف الذي يجدد الحياة. إننا عندما نعرف ما نريد فإن الأمور تبقى تحت السيطرة. هكذا قال يوبا لنفسه.

وعندما خرج من الحمّام أخفى الملابس التي تحمل آثار جريمته العشقية في صندوق السيارة حيث يضع العجلة الاحتياطية.

- لا بأس من بعض الذكرى؟

غمغم يوبا مبتسما. ثم أردف:

- من يدري، فقد أحتاجها ذات يوم من أجل إنعاش ذاكرتي الحسية.

وعندما وصل عبدو إلى حدود هذا المقطع أحس بالتعب فاستلقى قليلا، كانت الساعة قد تجاوزت الثانية صباحا، فبقي مستلقيا يتأمل النجوم حتى داهمه النوم.

(٤)

عندما استيقظ عبدو في الصباح تذكر أنه لم يهاتف أسرته منذ وصوله. لقد كان يوجد خارج التغطية، لذلك توجه إلى وسط المدينة كي يتصل من مخدع هاتفي. كان هاتف منزلهم يرن لكن لا أحد كان يرد.

اتصل بهاتف أخيه المحمول فسمع نبرة صوته منكسرة وحزينة. قال له أخوه:

- منذ يومين ونحن نحاول الاتصال بك؟

أجابه عبدو:

- ماذا وقع؟

قال له الأخ بصوت منكسر:

- إنا لله وإنا إليه راجعون.

- ماذا هناك؟

أحس بدقات قلبه وهي تتسارع ولم تقو قدماه على مطاوعته من أجل الوقوف. وعندما علم بأن أمه قد رحلت عن العالم فاضت الدموع من عينيه. فسأله:

- متى جنازتها؟

- فأجابه: دفناها البارحة.

- سأستقل أول حافلة كي أستقبل المعزين.

قالها عبدو وهو يغالب دموعه. ثم أضاف:

- ليست هناك تغطية هاتفية حيث نوجد.

وبعدما وضع سماعة الهاتف انفجر في نحيب طويل. لم يستطع أن يرى الطريق من فرط الدموع التي حجبت عنه الرؤية. تذكر كل تلك اللحظات الجميلة التي عاشها مع أمه، وتذكر أنه لم يكن على صلة وثيقة بها في الأشهر الأخيرة، فقد انجرف مع الحياة ولم يخصص وقتا للأسرة. أما عندما علم بمرضه فكان يتفادى اللقاء بها حتى لا تكتشف مأساته. كان يخجل أن يرى دمعها بتعبير محمود درويش. توجه إلى

محطة الحافلات ثم سأل عن أول حافلة ستسافر إلى مدينتهم، فأجابه مستخدم الشباك بأنها لن تخرج قبل الخامسة مساءً. سأله إن كانت توجد وسيلة أخرى للسفر؟ اقترح عليه المستخدم أن يستقل التاكسي إلى مدينة مجاورة تبعد مسافة مائتي كيلومتر، ثم بعد ذلك يمكنه أن يستقل الحافلة.

عندما كان يستقل التاكسي أحس بأن آلام ظهره خفت بطريقة كبيرة. لم يكن يستطيع أن يجلس في سيارة أجرة محشورا في مساحة ضيقة مع ستة ركّاب. كانت الآلام هذه المرة أخف، لكن ألمه النفسي كان لا يطاق. تذكر مقولة إينشتاين، "لا شيء يضيع، كل شيء يتحول"، فقال في نفسه:

- ربما تحول ألمي الجسدي إلى ألم نفسي.

كأن الحياة تريد أن تذيقه حقه من الألم. ربما كانت تصفي معه حسابا قديما، أو ربما تلاحقه لعنة متقادمة بأثر رجعي.

(٥)

عندما وصلت سيارة الأجرة إلى المحطة انتابته رغبة قوية في تدخين سيجارة محشوة بالحشيش لكنه قاومها، فلقد خاف أن تضاعف ألمه النفسي وتضخم هواجسه. توجه إلى محطة الحافلات، ثم سأل عن الحافلة التي ستتوجه إلى مدينتهم فوجد أنها ستنطلق بعد ساعة ونصف. اقتنى تذكرة السفر من الشباك مؤكدا على المستخدم أن يكون رقمها في الصفوف الأمامية قرب النافذة. كان يريد أن ينشغل عن هواجسه أثناء السفر من خلال تأمل مسار الحافلة وسط المناظر الطبيعية المتناثرة على جنبات الطريق. بعد ذلك خرج من محطة

الحافلات وتوجه إلى أحد المقاهي المتناثرة على جنباتها. تأكد من اتصال المقهى بالإنترنت عبر "الويفي"، ثم دخل وجلس في ركن قصي بعدما طلب قهوة سوداء. فتح حاسوبه النقال، ثم انشغل بالإبحار في النت. تذكر مايا، فبحث عن بطاقة الزيارة الخاصة بها ووجدها في حقيبة الحاسوب. تذكر أنه لم يرسل لها بعض المقاطع من روايته كما وعدها. فتح علبة رسائله الإلكترونية، ثم أرسل لها ما كتبه من الرواية إلى حدود إخفاء يوبا لمعالم جريمته العشقية في الصندوق الخلفي للسيارة. وجد أن هناك مجموعة من الرسائل الإلكترونية التي وصلته ولم يطلع عليها، أغلبها تعازي الزملاء في الوسط الفني، رسائل بعض الأصدقاء تريد الاطمئنان عليه. فتحها واحدة واحدة وقرأها لكنه لم يرد عليها. لفتت انتباهه رسالة إلكترونية واردة باسم فرنسي فيرو كوتيار. لم يكن يعرف أحدا بهذا الاسم. خمن، ربما تكون رسالة تحمل في طياتها فيروسا قد يدمر حاسوبه النقال. لم يعط برنامج مكافحة الفيروسات في حاسوبه أية إشارة في هذا الصدد. فتح الرسالة فوجد رسالة مكتوبة بالفرنسية تفيد ترجمتها إلى العربية ما يلي:

عزيزي عبدو،

أعتذر لك عن عدم كشف سابق معرفتي بك عندما التقينا في الحافلة، وإلا كان سيقتلك زوجي أو يسلمك إلى الشرطة. لقد شك في أبوته لطفلنا الذي يحمل بعض ملامح المغاربيين فطلب أن يجري تحليلا للحمض النووي، وكانت النتيجة سلبية. لقد اكتشف أنه ليس والده. لذلك اضطررت أن أحكي له عما وقع بيننا فقلت له إنني تعرضت لاغتصاب عندما كنت سائحة بالمغرب. وصلنا إلى حدود الطلاق لأنه اعتبر أنني خنته عندما لم أحك له الواقعة، فأقنعته بأنني لم أستطع ذلك تحت وقع الصدمة التي لم أتجاوزها إلا بمساعدة طبيب نفسي، وأنني

عندما تجاوزت الأزمة خفت أن يؤثر الأمر على علاقتنا خصوصا أنني لم أكن أعلم أن المغتصب أفرغ بداخلي حيواناته المنوية. طلب مني ألكسي بعد ذلك أن نأتي إلى المغرب كي نبلغ عنك لكنني أكدت له أنك هاجرت نهائيا إلى إسبانيا ولا يعرف أحد طريقة للاتصال بك. اقتنع زوجي وقررنا أن نربي ابنك وأن نتبناه لأنه طفل بريء لا ذنب له. ستقول، ولِمَ لا يكون الطفل ابن صديقك الرسام؟ سأجيبك، لأن صديقك اكتشف بعد ثلاث سنين من زواجه بأنه عاقر. أتمنى أن أراك يوما وأن تتعرف على ابنك، لقد وصل عامه الخامس وبدأت تظهر عليه أمارات الذكاء والفطنة. تجد صورته مرفقة بالرسالة. تحياتي القلبية.

فِيرُونيك كوتيار.

عندما أكمل الرسالة كان يرتعش ولا يعرف سبب ذلك. خليط من المشاعر المتضاربة تتكالب عليه، إحساس بالغبن والخذلان ممزوج بحزن عميق وإحساس بالذنب ورغبة في التقيؤ والغثيان. تكالبت عليه نوائب الدهر واحدة واحدة. تمنى لو أن عاصفة رعدية تمحقه أو أن تمسخه الطبيعة كلبا كي يتخفف من ثقل إحساسه بالذنب. أليست حياة الكلب أسعد من حياته؟ على الأقل، هناك نقطة مشتركة بينهما. فالكلب لا يسأل عن مصير حيواناته التي خرجت من صلبه فأفرغها وانتهت لحظة نشوته، إنه لا يكترث لكلبة ربما لم تر وجهه مطلقا بعدما ساقها قدرها إلى صندوق قمامة صدفة فاستغل الفرصة ليقضي وطره منها في تلك الوضعية. انتابته من جديد نوبة بكاء فانخرط في نحيب جعل رواد المقهى يستغربون للأمر، مما جعله يتوجه إلى المرحاض، وهناك غسل وجهه ووضع بعض الماء البارد فوق عنقه. استراح قليلا، ثم عاد إلى مقعده. نظر إلى ساعة المقهى فوجد أن موعد إقلاع الحافلة قد حان. نادى على نادل المقهى وأدى ثمن القهوة السوداء، ثم توجه إلى المحطة

على عجل. وجد الحافلة على أهبة الاستعداد للسفر، توجه إلى مقعده ثم استلقى وهو يتأمل المسافرين بعيون شبه مغمضة. مرت دقائق، فاستغرق في نوم عميق.

عندما وصل إلى المنزل وجد بعض المعزين من عائلتهم مع أخته. تقبل منهم واجبات العزاء، ثم عانق أخته طويلا فانخرطت في نوبة بكاء. تناول معهم طعام العشاء وعرف أن أمه كانت تهذي في لحظاتها الأخيرة وتطلب أن تراه، حاولوا الاتصال به بكل الطرق، لكن الأمر كان متعذرا. لقد رحلت وفي قلبها حرقة، كانت تتمنى أن تموت وهي محاطة بكل أبنائها. سألها:

- هل مرضت؟

أجابته:

- بعدما صلت الفجر، طلبت مني أن أناولها كأس ماء. ذهبت إلى المطبخ، وعندما عدت وجدتها تحس ببعض الدوار. طلبت مني أن أنادي على أخيك أحمد، كان قد عاد للتو من المسجد. دخل فوجدها تعاني صعوبة في التنفس وهي تنطق اسم عبدو. حاول أن يقدم لها الإسعافات الأولية بدون جدوى. حملها في سيارة توزيع الحليب، ثم توجهنا بها إلى قسم المستعجلات. لم يكن هناك الطبيب المداوم. كانت الأم تتطلب تدخلا عاجلا من الطبيب. نادى على الممرض، فوجده نائما في غرفة المكتب. طلب منه أن ينادي على الطبيب لأن الحالة مستعجلة لكن الممرض طلب منه أن يؤدي واجبات الصندوق قبل كل شيء. كان موظف الصندوق لا زال لم يستأنف العمل بعد. لذلك عاد وأخبره أن الأمر متعذر، وأنه سيؤدي واجبات الصندوق حالما يأتي الموظف المكلف بذلك. ذهب الممرض كي ينادي على الطبيب المداوم وعاد بعد قليل ليخبره أنه لن يكون هنا قبل

الثامنة والنصف صباحا. أحتج عليه أحمد وأخبره بأن حالة الأم حرجة وأن هذا الأمر يشكل استهتارا بحياة المواطنين. لكن الممرض قال له ساخرا:

- اذهب بها إلى مصحة خاصة، أما نحن، فنحن لا نشتغل مع أمك، إننا نشتغل مع الدولة.

احتج عليه أخوك قائلا:

- الدولة... الدولة تشغلك كي تخدم مصالح المواطنين، وأنت والطبيب ترتكبان جريمة عدم تقديم المساعدة لشخص في حالة خطر.

تناهت صرخات أحمد إلى مسامع شخص مربع الشكل فأتى مهرولا وهو يفرك عينيه ويغالب النوم.

- ماذا هناك؟ ثم صرخ في الممرض. لم أنم باكرا ليلة البارحة وأصواتكما أزعجتني.

تكلم أحمد قائلا:

- أنتم تستهترون بأرواح البشر.

نادى صاحب الشكل المربع على حارس المستشفى كي يطردنا لكننا قاومناه، فتدخل الطبيب والممرض لكننا ظللنا نصرخ:

- لن نخرج من هنا حتى يأتي الطبيب المداوم.

تكلم الشخص المربع قائلا:

- أنا هو الطبيب. وأنت متهم بإهانة موظف أثناء تأدية عمله.

احتج أحمد:

- كيف سأعرف أبنك الطبيب وأنت لا تلبس وزرتك؟

أجابه الطبيب متهكما:

- الوزرة لا يلبسها إلا الممرضون... أما الدكاترة أمثالي فلا يليق بهم أن يلبسوا وزرة كمعلمي المدارس الابتدائية.

تدخلت قائلة:

- أنت تهين مهنة الطب بكلامك.

تدخل الحارس ودفعنا إلى الخارج. ضربه أحمد فوقعت مشاجرة داخل المستشفى لم يتوقفا عنها إلا عندما صرخت صرخة مدوية تردد صداها داخل المستشفى بعدما اكتشفت أن أمنا قد فارقت الحياة. بعد ذلك تبين أن الطبيب المداوم متزوج من ابنة رجل نافذ في سلك القضاء. وهم الآن بصدد تلفيق قضية إهانة موظف أثناء تأدية عمله من أجل الزج بأحمد في السجن، ولقد أتوا بالممرض وحارس الاستقبالات وطبيب التخدير لكي يشهدوا زورا. لقد تحولت قضيتنا إلى قضية رأي عام. ولقد دخلتْ بعض الجمعيات الحقوقية على الخط. احتقن الدم في وجه عبدو فصرخ بدون أن يدري:

- أولاد القح... ثم ابتلع لسانه وهو يكظم غيظه ويتمتم:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

عند هذه اللحظة دخل أحمد منهكا، سلم على أخيه محاولا الحفاظ على رباطة جأشه ثم قال له:

- ستنظم غدا مظاهرة حاشدة أمام باب المستشفى، لقد حشدنا ما يكفي من الدعم لقضيتنا.

وفي الغد، كانت هناك جموع غفيرة من سكان المدينة تحتج أمام باب المستشفى، كان هناك بعض الشباب المنخرط في النضال الحقوقي يتزعمون المظاهرة الاحتجاجية ويرفعون شعارات تطالب بالتحقيق في

موت الأم بسبب الإهمال الطبي. بعد أيام تم نقل الطبيب من المدينة، ووضع عبدو شكاية أمام القضاء، حكم فيها بعد طول تأجيل بغياب الدلائل التي تزكي موت الأم بسبب الإهمال الطبي. أما الطبيب فقد رفع قضية ثانية بحق أحمد يتهمه بإهانة موظف حكم فيها القضاء بشهر من السجن موقوف التنفيذ.

لقد كانت لدى عبدو اتصالات مع مايا خلال تلك الفترة العصيبة، ولقد تعاطفت مع قضيته فقدمت من إيطاليا ثم أوكلت محاميا متمرسا استأنف القضية فتم إسقاط العقوبة السجنية مع الحفاظ على الغرامة المالية. حاول عبدو بمساعدة مايا أن يجعل من قضيتهم قضية وطنية، اتصلوا بالإعلام والجمعيات الحقوقية على المستوى الوطني، نظموا تظاهرة أخرى أمام المستشفى، حتى وصلت الأمور إلى وزير العدل شخصيا. أعاد التحقيق في الملف لكنه اضطر إلى إقفاله بدعوى أنه لا يمكنه التدخل في عمل القضاء لأنه سلطة مستقلة عنه، وإلا اتهم بمحاولة التأثير على استقلاليته.

(٦)

بعد ثلاثة أشهر من وفاة الأم حاول عبدو استئناف حياته من جديد. كانت علاقته بمايا قد تطورت بعدما اكتشف بعدها الإنساني العميق. لقد انتهت علاقتها مع كوسطانطينو بعد عودتها مباشرة إلى إيطاليا. أصبحت غيرته تخنقها فطلبت الانفصال عنه. اقترحت على عبدو أن يستقر معها في إيطاليا لكنه رفض بكل أدب قائلا:

- ربما لو طلبت مني الأمر قبل أربعة شهر من الآن لكنت قبلت بدون تردد. لكن، مرت أشياء كثيرة تحت الجسر. لن أترك هذا البلد

للمرتزقة والقوادين يفعلون به ما يريدون. سأدافع عن حق أولادي في الحلم بوطن يليق بأحلامهم.

ضحكت منه مايا قائلة:

- أصبحت رومانسيا، أنت أيضًا ممن انطلت عليهم إيديولوجية كبيرة اسمها الأوطان.

أجابها:

- الوطن بالنسبة إلي هم كل أولئك البسطاء الذين تعاطفوا بكل عفوية مع قضيتنا، لديهم دَيْن علي. لا يمكنني أن أرحل عنهم. الوطن ليس بحارا وأنهارا وجبالا نفردها للسائحين... إنهم أهلك، وعشيرتك، وكل من يتقاسم معك حلمك وجرحك.

سافرت مايا بعد ذلك لكي تشرف على أشغال مكتب الترجمة الذي افتتحته في مدينة ميلانو، أما عبدو فقد عاد إلى حياته الاعتيادية. كان ألم الظهر قد خف كثيرا. عاود زيارة الطبيب فوجد أن حالته تحسنت كثيرا فلم يعد بحاجة إلى الحقن. طلب منه فقط أن يغير من نظام حياته ويتوقف عن التدخين، ثم نصحه بممارسة السباحة. توصل بعرض من أجل التمثيل في مسرحية من إنتاج المسرح الملكي بالعاصمة، لكنه اعتذر لأنه لم يستطع مفارقة أخته التي كانت تحتاج لعنايته بعدما تطور لديها مرض السكري. بالمقابل، نظم مهرجانا مسرحيا دوليا داخل مدينته وأشرف على إدارته، واستطاع الحصول على بعض الممولين والمحتضنين من خلال علاقاته الشخصية كممثل، كما استفاد ماديا بعدما أدى أجور العاملين، ثم عاد إلى الكتابة من جديد.

بعد عودة يوبا من معرض إشبيلية أحس بأنه أضاف لحياته بعدا جديدا يتجاوز البعدين التقليديين اللذان كان ينظر من خلالهما للعالم، بعد

العلم وبعد الأدب. لقد أضاف بعدا ثالثا، إنه بعد الفن. كانت مشاغل زوجته فاما وارتباطاتها مكثفة، مما جعلها لا تحضر حفل افتتاح المعرض، لكنها استغلت فسحة من الوقت كي تمر في زيارة سريعة وخاطفة، ولقد فاجأتها حساسية زوجها الفنية واكتشفت بداخله فنانا مرهفا يحمل لمسة خاصة تكشف عن نفسها من خلال الألوان. وهناك تعرفت على أريناس. أحست ببعض الغيرة منها ومرت بذهنها خاطرة لكنها استبعدتها بسرعة حتى لا تجرح اعتدادها بنفسها. ولأنها تعرف أنها امرأة استثنائية قالت بينها وبين نفسها: لا تهمني التخمينات والافتراضات، فتلك شؤون نسائية لا تليق بي... يهمني ما أراه وما أسمعه.

بعد ثلاثة أيام من عودتهما اتصلت به أريناس تطلب منه اللقاء على عجل من أجل أمر مهم. كانت مرتبكة بعض الشيء ولم تدر كيف ستباشر معه الموضوع. ظلت صامتة وقتا طويلا مما دفعه ليستفسر منها عن سبب صمتها. أجابت أريناس وبدون مقدمات.

- أنا حامل.

وكأن يوبا لم يسمع جيدا ما قالته لذلك طلب منها أن تعيده على مسامعه مرة أخرى. هذه المرة تكلمت أريناس بكل هدوء وهي تنظر في عيونه:

- أنا حامل في بداية الشهر الثالث.
- هنيئا لك. يسعدني هذا الخبر لكنه لن يسعد طليقك بكل تأكيد. سيصعب عليه أن يعيش بعيدا عن مولوده.

أجابت أريناس:

- لكننا لم نمارس الجنس مدة أربعة أشهر قبل طلاقنا. لقد كانت علاقتنا جد متوترة لدرجة أنني هجرته في السرير.

سألها يوبا:

- هل كانت لديك علاقة مع شخص آخر أثناء تلك المدة؟

صمتت أريناس تحاول أن تبتلع السم الذي يقدمه لها فوق مقلاة ساخنة.

- أتظنني بائعة هوى أو مومس من مومسات آخر الليل.

أجابته أريناس بكل هدوء. تفاجأ يوبا من ردة فعلها لذلك قال لها مستدركا:

- قلت هذا لأنني أعلم تمام العلم أنني لم أستطع أن أخصب زوجتي طيلة مدة زواجنا، لقد شخّص لي الطبيب ضعفا كبيرا في الخصوبة.
- أمور الموت والولادة تتمرد على كل منطق. ربما كنت ضعيف الخصوبة لكنك لم تكن عاقرا أبدا. ربما كان يلزم لحيواناتك المنوية فقط استثارة من نوع خاص، إنك تعرف قوانين النشوء والارتقاء. أحيانا، تبحث الحيوانات المنوية عن تحسين النسل، لذلك تستثيرها الأنواع التي تحمل مورثات على قدر كبير من الجودة الكافية لاستمرار النوع الإنساني.

فكر يوبا في هذا التخمين بعض الوقت، وقلب الأمور من جميع الجوانب ثم قال لها:

- ربما. يلزمنا أن نتحقق من ذلك عبر تحليل الحمض النووي.

أجابته:

- نعم، يمكننا ذلك، لقد تطورت الأبحاث في هذا المجال، ويمكننا التحقق من ذلك عبر أخذ عينة من لعابك وأخرى من دمي. ولذلك طلبتك على عجل، لدي صديقة تملك مختبرا ويمكننا أن ننجز التحاليل لديها.

فكر يوبا بعض الوقت ثم قال لها:

أفضّل أن نجري التحاليل عند مختبر مشهود له بالكفاءة أتعامل معه بشكل دوري.

لقد زلزله هذا الخبر وجعله يفقد الثقة حتى في ظله، فكيف سيقبل بأن يذهب ليجري التحاليل في مختبر تملكه صديقتها. إن الأمر مصيري، وحتمي، وقد يقلب حياته رأسا على عقب.

- كما تريد.

قالتها بكل الاقتصاد الممكن في التعبير، وبكل حيادية. فكان له ما اختار رغم أنه لم يختر شيئا فكل ما وقع حدث صدفة. أليست الصدفة رب متنكر؟

أما عندما ظهرت نتائج الفحوصات وتأكد من أبوته للمولود القادم لم يدر أيفرح أم يبكي... ماذا سيقول لزوجته فاما؟ خانها... سقط في شرك الغواية... عشق امرأة أخرى... أم تراه سيتوسل بالفلسفة لكي يتحدث لها عن العود الأبدي عند نيتشه وعلاقة ذلك بالخطيئة الأولى التي طردت آدم من الجنة. وماذا سيكون رد فعلها وهي التي حلمت كثيرا بطفل يفتح الأفق لهما معا على المستقبل. ما هذا المنطق. لقد كان متأكدا عندما أفرغ عصارة ذكورته في أرينا بأن لا شيء سيحدث. كان الاحتمال الأقل توقعا أن يستعيد حيوان منوي معاق شهيته للحياة ويشترك في سباق المسافات الطويلة ينتهي بتتويجه ملكا فوق عرش بويضة صامت كثيرا عن الحياة. إن حيوانا منويا يملك أملا متناهيا في الصغر كي يحظى بفرصة تخصيب بويضة، ويبلغ في الحالات العادية نسبة **0.00000000000000025** في المائة. أما بالنسبة لحالته فيمكن أن تتضاءل تلك النسبة خمس مرات لتصبح **0.00000000000000005**.

ومع ذلك فعلها. ربما يستحق وسام الكفاءة من درجة فارس، هذا المنتمي إلى أصحاب الاحتياجات الخاصة. رفقا به، لم يرد أن يسميه حيوانا منويا معاقا كي لا يجرح كبرياءه. ظل مستكينا لعكاكيزه طويلا وحينما اشتم رائحة تحسين النسل رمى عكاكيزه في الهواء وظل يقفز وينط حتى خط الوصول.

- ما هذا المكر الوجودي؟ لم يعاشر أريناس إلا ثلاث مرات، مرتين في المرسم، والثالثة في الفندق بإشبيلية. ومع ذلك، وقعت الواقعة ولم تعد لوقعتها كاذبة. لقد أخذ جميع الاحتياطات كي لا تتحول لعبته إلى لعبة خطرة، ثم وارى جميع معالم جريمته العشقية، حتى القميص أخفاه في مكان لن يخطر على بال زوجته. لكل واقعته.

هكذا قال يوبا لنفسه.

بعد ذلك استجمع أفكاره من أجل اتخاذ قرار حاسم، ثم اتصل بأريناس وطلب منها اللقاء في مكان هادئ من أجل مباشرة المفاوضات. كانت الجولة حاسمة هذه المرة، ولذلك استفتح اللعبة دون أن يلعب أية ورقة، أرادها أن تكون أول من يكشف أوراقه. قال لها:

- ماذا تقترحين؟

أجابته:

- الأمر تحصيل حاصل وليست لدي أية إمكانية من أجل الاقتراح.

سألها ببراءة طفل مؤمن:

- ألا يمكننا الإجهاض؟

ابتسمت قليلا بسخرية خفيفة وتعمدت أن تصمت بعض الوقت كي تلعب على أعصابه ثم قالت له:

- [illegible] إرادته ولا يمكنني أن أتدخل فيها.

سألته:

- إرادة أي رب تقصدين؟

أجابته:

- بل إرادة القادم إلى هذا العالم. لا يمكنني أن أمارس القتل.
- إنه لن تقتليه، فلا زال لم ينل فرصته في الحياة بعد.
- إنه في شهره الثالث، ثم إن عملية الإجهاض فيها خطورة علي أنا أيضا، فقد نموت معا.

أجابته بلهجة حاسمة هذه المرة. ولذلك فكر يوبا طويلا وهو يقلب الأمور على جميع أوجهها ثم قال لها:

- وما العمل؟

أجابته بكل هدوء:

- ننتظر أن يولد، ثم سأطلب منك شيئا واحدا... أن تمنحه اسمك.
- ولكنك أنت من طلبت أن أفرغ بداخلك وأكدت أنك تتحملين المسؤولية. أليس كذلك؟
- نعم. لا أطلب منك أن تتحمل مسؤوليته، فقط، لا أريد أن يحمل ابني لقب "ابن الزانية".

فكر يوبا في هذا الأمر بعض الوقت ثم قال لها:

- ولكن القانون المغربي يمنع الاعتراف بالأبوة خارج مؤسسة الزواج. ما العمل؟

أجابته:

- نتزوج.

ابتلع يوبا ريقه بصعوبة عندما سمع كلمة الزواج. لكنها استدركت قائلة:

- نتزوج... وعندما يولد تمنحه اسمك وشهادة ميلاد ويمكنك حينها أن تطلّق.

فكر يوبا في هذا الاقتراح فوجده مناسبا لكل الأطراف. لكن، كيف سيفاتح زوجته؟ وماذا سيقول لها؟ هل سترضى محامية حقوقية ناضلت طيلة حياتها من أجل المساواة بين الرجل والمرأة أن تكون زوجة ثانية؟ ولكن الأمر صوري، هكذا قدر الأمر بينه وبين نفسه. ثم فكر، وقدر:

- سأحاول أن أقنعها.

(٧)

عندما عادت فاما من السفر استغل مزاجها الرائق ليفاتحها في الموضوع بعدما أعد ما يكفي من السيناريوهات في ذهنه. كان كجراح يريد أن يستأصل ورمًا خبيثا داخل دماغ زوجته. كان كمن يمشي فوق حقل ألغام، وقد تركته يتحدث طويلا ولم تقاطعه. ظلت فاما هادئة حتى اطمأن وظن أنها ستقبل ما سيقترحه عليها. وعندما انتهى من كلامه، توجهت إلى غرفة نومها وبدأت تجمع أغراضه، وضعتها في حقيبة ثم حملتها إلى خارج المنزل وهي تقول له بكل هدوء:

- تفضل، ستجد بالتأكيد فندقا هادئا كي تعيد التفكير في حماقاتك.

أربكته صدمة المفاجأة ولم يدر ماذا سيفعل. لكنها أطلقت عليه رصاصة الرحمة قائلة:

- لا بأس، يمكنك أن تضاجع مومسا رخيصة هناك لعلها تعيد إليك رشدك.

وعندما خرج صفعت في وجهه الباب ودخلت إلى غرفة نومها. أحست بعرق بارد يتصبب فوق جبينها ويسري فوق فقرات عمودها الفقري، تسارعت دقات قلبها وأحست بدوار خفيف. رغبة في الغثيان انتابتها لكنها قاومتها وهي تبتلع ريقها من فرط الإحساس بالمرارة. تذكرت كم أحبته وهو يتحدث داخل حلقيات الجامعة عن العدالة الاجتماعية. وتذكرت أيضًا يوم أحرقا معا العلم الأمريكي أثناء اجتياح العراق، فهناك تعرفت عليه ومنذ ذلك الوقت لم يفترقا. وحتى عندما سافرت إلى فرنسا وقضت هناك سنتين لتنجز بحث الماستر لم تنقطع اتصالاتهما ولم تخب جذوة عشقهما لذلك ظلت تأتي لتقضي معه أوقات العطلة الدراسية. لقد كانت تنتابها بعض الظنون بأنه يخرج مع أخريات بكل سرية. لكنها لم تكن تعر تلك الظنون أدنى اهتمام، فلقد جعلها تكوينها الحقوقي تتعامل مع الأدلة المادية الملموسة. وحتى عندما حدثتها صديقتها عن بعض مغامراته العاطفية اعتبرت الأمر مجرد غيرة نسائية وأجابتها بكل ثقة:

- إنني أمنحه ثقتي كاملة إلى أن يثبت العكس عبر دليل مادي ملموس.

أما عندما كانت تنتابها الظنون فتخيلت أكثر من سيناريو، أن تدخل إلى قاعة سينما لمشاهدة فيلم مع صديقاتها فتجده يقبل إحدى طالباته في الظلام، أو أن تذهب إلى مقهى على شاطئ البحر فتراه يتنزه برفقة امرأة تشبك أصابع يدها في يده. تخيلت حتى أن تعود يوما بعد سفر طويل فتجده مع امرأة فوق سريرها. لكن، أن ينجب مع امرأة أخرى ثم يقرر الزواج منها لتصبح زوجته الثانية فهذا ما لم يدر أبدا

بخلدها ولم تتصوره أبدا. لقد عاشت طيلة حياتها تناضل من أجل المساواة بين المرأة والرجل. ولقد كانت تحاجج الأصوليين في حلقيات الجامعة بخصوص آيات الإرث والتعدد وكانت ترى في الأمر ظلما كبيرا في حق المرأة. كيف للرجل أن يتزوج بأكثر من امرأة بينما يمنع عليها الحق نفسه؟ وكيف تأخذ الأنثى نصف نصيب الذكر من الإرث. يومها أجابها أحد الإخوان بأن للرجل القوامة في الإسلام، لأنه ملزم بأن يصرف على مؤسسة الزواج بينما المرأة غير ملزمة بشيء. ثارت ثائرتها حينها وانفجرت في وجهه قائلة:

- تريدون استعباد المرأة بهذه الطريقة المهينة حتى تظل تحت سلطتكم المادية، تريدون أن تعيش في ظلكم خاضعة فتتزوجون عليها مثنى وثلاث ورباع؟ بئس الاستعباد لأنكم بهذه الطريقة تعيدون إنتاج معايير استعبادكم أيها الرجال. إنك تستعبد أمك ولا تطلب حينها منها أن تعلم أبناءك الحرية. امرأة مستعبدة لن تنتج إلا جيلا من العبيد.

أرغى الإخوان وأزبدوا ثم كشروا عن أنيابهم بكل الحقد الذي يعتمل داخل قلبهم، وقامت معركة بينهم وبين الرفاق داخل ساحة جامعة فاس حيث كانوا يدرسون. لقد استعملت فيها السيوف والسلاسل الحديدية وحتى قنابل المولوتوف منزلية الصنع. تحولت الجامعة حينها إلى ساحة حرب حقيقية لم تتوقف إلا بعد تدخل الحرس الجامعي وقوات التدخل السريع. ولقد تمت اعتقالات في صفوف الإخوان والرفاق لكنها استطاعت النفاذ بجلدها بعدما برأها التحقيق من المشاركة في العنف الدائر بين الطرفين. كانت تكره العنف وتنتقد فصيل الرفاق على ذلك، لكنهم كانوا يجيبونها بأنهم يمارسون عنفا ثوريا، وهذا النوع من العنف شرعي لأن الهدف منه تحقيق العدالة

الاجتماعية التي تحلم بها القوات الشعبية. لم تتفق معهم أبدا، ولذلك عندما اندلعت شرارة العنف فرت إلى الحي الجامعي. وتلك كانت قطيعتها مع اليسار حيث توجهت بعدها إلى العمل الحقوقي كمناضلة تطمح إلى تحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة. لم تتصور أنها بعد كل هذا العمر الطويل من النضال ستجد نفسها زوجة ثانية. الفقيه الذي كنا ننتظر بركته دخل المسجد منتعلا بلغته؟

يوم قررت الزواج منه تحدت الجميع من أجله. لقد كانت ابنة عائلة فاسية عريقة، وكان ابن البادية الذي قدم إلى فاس من أجل الدراسة. كان فقيرا معدما وكانت عائلتها غنية، ولذلك رفضت تزويجها منه. لكنها تحدت الجميع وتزوجته مما جر عليها السخط العائلي. كانت تقول لهم:

- قوموا بالشطب على اسمي إذا أردتم من كناش الميلاد، لا يشرفني أن تزنوا الناس بموازين الذهب والفضة والأعراق. أحببته، لأنني وجدت فيه الإنسان، ولم ألمسه في الكثير من أبناء العائلات العريقة الذين تقترحونهم علي من أجل الزواج.

لكن الأسرة تمسكت برفض الزواج، بدعوى أن تقاليد الأشراف لا تسمح بذلك. ولذلك قالت لهم:

- سأخرج طوعا من سلالتكم وأدعكم لذواتكم الزائفة.

ثم لم تعد بعدها إلى منزل الأسرة. تزوجت يوبا وتنازلت طوعا عن اسمها العائلي كما تنازلت عن الامتيازات التي يمنحها لحامله في دولة تجعل من الاسم العائلي العريق بطاقة بيضاء. قاطعتها عائلتها لمدة طويلة لأن بنت الأشراف لا يمكنها أن تتزوج ابن بائعة الخبز التي تملك تاريخا أسود في الحانات. أمها فقط التي بقيت على اتصال معها بدون علم من أحد.

استمرت القطيعة لمدة خمس سنوات، ثم بعد ذلك عادت المياه إلى مجاريها. فبعدما ناقش يوبا رسالة الدكتوراه وأصبح أستاذا جامعيا جرت مياه كثيرة تحت جسر المحاباة بينه وبين العائلة الشريفة. لكن جرحها لم يندمل.

- ألم تكن عائلتها على حق؟

هكذا رددت بينها وبين نفسها، ثم غرقت بعدها في بحر من التخمينات والأسئلة.

- ماذا كان سيحدث لو تزوجت أحد أبناء العائلات العريقة الذين كانوا يخطبون ودي؟ كيف استطعت أن أتغاضى كل هذه السنين على خياناته؟ أكنت أنتظر أن أجده مع امرأة أخرى في سرير نومنا؟ والغريب أنه لم تكن تبدو عليه أبدا مظاهر الخيانة. لقد كان منضبطا معي في مواعيده ولم أشتم أبدا عطرا نسائيا في ملابسه. وحتى عندما يسافر كنت أظل على اتصال هاتفي معه أغلب الوقت... لكنه يعشق الجرائم العشقية الكاملة. لقد كان حدسي يقول لي إنه طاعن في الخيانة ولم أكن أصدق حدسي الأنثوي.

سرت بداخلها حرارة اشتعال الغبن الممزوج بالمرارة. أحست بجفاف في الحلق فتناولت قارورة مياه معدنية ثم شربت ما بداخلها جرعة واحدة كأنها تريد أن تطفئ النار التي تضطرم داخل أحشائها.

- الخيانة... كم أكره الخيانة. كان بإمكاني مسامحته لو تعلق الأمر بنزوة عاطفية أو جنسية عابرة. أما أن يتزوج علي بثانية بعد كل هذا العمر من النضال من أجل المساواة بين الرجل والمرأة في الحقوق... فهذا ما لم أتوقعه أبدا.

انتابتها رغبة في الغثيان عند تخيلها لزوجها يرتب بينها وبين الزوجة الثانية مواعيد الممارسة الجنسية. تقززت أكثر حينما تخيلته يضاجعها فتشتم فوق جسده رائحة الأخرى.

- أحقا ينتهي صغيرا كل ما بدأ استثنائيا وكبيرا؟ بعد أكثر من أربع سنوات من العلاقة داخل الجامعة وخمس سنوات من الزواج والأحلام يتهدم كل شيء في رمشة عين.

لم تستطع فاما النوم طيلة تلك الليلة وظلت فريسة لهواجسها. وعندما أدركت بأن النوم قد رحل عنها دونما عودة أشعلت ضوء الأباجورة الخافت، وظلت تتأمل وجهها في المرآة التي تقابل السرير. لقد ظلت ترى صورتها في المرآة وهي تهوي نحو وادي الظلمات.

وبعد يومين وصلتها رسالة نصية منه على هاتفها المحمول:

زهرتي الجورية،

لن أقتل روحا لأحيي أخرى، فلست بقاتل، ولن أغير مسار ورقة التوت التي يجرفها النهر. يلزمني أن أكون بجانب امتدادي حتى يشتد عوده، وحينها يمكنني أن أرحل بعيدا عنه. سأتزوجها وبعد ذلك سننتظر ما ستقترحه علينا الحياة. هناك نقلة حتمية يجب أن أنجزها وليس لدي هامش للاختيار. أعرف أنك لاعبة شطرنج متمرسة في قراءة نوايا الخصوم، لكني أؤكد لك أنك هذه المرة لن تحتاجي إلى قراءة ما وراء النقلة، فأنا لا أقوم معك بمناورة في لعبة الشطرنج، إنني فقط أنجز نقلتي الحتمية حينما لا أنزع حق أحد في الحياة. إنه ليس ملكي كي أقرر في شأنه، إنه ابن الحياة. سأتزوجها كي أمنحه اسمي العائلي وبعد ذلك سنرى ما ستقترحه علينا الحياة.

أحبك.

في الصباح اتصلت به فاما كي تباشر مراسيم الطلاق. حاول يوبا أن يثنيها عن الأمر أكثر من مرة مذكرا إياها بأنه ما زال يحبها لكنها أصرت

على موقفها. إنها لا يمكنها أن تعيش خارج قوانين المنطق على هامش الخطأ. الحق حق، والخيانة أكبر من تغتفر. هكذا رددت بينها وبين نفسها. ربما كانت عقلانية أكثر مما ينبغي، وربما كانت تريد الانتصار لكبريائها أكثر من الانتصار للحق.

بعد يومين توجها إلى العدول وهناك حررا ورقة الطلاق. نفح العدلين ورقة من فئة الخمسمائة درهم. وفي الغد، عاد إليهما لكي يتزوج أريناس. اندهش العدلان لكنه لم يجعلهما يطيلان كثيرا دهشتهما فلقد قال لهما:

- حررا تلك الورقة التي سنمزقها بعدما تستقبل الحياة مولودها. الحب أكبر من وعد التزام، والزواج وعد بأن نظل معا إلى الأبد. إن الحب يباغتنا، ويفاجئنا... لكن الزواج يطفئ دهشته، وقد يطفئ معه كل شيء، فلم نعد بما لا نستطيع أن نلتزم به؟

نظر إليه العدلان بكل بلاهة كأنه قادم من كوكب آخر. وعندما باشرا إجراءات كتابة العقد طلب منه أحدهما أن يسلمها المهر كي يكتب مقداره في العقد. لكن أريناس امتنعت قائلة:

- لا أريد مهرا فلست بضاعة ليشتريني.

أصر العدلان على الأمر لكنها رفضت بشدة. عندها قال لها أحدهما:

- لا يصح عقد الزوجية بدون مهر لأنه من أركان الزواج. إذا كنت تودين التنازل عنه فأقترح أن يكون درهما كما ثبت في السنة النبوية.

أجابته: أقبل بدرهم رمزي...

ثم استدارت بوجهها ناحية يوبا وأمسكت يده وهي تنظر في عينيه بكل أنوثة، وأكملت مقدار المهر قائلة:

- وقصيدة.

أجابها قائلا:

- سأكتب لك قصائد لن أنشرها أبدا... حتما ستكون الأجمل.
- لكنني لا أحب التملك في الحياة كما في الكتابة. اكتب كما بدا لك فإنني كالماء سأغمرك، لتعرض على الملأ نشرتك العشقية.

أكمل جملتها وهو يقول:

- وربما أعرض على الملأ قصيدة مرسومة في الهواء. قصيدة أحلم بها... ويمكنها أن تتحقق معك.

(٨)

بعد شهر من الغياب عادت مايا وهي تحمل قدرا كبيرا من الشوق لعبدو. وبعدما اطلعت على مقاطع كبيرة من روايته أصبحت متشوقة لمعرفة النهاية، لذلك اقترحت عليه قضاء الأسبوع بأكمله معا في منزلها الريفي الذي يطل على شاطئ المتوسط، فربما يلهمه ذلك كي يكتب نهاية تليق بشعوب المتوسط العاشقة للحياة. وهناك، اكتشف مايا من جديد. فبقدر ما كانت ماجنة في استهياماها الجنسية فقد كانت شديدة الخجل تعتريها حمرته كلما حاولا تحقيق ذلك، فتحس بخجل رهيب ويخفق قلبها أشد الخفقان عندما يقترب منها. ولقد كان يقول لها دائما بأن خجلها ليس طبيعيا، إنه يترجم خوفها من أن تبدو عارية بكاملها أمام من تحب. اقترحت عليه أن يمارسا الحب في الظلام كأنها تريد أن تستعيد معه عذرية جسدها الذي فقدته عندما انغمست في الحدود القصوى للذة حتى أصبحت تتقزز من جسدها. كانت تقول له

إن اللذة استعبدتها لذلك فهي تود أن تعيد تحقيق المصالحة مع جسدها عبر الحب، وتريد أن تفنى في هذا الحب لعله يحررها من استعباد اللذة لها، وأنها لن تحقق الخلاص حتى تصلب نفسها فوق صليب المحبة، فتستحيل رمادا يبعث معدنها الأصيل من بين الأنقاض.

كانت مايا تعشق البحر وترى فيه خلاصها، وكان يعشق الصحراء لأنها تعيده إلى نفسه، لعله كان يراها بمثابة واحة داخل صحرائه. حكت له عن تطرفها في انسياقها وراء الملذات انتقاما من سلطة المجتمع الذكوري، وكيف أنها لم تكن تحمل عاطفة تجاه والدها لكنها لم تكن تجرؤ أبدا على كراهيته. فلقد ولد بداخلها تناقضات لا زالت ترخي بظلالها على حاضرها. لقد تربت في بيئة محافظة داخل مجتمع ذكوري منغلق على نفسه داخل الريف المغربي، ومنذ صغرها كانت تلمس التمييز الذي يمارسه الأب فيعطي للذكر امتيازات يحظرها على الأنثى. لقد كان والدها نتاجا أيضًا لمجتمع ذكوري يعاني بدوره من عقدة الأب، لذلك أعاد إنتاجها في أبنائه. حكت له يوم ضبطها وهي تتلصص من خلف النافذة على شقاوة ابن الجيران وهو يعترف لها بحبه الطفولي ويشير بإصبعه إلى رمز ذكورته وهو يقول:

- هنا يوجد الحب.

أخذها أبوها من شعرها ثم أدخلها إلى غرفة الذكور بعدما أخلاها بكاملها، وهناك جردها من كل ملابسها ثم أشعل سيجارته وكوى بها فرجها. لا زالت تحمل ندبا ينزف داخل ذاكرتها، لذلك كبر معها الحقد على مجتمعها الذكوري وظلت تنتظر أول فرصة للانتقام، وحينما بلغت العشرين منحت بكارتها لأول عابر سبيل. ثم بعد ذلك انغمست في اللذة بكل التطرف. لقد كانت تتفرج على الأفلام البورنوغرافية خلسة مع صديقتها ثم تطبق معها ما تراه، وبعد ذلك جرفتها المتعة بعيدا

فأصبحت تطبق جميع الاستيهامات الجنسية التي تشاهدها، حتى أصبحت مازوشية تتلذذ بمن يعذبها وهي تمارس الجنس.

لقد كانت تترجم فقط عقدتها الطفولية فتنتقم من جسدها كأنها تنتقم من الأب. لقد كان جرحها ينزف أكثر كلما انغمست في اللذة أكثر لكنها لم تكن تبالي، فانجرافها كان هروبا إلى الأمام بعيدا عن جرح الذاكرة. لم تتخلص من ذلك الأمر حتى بعد هجرتهم إلى إيطاليا، إذ حملت معها ازدواجيتها ولم تتخلص منها إلا بموت الأب. أنداك، أرادت أن تستعيد عذريتها من جديد. ولقد كانت تقول لعبدو إنها لمست فيه ما لم تلمسه في كثير من الرجال، فقد كانت تحس معه كما لو أنها تفتض بكارتها في كل مرة يمارسان فيها الحب، لذلك كانت تصر على ممارسته معه في الظلام. و لقد أحب عبدو ذلك، بل اكتشف الإمكانات اللانهائية التي يمنحها الخيال عندما نمارس الحب في الظلام. كانت مايا تقول له إن النكاح يشبه الإيمان، لذلك فهي تعتبر نكاحهما بمثابة طقوس تعبدية في محراب الحب.

كان عبدو قد انقطع عن تدخين الحشيش بعد علمه بوفاة الأم لكن مايا أصرت عليه أن يدخن معها لفافة تؤرخ لبداية جنونهما. فكر بعض الوقت، ثم قرر الموافقة. وعندما نفث أول نفس أحس ببعض الدوار الخفيف... آآآآه. كم يشتاق للعشبة اللعينة. انتابته بعد ذلك رغبة في الكتابة. لذلك توجه إلى حاسوبه المحمول وبدأ يكتب. كان متشوقا لمعرفة نهاية الرواية، وكان يريدها خارجة عن المألوف.

(٩)

مرت ستة أشهر على زواج يوبا من أريناس، وكان سعيدا معها سعادة طفل قدم من جديد إلى الحياة. لم تكن تلزمه بشيء، بل وصلت بها الجرأة إلى درجة أنها سمحت له بمضاجعة أخريات، شريطة، ألا يفعل ذلك إلا بعدما يغرق معهن في الحب. كان ذلك ميثاقهما، وقد أحب ذلك. كان يحلو لها أن تذكره بشخصية الرسامة المكسيكية فريدا كاهلو، لذلك دعته لمشاهدة شريط سينمائي عنها ثم قالت له:

- إذا كانت فريدا قد سمحت لزوجها أن يضاجع أخريات شريطة أن يظل مخلصا في حبه لها، فإنني معك أقلب المعادلة، فأنا لم أمارس معك الحب إلا بعدما غرقنا معا في الحب. لذلك لا يمكنني أن أمنع عن أخرى ما سمحت به لنفسي.

ويبدو أن يوبا وقع في الفخ، فلقد ظل وفيا لها طيلة تلك المدة لأنه لم يحب امرأة أخرى، لكنه كان يحس في نفس الوقت بأنه حر. إن الرجل لا يقع في الحب مرات كثيرة طيلة عمره، لكنه قد يستثار جنسيا أكثر من مرة في اليوم. لقد كانت تصور له حياتهما كمن يقطن بمنزل مفتوح السقف على السماء والأفق، وتذكره دوما بالقصيدة التي أشعلت شرارة الصدفة التي قلبت كل حياتهما رأسا على عقب. وكانت تقول له:

- لكل قصة عشق نهاية. لكن أجمل العشق ما يملك أكثر من بداية، إنه يجعلنا ننفق العمر ونحن نختلق البدايات.

لقد كان يحس معها بأنهما يبتدئان قصة عشقهما مع مطلع كل يوم جديد.

كانت الاستعدادات على قدم وساق من أجل المشاركة في البنيالي العالمي للفن التشكيلي بمدينة مراكش، فتحول منزلهما إلى ورشة كبيرة. وتزامن يوم الافتتاح مع إشرافه على ندوة علمية داخل الجامعة بحضور بعض الأساتذة من جامعة السوربون بباريس. لذلك طلبت منه أريناس أن يهتم بالإعداد للندوة وتفرغت من أجل إكمال الأعمال الفنية التي سيشاركان بها معًا، لكنه كان يحلو له أن يأخذ وقتًا مستقطعًا في كل مرة لكي يضع لمسته على كل عمل فني جديد. وكانت تعشق ذلك، بل تقول له إن طفلهما يشاركهما أيضًا في عملية الخلق الفني وهو يضرب بكلتا رجليه بداخل بطنها لكي يجعلها تأخذ باقتراحاته. تعلق يوبا بامتداده وأصبح ينتظر لحظة الولادة، كمعطل عن العمل ينتظر فقط لحظة الإعلان عن نتائج مباراة اجتازها.

عندما حان موعد الافتتاح، ودعها يوبا على أمل اللحاق بها في اليومين الأخيرين للبنيالي الممتد على مدى أسبوع كامل. طلب منها أن تستقل القطار، لكنها كانت محملة باللوحات ولذلك أخذت سيارتها. لقد كانت سائقة ماهرة تعتبر قانون السير بمثابة ميثاق مقدس، وعندما أرسل لها القدر سائق شاحنة مسرعة انفجر إطارها في الطريق السيار حاولت السيطرة على الوضع، لكن الشاحنة خرجت عن مسارها كبقرة مجنونة تفترس كل ما تجده في طريقها، فطوحت بها بعيدًا بعدما منحها سائقها تذكرة بدون عودة إلى السماء السابعة. لقد كانت من بين أوائل الفتيات في مدرستها ممن تحصلن على رخصة قيادة السيارات، لكنها لم تكن تعلم أن القدر لا ينظر إلى رخصة القيادة ولا يأخذ بعين الاعتبار مهارة السائق.

انقلبت حياة يوبا بعد ذلك رأسًا على عقب، ودخل في دوامة اكتئاب نفسي رهيب. كما لو أن الحياة دهنت مساره بالصابون البلدي

الرفيع، ثم جعلته ينزلق بكل سرعة نحو هاوية مؤثثة بشفرات الحلاقة. حاول الطبيب النفسي أن يساعده على استرجاع شهيته للحياة، لكنه استرجعها بطريقة مفرطة وأراد أن ينتقم من الحياة. لذلك ابتلعته شهيتها، فأصبح نهمًا مقبلًا على ملذاتها بمختلف أصنافها. ضاجع أكثر من طالبة، وتعلقت به أكثر من امرأة، لكنه كان يفعل المستحيل كي يتملص منهن. كان يرفض أن يرتبط بامرأة فتأخذها منه الحياة. وإمعانا في الاحتياط، لم يكن يضاجع نفس المرأة أكثر من مرة. لقد كان يعلم بأن فخ الارتباط يبدأ عندما نفكر بتكرار المحاولة.

كان سرطان الرغبات يستوطن جسده بطريقة جنونية فيجعل الرغبة تنقسم إلى رغبات، وأصبحت الرغبات بعد ذلك تتناسل بعد ذلك بطريقة سرطانية فتتحول إلى استيهامات جنسية قذرة، ظل على تلك الحال حتى اكتشف يوما ورمًا بفخذه الأيمن عندما كان يستحم. لم يأخذ الأمر على محمل من الجد فقد أصبح لا يكترث للإشارات الصادرة عن جسده. لقد كان جسده في غاية الذكاء لكنه كان يستغبيه، لذلك تناسى جسده وانغمس في جحيم الرغبات. وعندما شخّص له الطبيب سرطان البروستات في مراحله المتأخرة جينها فقط تذكر الجنة وتذكر الجحيم.

خرج يومها من عند الطبيب وتوجه إلى حديقة مهملة مقابلة لعيادته تعوّد أن يجلس فيها طيلة مدة التشخيص، وهناك جلس على كرسي تحت شجرة تين بلدي طاعنة في السن، توجد في زاوية قصية من ذلك المنتزه المهمل الذي تحول إلى ملاذ للمتشردين والسكارى. كانت هناك قنينات فارغة من النبيذ الرخيص متناثرة، أكياس بلاستيكية سوداء، علب حليب كارتونية فارغة، عوازل طبية بعضها لا زال نديًّا بقيء الذكورة، وأحراش نابتة هنا وهناك. كانت هناك أوراق يابسة متناثرة في كل جنبات المنتزه تبللها قطرات المطر، لقد كان يمشي فوقها

فيحس بملمسها تحت قدمه، وكلما تمشى خطوة يحاول أن يخفف من ثقل الخطوة القادمة حتى لا يجرح كبرياء الأوراق الميتة الصفراء. تأمل هذا الداء المتكالب الذي استوطن جسده، وتذكر حينها كل أولئك الأشخاص الذين كرههم في حياته، بدءًا من أبيه الذي طلّق أمه وهجرهم في سن مبكرة، تذكر حياتهم التي كان يحولها إلى جحيم عندما يعود إلى المنزل في ساعة متأخرة وهو يترنح من السكر. لا زال يتذكر كل الكلام البذيء الذي كان يلقيه على مسامع والدته حينما كان ينعتها بالعاهرة، وبأنه تزوجها في لحظة سكر بعدما سحرت له.

تذكر أيضًا حقده على زميله في الدراسة الجامعية والذي كان يسرق منه الرتبة الأولى بفعل تزلفه لأساتذته. تذكر تلك أحبها بكل عنفوان أيام دراسته الجامعية وتركته لتتزوج من صديقه الذي أصبح سفيرًا. وتذكر حقده على صديقه الذي سرقها وأخذها معه إلى "كوريا"، تذكر أنه من الخلف طعنه. وتذكر كل أولئك الأطفال الذين كانوا يسخرون منه في طفولته وينعتونه بابن العاهرة التي هرب عنها والده. لم يستطع أن يغفر لوالده وظل ينتظر الفرصة كي يكبر وينتقم منه. تخيل أن يراه مشلولا بكامله وقد تعطلت كل حواسه، وما عادت تشتغل إلا السمع كي يستطيع أن يتقيأ في وجهه بكل الحقد الدفين الذي يكنه له. لقد جعل أمه تعود إلى البغاء من أجل أن تعوله وتوفر له مصاريف دراسته.

كانت تتركه مع جارتها بعدما تعد له طعام الغد لكي يحمله معه إلى المدرسة التي تبعد بسبعة كيلومترات عن منزلهم في القرية، وتقول له إنها تشتغل نادلة في مقهى ليلي في المدينة المجاورة لقريتهم. وكان يتمسك بها ويقول لها خذيني معك ولا تتركيني هنا وحيدا، لكنها لم تكن تريد له أن يتقزز من جسده حينما يكبر، لذلك كانت تقول له:

- لن أتأخر عليك يا حبيبي، سأعود قبل أن تنام لأحكي لك حكاية.

ولقد كانت تخذل وعدها في كل مرة فيظل ينتظرها حتى ينام. وعندما تعود في آخر الليل كانت تنام بجانبه. أما عندما يصحو فكانت تقول له لقد عدت مبكرا ووجدت أنك قد نمت أيها الديك البلدي. وكان يصدق كذبتها الصادقة ويعشق الديكة. ثم بعد ذلك بدأت تتركه مع جارتها لأنه أصبح يخشى الظلام. فكان ينام مع أبنائها السبعة في الغرفة الطينية الصغيرة، لم تكن هناك تهوية كافية، ولذلك ترتب لديه مرض الحساسية. لم تكن حساسيته إلا تعبيرا عن الحساسية التي يشعر بها في تعامله مع الآخرين، فلقد كان لديه جهاز استشعار نفسي على درجة عالية من الحساسية، لكن خجله كان يمنعه من التعبير عن حساسيته فيكبت مشاعره وأحاسيسه، ولذلك كبرت عقده معه. لقد كان بارعًا في كبت غضبه وكراهيته لكن عيونه كانت شفافة تفضحه. لذلك تعلم كيف يجعل نظرات عينيه حيادية، يمكن تأويلها على أكثر من إحساس.

عندما جلس يوبا تحت الشجرة مرت بذهنه خاطرة بقي يتأملها، تساءل في نفسه، لماذا لا تأتيني مثل هذه الومضات إلا عندما أجلس تحت هذه الشجرة بالذات؟ فسّر الأمر أول الأمر على نحو علمي يتناسب مع طبيعة تكوينه، مكان مهمل مثل هذا المنتزه يجعلنا نهرب إلى ذواتنا، لأننا لا نستطيع مواجهة هذا القبح الذي يكتسح بهاء هذا المنتزه فيمسخ طبيعته، أو ربما نحن لا نرى فيه إلا انعكاس قبحنا على صفحة نقائه. وربما أكون مصابًا بهذيان يشبه هذيان المخلصين الذين تعاقبوا على البشرية، وعوض تخليصها أورثوا البشرية حروبًا أساسها سوء الفهم. لم تكن لديه إجابة محددة لذلك ارتمى في حضن تأملاته هربًا من أسئلته المؤرقة.

- أحب أعداءك قبل أصدقائك، فلولاهم لما عثرت على الطريق. أتطفئ النار النار أم تضرمها في قلبك تضطرب اشتعالا؟ كل ما تريده من خير تكمن بداخله بذرة الشر، وكل ما حسبته شرًا تكمن بداخله بذرة الخير، فلِمَ الغضب؟

تناسلت بداخله الأفكار ونسجت حوله خيوطها كما تفعل العنكبوت عندما تحكم وثاق حشرة مفترسة.

- إنك لن ترى بذرة الخير حتى تؤمن بها، ولذلك اجعل من غضبك وقود الحياة، ولا تكترث لما يصيبه الآخرون ولا لما يكسبونه.

ما هذا الهذيان الفكري الذي يجتاحه دون سابق إشعار كلما جلس بالقرب من الشجرة؟

- الجهل مصدر كل خوف، والخوف أصل كل الشرور. إننا عندما نخاف مما نجهله فإننا نصبح عبيدا لدى من يمتلك المعرفة، ولذلك كلما عرفنا أكثر كلما تحررنا من خوفنا. كذلك الله... عندما نعرفه حق المعرفة فإننا نتحرر من الخوف بداخلنا. إنه يسكن في تلك المناطق المعتمة من النفس الإنسانية، تلك التي لم نجرؤ يومًا على الغوص بداخلها، ربما لأننا لا نملك الأدوات الكافية من المعرفة التي تنير الأعماق، ولذلك تستعبدنا العتمة.

أحس يوبا كما لو أن هناك روحًا تسكن تلك الشجرة وتتحدث إليه، ربما كانت لغتها مزيجًا من حفيف وذبذبات لا تقدر على فك رموزها حاسة السمع البشرية.

- الحياة احتمالات لانهائية ولكل طريقة المستقيم.

قالت له الشجرة.

سألها:

- وكيف أعرف طريقي؟

أجابته:

- حيثما تقاطعت مواهبك وحاجات العالم.

سألها:

وكيف أثبت على الطريق؟

صمتت الشجرة واستكانت لصمتها طويلًا هذه المرة حتى حسب أن بوحها سينقطع، ثم قالت له بعد ذلك:

- إنك لا ترى إلا الظلال فتتعلق بها، كلما قطعت على نفسك وعدًا أو عاهدت في لحظة فرح، تلك كانت إشارتك، نسيتها فنسيت معها نفسك، ثم انزلقت إلى منطقة الظلال. إنك لا ترى إلا ظلك يسحبك فتتعلق به، وتبني حوله أناك الزائفة ثم تتخيلها ذاتك، وترفض بعد ذلك التخلي عنها.

صمت يوبا طويلًا يتأمل ما تحدثه به الشجرة. لكنها استرسلت في حديثها هذه المرة دون انقطاع.

- أنت تيار مائي قادم من أعلى الجبل ويحاول عبور الصحراء، ويلزمك أن تتخلى عن كل ما هو غير أصيل فيك لتذوب في الرمال. حينها، ستتكفل الريح بك وستحملك، إنها لن تحمل منك إلا جوهرك، لتعود إلى الأرض مرة أخرى وقد تحولت إلى مطر. أما إذا كنت تخشى الذوبان في الوجود متمسكًا بذاتك الزائفة فإنك حينها ستتحول إلى مستنقع.

مرت الريح وانسابت معها أوراق الشجرة فأصدرت حفيفًا، ثم طارت قبرة فجفل صغارها في وجل، وأيقظه صوتها الأقرب إلى الصفير، عندئذ أدرك أنه استسلم لإغفاءة خاطفة. لقد كانت الشمس قد

شارفت على المغيب فبقي يتأملها وهي تسحب معها أشعتها تاركة خلفها أحراشًا من الظلال.

(١٠)

بعد ذلك، أصبح يوبا يتردد على الحديقة كلما كان بصدد حصة للعلاج الكيميائي. لقد أصبح يلمس تحولها بعدما أدخلتها البلدية ضمن مخطط إعادة تهيئة المدينة، إذ لم تعد مهملة بعدما تمت هندسة أحواضها النباتية من جديد. تأملها قبل أن يدخل لمباشرة حصته الأخيرة من العلاج الكيميائي، كانت كعروس تتأنق له. هناك في كل حوض تفتحت زهرة لوتس زرقاء مائلة إلى اللون البنفسجي، فيما نواتها الداخلية ازدانت بالأصفر، تقابلها زهرة أوركيد بألوان قوس قزح، وتحيط بهما أزهار الكرم من جهة، ومن جهة أخرى أزهار الليلك.

كانت الحديقة في أوج فتنتها كأنها تزف له، وكُنْتُ وارفة الظلال ومثمرة أنتظر فقط لحظة القطاف. لذلك، شق عليه الفراق. كان يلزمه السفر إلى فرنسا من أجل استكمال العلاج والسيطرة نهائيًا على المرض.

وعندما رحل عني أدركت أن دورته قد اكتملت وحانت لحظة الرحيل، بقيت سعيدة بأزهاري التي أورقت داخل الحديقة بمختلف ألوان الحياة. لكن، في الصباح أتت جرافات البلدية وهدمت السور المحيط بالحديقة، ثم بدأت بتوسعة الطريق الرئيسي. وعندما انتصف النهار أقبل آدمي خشبي فأعطى أوامره للجرافة لكي تقتلعني من جذوري. لم أفعل شيئًا لأن الحكيم لا يحاول تغيير مسار الأشياء.

لقد كنت آدميًا بدوري في حياتي السابقة، وعندما وقع فيضان مهول بقريتنا في بلغراد كنت من أوائل من هبّوا لنجدة الناس هناك.

أنقذت أكثر من إنسان، وعندما هممت بإنقاذ رضيع جرفني الماء، فتحلل الجسد وانتقلت روحي لتسكن هذه الشجرة. نعم، كنت آدميًا لكنني كنت إنسانًا ولم أقطع طيلة حياتي شجرة، حتى عندما كان يهجم الصقيع على قريتنا. لقد كنا نضطر إلى حرق أثاثنا كي نتدفأ لأننا نقدس الأشجار، إنها قصائد مرسومة في السماء، وأنتم تقطعونها لتصنعوا منها ورقًا تضمنونه حماقاتكم.

عندما جرفت الجرافة جذوري وفصلتها عن الأرض دخلت في غيبوبة، وعندما استفقت، وجدت جذعي مغروسًا في الأسفلت، لقد أعادوا غرسي داخل شارع في متقاطع طرق مختنق بالضجيج ودخان السيارات. لم أسع إلى الاحتجاج أو إدانة أحد. شيء واحد كان يخنقني، لم أعد أقدر على مد جذوري عميقا في باطن الأرض، لكن الحكيم يتقبل فقط، ولا يسعى إلى تغيير مسار الأشياء. هنا في الشارع العام سيجلس أكثر من شخص تحت الكرسي ليستظل بظلي، وحينها سأهمس بداخله، وسأمتص الدخان العادم الذي يخنقه نهارًا، وعندما سيأتي الليل سأعطيه الأوكسجين الكافي لكي يغوص عميقًا في ذاته دون أن يختنق. ولن أطلب منه عرفانًا أو اعترافًا لأنني شجرة، لا أحتاج لاعتراف من أحد كي أوجد كشجرة، ولا أحتاج لبطاقة تعريف من أحد، كما لا أحتاج أن أعلن عن نفسي، فبداخلي كل الاكتمال يستوي لأنني الوجود.

لم يجدني يوبا هناك في الحديقة عندما عاد من فرنسا، سأل عني ولم يدله أحد على مكاني لأنهم جرفوا أكثر من شجرة. بحث عني في كل الحدائق التي يعرفها، وحينما تعب في البحث عني ذهب إلى أريناس في المقبرة. اشترى قارورة شامبانيا وباقة ورود تتوسطها زهرة لوتس زرقاء، ثم ذهب كي يلتقيها في مقبرة الرحمان ويبوح لها باشتياقه إليها وإلي. هناك فتح زجاجة الشمبانيا ثم احتساها على جرعات وبدأ بعدها

في الغناء. غنى لها مقطعًا صوفيًا يقول مطلعه: "الروح في الجسد، والقلب معاكوم... عسى اللي انكوى، أو داق شقاكوم، في البحور يفنى."[٣٦]. أما عندما وصل إلى أوج سكرته الروحية فقد بدأ يرقص فوق قبرها ويعلن انتصاره للحياة في قلبه، كانت قصيدته "لا إكراه في الحب" محفورة فوق شاهدة قبرها.

نامي يا روحي فلنا أكثر من حياة. وإذا ما استيقظت ولم تجديني... تكونين حينها في حياتي الأخرى... حيث تنامين على ظهر غيمة بيضاء... في مرافئ روحي. أما أنا... فسأنام ملئ جفوني... كرضيع تلفه غمامة بيضاء... أحلم بالعصافير طليقة في سماء روحي.

حظ كبير ما حدث بيننا... لا يحدث لكل العشاق. تقاسمنا لحظات نقترف فيها الفرح... فتتوقف أنفاسنا لحظة الفرح. ويعصرنا الألم بين فرحين... يجملنا الألم... ويزكينا. سأكون سعيدًا بما حدث بيننا... عندما تشرق صباحاتك في حياتي الأخرى... ستورق شمسك صيفًا ومطرًا..... وتحملك إلي غيمة شاردة بيضاء.

أؤمن بالشمس والمطر... وأخشى العواصف الهوجاء.

نسبح ضد التيار؟ عفوا... تعلمت الانحناء للعاصفة. ففيها أرى... وأتبعه حيثما أراد وابتغى. أتبعه غير مكذب بالحسنى. وأرى ما أرى... إني أرى حطام مدينة ومجرة. أأكذب ما أرى؟ أم يا ترى أكذب عليك كي أدثرك من الأمل والألم والحطام. فألمك ينسكب بداخلي ككرة ملتهبة. أتراها كرة اللهب التي أخرجها مشرط الجراح؟

---

[٣٦] الروح في الجسد، والقلب معكم. عسى الذي انكوى، وذاق شقاءكم، في بحركم يفنى.

سأكون سعيدًا بما حدث بيننا... حينما تـزفين إلى الربيـع. ستصـبح سعيدة صباحاتك كأول الربيع... فما أجملـه مـن فـراق. حـظ كبـير مـا حدث بيننا... لا يحدث لكل العشاق.

نبذة عن الكاتب

أنس العاقل. من مواليد مدينة شفشاون سنة ١٩٧٥. أستاذ التعليم العالي تخصص الدراماتورجيا بالمعهد العالي للفن المسرحي والتنشيط الثقافي بالرباط. حاصل على شهادة الدكتوراه حول موضوع الدراماتورجيا وجمالية التلقي ودبلوم الدراسات العليا المعمقة في الأدب والفنون الحديثة بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس، وعلى دبلوم المعهد العالي للفن المسرحي والتنشيط الثقافي شعبة التمثيل. ممثل مسرحي، تلفزيوني وسينمائي، اشتغل في العديد من الأعمال الدرامية بالمغرب، كما سبق له أن حاز على جائزة أفضل ممثل خلال المهرجان الوطني للمسرح الاحترافي بالمغرب. اشتغل بالكتابة الركحية والاقتباس، ونشر مسرحيتين "جزيرة السلمون" و"أتراني سعيدا؟". وتعتبر رواية "هكذا تحدثت الشجرة" نقطة تحوله نحو الكتابة الروائية.

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

نامي يا روحي فلنا أكثر من حياة. وإذا ما استيقظت ولم تجديني تكونين حينها في حياتي الأخرى حيث تنامين على ظهر غيمة بيضاء في مرافئ روحي. أما أنا، فسأنام ملئ جفوني كرضيع تلفه غمامة بيضاء. أحلم بالعصافير طليقة في سماء روحي. حظ كبير ما حدث بيننا، لا يحدث لكل العشاق. تقاسمنا لحظات نقترف فيها الفرح. فنتوقف أنفاسنا لحظة الفرح.

ويعصرنا الألم بين فرح ... يحملنا الألم ويزكينا.

سأكون سعيدا لو حدث بيننا عندما تشرق صباحاتك في حياتي الأخرى. سينورق شمسك صيفا ومطرا وستحملك إلى غيمة شاردة بيضاء. أؤمن بالشمس والمطر وأخشى العواصف الهوجاء. نسبح ضد التيار؟ عفوا. تعلمت الانحناء للعاصفة. ففيها أرى وأتبعه حيثما أراد وابتغى... أتبعه غير مكذب بالحسنى. وأرى ما أرى إني أرى حطام مدينة ومجرة. أأكذّب ما أرى أم يا ترى أكذب عليك كي أدثرك من الأمل والألم والحطام؟ فألمك ينسكب بداخلي ككرة ملتهبة. أتراها كرة اللهب التي أخرجها مشرط الجراح؟

ISBN 9789773136253

مركز المحروسة